

أعلام العَدَب

٧١

على مبارك

ابو النعمان

تأليف

الدكتور حسين فوزى النجار

وزارة الثقافة

مؤسسة التأليف والنشر

دار الكاتب العربى

القاهرة - ١٩٦٧

مقدمة

نقف أحيانا من البطل أو العظيم في التاريخ موقفا قلقا نحكم عليه بذاته وأثره التاريخي وموقفه من الأحداث التاريخية متناسين عامل الزمان والمكان ، وقد يكونان أشد أثرا عليه وعلى موقفه من الأحداث التاريخية من ذاته فكم من رجال قذفت بهم ظروف الزمان والمكان الى مسرح التاريخ وسط الأنوار والضجيج فشغلوا بعض صفحاته ، ولم تكن لهم القدرة على تكييف مجراه أو التأثير في أحداثه وإنما ساقتهم الى العظمة قوى قائمة فعلا ، وبقدر ما يعملون على تشكيل تلك القوى وتكييفها تكون قدرتهم على التغيير ويكون أثرهم التاريخي ، فمنهم من يحتل مكانه البارز في صفحة التاريخ ، ومنهم من يمضي عابرا فوق صفحته كشخص المقابر ، لا تعنى أكثر من أن انسانا عاش ومات ولا تزيد على أنها بطاقات - على حد تعبير تولستوى - تعطى أسماء للأحداث ، فهم - كما يرى ماركس - أفراد عاديون يسيرون بزهو في أردية العظماء .

فاذا كان العظيم أو البطل في التاريخ - كما يقول هيجل - هو الرجل الذي يعبر عن ارادة عصره ، ويعبر لعصره عن ارادته ويعمل على تحقيقها فاننا ننسى وقر الزمان والمكان وأثره في تكييف الأحداث ، والتحكم في ارادة الفرد وقدرته على التغيير .

وقد عاش على مبارك حياة ((هي بنت زمانه ومكانه)) تحكمها نظم بدت حتمية أو كانت حتمية في وقتها ، توارث فيها ارادة الفرد أمام ارادة الحاكم ، واختفت فيها القيم المعنوية للمجتمع وانزوت الإرادة المادية للأفراد ، وغدت ارادة الحاكم هي وحدها التي تنعكس على المجتمع شرا أو خيرا ، وبها ينبه الأفراد أو يخلعون ، وفي هذا تتمثل قدرة البطل في التاريخ حيث يتكيف مع ظروف عصره وبيئته حتى يستطيع التعبير عن ارادته فيحملها عصره .

الا أن البطل في مثل هذا المجتمع يحتل في الغالب المكان الثانى ، ما لم تكن له القدرة على التغيير ، فيقوم بتقويض النظام القائم ، أو يقوم من بين الانقراض ليلعب الدور الأول فيحتل مكانه بين أبطال التاريخ ، ولم يكن على مبارك ممن يتصدرون موكب التاريخ ولكنه يمشى في ركابه ، وتبدو قدرته في المهارة التي يؤدي بها دوره ، وتقاس عظمته بالآثر التاريخي الذي ينجم عن دوره ، وقد لا نعه من أبطال التاريخ كما كان من الممكن أن نعد عرابي لو نجح في دوره وقوض - كما كان ينبغي - معالم النظام القديم ، واتما نعه صورة لرجل الدولة الكفاء الذي يخدم المجتمع عن طريق الدولة . فيكون أثره التاريخي بقدر ما يعكس من خير على المجتمع ، وتكون قدرته في استغلال ارادة الحاكم لخير بلده ، وبقدرته ونجاحه نستطيع أن نميزه على رجال عصره وبيئته بنوع من العظمة أو البطولة ونستطيع أن نقول أنه قام بالتعبير عن ارادته وابلغ عصره ارادته وان كان لا يملك المعول الذي يهدم ويشيد .

كان على مبارك من هذا الطراز من الرجال الممتازين في عصره ، وكان من الطبيعي أن يتكيف هذا الامتياز مع ارادة الحاكم والا حجب الحاكم امتيازهم وقدرته اذا ما أهمله وأبعده عن العمل .

وقد أبعد على مبارك عن العمل فترة ، وفكر في الاشتغال
بالتجارة ومارسها فعلا لولا أن ارادة الحاكم جذبتة الى الميدان
مرة أخرى ، وكان من الممكن أن يمضى في ممارسة التجارة ويفوز
بالثروة والمال فيعبر به التاريخ لا يعنى به ولا يلتفت اليه ولكنه حين
اضطلع بالعمل تفتحت مواهبه للرسالة التى نبه بها وجذبت اليه
سماع التاريخ .

وكم من سير التاريخ يحكمها ما حكم سيرة على مبارك حيث
يلتحم الذكاء بالارادة وتغوق الارادة قدرة الذكاء اذا تصدت لها
أو وقفت دونها فلا تتسدد ولا تثمر . ولكن حين اجتمعت ارادة
الحاكم الى ذكاء على مبارك وقدرته أبداع الذكاء وأثمرت القدرة
ونبه ذكر على مبارك .

فسيرة على مبارك هى سيرة مواهبه وقدرته وإبداعه وما أثمرت
الموهبة والقدرة والإبداع من خير لمصر ، ثم هى سيرة انسان
دؤوب يؤمن بحق وطنه عليه فيضع كل قدرته فى خدمة هذا الوطن
ورفع شأنه ، وهى بالتالى انعكاس للتفكير عقل وأسلوب ارادة
متميزين يطبعان عمل صاحبهما بطابع ذاتى فرد ينطلق الى الخارج
ولا يرتد الى الداخل فيكون أثره التاريخى بقدر ما يحمله تفكيره
وتسوقه ارادته الى العمل الذى يؤمن به ويرى فيه الخير لبلاده .
وهى أخيرا سيرة عظيم تكمن عظمتها فى تسخير ارادة الحاكم للهدف
الذى ينشده ويرتضيه .

وقد يبرر هنا ما أخذ به ، وقد يدينه ولكنه يبقى فى الحالين
محمود الذكر طيب الأثر .

المعادى فى ٨ ربيع الثانى ١٣٨٧
١٥ يولية ١٩٦٧

دكتور حسين فوزى النجار

حصاد الخطأ

تحطم

طموحه على صخرة أطماعه فالتاث عقله ، وقضى أيامه الأخيرة ميتا على قيد الحياة ، وكانت نهاية مفاجئة لرجل احتل في التاريخ مكانا مرموقا بين عظماء القرن التاسع عشر ، ولعل انهيار أعماله كان أشد قسوة على المصريين من انهيار آماله عليه فقد انتهى كل شيء ، ولم تجن مصر غير قبض الريح ، وارتدت الى أسوأ مما كانت عليه أيام المماليك فعانى الناس الفقر والحرمان وغدت السخرة قانونا ، وكانت تأتي عفوا لا يحكمها نظام أو قانون وانتبذ الأتراك المصريين ، فلم يلق المصريون منهم غير المهانة والازدراء . ولولا أن الموجة الغربية كانت قد امتدت فصفت عقول الناس وأيقظتها على حياة جديدة ولولا أن الإدارة المصرية قد اقتبست من النظم الأوروبية ما يربط الدولة بنمط جديد من الرجال تعدد المدارس ، ولولا أن استثمار الأرض الطيبة يحتاج الى تنظيم الري والصرف ووسائل الزراعة الحديثة مما يتطلب أعداد المهندسين والفنيين ، لولا تلك الحاجات الملحة ، لارتدت مصر الى ظلام القرون الوسطى ، فقد أثقلها محمد على بالنفقات التي استنزفت جهد الفلاح وماله دون أن تعود عليه بشيء ، وأثقلتها الطبقة التركية بالاستبداد والمظالم حتى غدا التركي شبعا مقيتا ورهيبا في آن واحد ، ولم يكن عجبا أن يخشى على مبارك لقاء عباس الأول حين استدعاه فيقول : « وداخلى مالا مزيد عليه من الخوف لما كنت أعلم مما يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الإيذاء ، وكان لى اجتماعات بالخديو اسماعيل وغيره منهم »

ولعله يشير الى السنوات التى قضاها ببعثة الأنجال فى باريس ،
وكان اسماعيل أحد أفرادها وان لم يذكر ما كان من ايدائهم له
ولرفاقه من المبعوثين المصريين ، ولكن خوفه من لقاء عباس الأول
قد أثاره - دون شك - ما لقي من عشرة الأمراء فى باريس
وما سمعه عن بطش آبائهم فلما لقيه وطلب منه ومن صاحبيه :
حماد بك ، وعلى باشا ابراهيم أن يكونوا فى معيته ، أنذرهم
أن لم يصدقوه القول وتبين كذب أحدهم فان « جزاءه سلب
نعمته ، والباسه لبس الفلاحين وسلكه فى سلوكهم » .

ولم يكن محمد على الا كمن أقام قصرا منيفا لا يسكنه غير
الخراب يبرق ظاهره ويغيم باطنه على سواد حالك ، لقد أقام
دعائم دولة حديثة لها ادارتها المحكمة ، وجيشها النظامى .
وحكومتها القوية الساهرة ، واستطاع أن يفزو وينتصر ، ويمد
ملكه حتى كاد يلتهم الدولة العثمانية ، وينشئ القناطر والسدود
ويحفر القنوات ويدخل زراعات جديدة ويقىم العمائر ويتوسع
فى التعليم ، ويدفع بالبعوث الى أوربا ، ولكنه حرم المصريين من
كل شئ ، فلم يعد عليهم خير من جده ولم تكن لهم ثمرة شقائهم ،
ولم ينجوا من قسوته وبطشه ، بل لقد غرس فى نفوس ابنائه
ازدراء المصريين واحتقارهم ، فكان عناء الناس من قسوته أشد
من عنائهم مما لحق بهم من فقر وجوع على يديه ، وما انتهت
حياته حتى تحطم البناء على رأسه ولم ترث مصر عنه غير العبودية
والعوز ، ولم يبق له هو نفسه غير عقل ملتاث وجسد مريض .

وما كان محمد على ينشد الاصلاح لذاته ، ولم يدر فى خلده
قط أن يعمل لخدمة مصر والمصريين ، ولم يفكر فى اقامة وحدة
عربية أو اسلامية كما يصوره بعض مؤرخيه ، وانما كان رجلا
يصدر عن ذاته ، ويصدر عن طموحه الشخصى وآماله العراض
فى بناء دولة يحكمها ويرثها أبناؤه من بعده ، وبقدر ما أوتى من

فطنة وذكاء وقدرة هيات النجاح لمشروعاته ولكل ما راود طموحه من أمل ، بقدر ما غفل عن شيء واحد كانت نهايته فيه حين أغفل المصريين ولم يلق بالآلى تلك العقول والسواعد التى تستطيع أن تسنده وتشد أزره عندما تتكاثر الخطوب وتتكاالب الأزمات ، فحين تصدت له الدولة ، لم يجد وراءه شعبا يقف الى جواره ، فبرمت به سورية وثارت عليه ، واستسلم المصريون يجتروا الالمهم فى صمت ، ودمغه بالمرستون حين أعلن أنه « يحارب محمد على لأنه يحارب لنفسه وليس وراءه شعب يطلب الحرية أو يستحقها » ، وحين عرف نهاية آماله أهمل مشروعاته فأقفلت المصانع ، وانكمشت المدارس ، وحمل عباس الوزر كله وحصد مرارة الخطأ . فقليل أنه أوقف عجلة التقدم ، ودفع بها الى الوراء ولم يكن فى قدرة عباس أن يصنع غير هذا ، وما كان فى قدرة محمد على لو امتد به الأجل أن يكون خيرا من عباس فقد أكمل عباس ما بدأه محمد على من اقفال المدارس حين انصرفت حاجته عنها ، وجرى سعيد جرى عباس فى هذا فلم يلق بالآلى التعليم ، ولم يكن هذا شذوذا على القاعدة التى وضعها محمد على فما كان محمد على - كما قلنا - ينشد رفاهية الشعب أو رفع مستواه المادى وانما راح ينشد ملكا ، وقام ينشئه ، ويصطنع من الأدوات ما يقتضيه الانشاء ، فأقام جيشا عد من خيرة جيوش العالم حينذاك ، ولكنه فشل فى أن يفرس فى المصريين روح الجنديّة ، فكان منهم من يتفنن فى إيذاء نفسه ليعفى من التجنيد ، ولم يعد عليهم عائد من فتوحه يحملهم على الفداء والتضحية ، وقتل فيهم الاعتداد بالنفس بما سامهم من عسف ، وخنق دوافعهم القومية منذ البداية ، وسود عليهم غيرهم ، فكرهوه وكرهوا كل عمل يقوم به ، وفقدوا حافز المجد الذى دفع الفرنسيين وراء نابليون لفتح أوربا .

وأنشأ المدارس ولكنه بدأ من القمة ، وما كان يعنيه من انشائها الا امداد جيشه بالضباط والفنيين والعتاد ، ولم يفكر في تعليم الشعب ، فما كان للشعب في ميزانه نصيب فاذا كان عباس وسعيد قد انصرفا عن التعليم فلأن الحاجة التي دفعت محمد على اليه لم تعد قائمة ، ولعل الفكرة التي أورثهم اياها محمد على ، وهى أن مصر مزرعة طيبة عليهم أن يستثمروها لأنفسهم خير استثمار ، كانت نبراسهم في كل عمل يقومون به ، فاذا كانوا قد أولوا الري والزراعة شيئا من اهتمامهم ، أو جل اهتمامهم ، فقد عنى بها الاحتلال البريطانى لنفعه هو الآخر - أكثر مما عنىوا أنفسهم - وكان الفلاح أكثر عائدا من الأرض على عهد الاحتلال ، مما كان على عهد الاستبداد الخديوى . فقد ظل الفلاح أجيرا مسكينا مسخرا على عهد محمد على وعباس ، ولم يتحسن حاله كثيرا على عهد سعيد واسماعيل بالرغم مما ناله من حق تملك الأرض ، وبالرغم من تعس الفلاح وضالة عائده ، فان عمال الصناعات المحلية السائدة - وكانت تحقق عائدا سنويا قدره مائة وخمسون ألفا من الجنيهات - قد هجروا صناعاتهم الى الزراعة بسبب نظام الاحتكار الذى عاد « على الباشا بأرباح طائلة - كما يقول مريو فى كتابه مصر الحديثة - ولكنه دفع الفلاحين الى المجاعة بما أنزله بهم من فقر » .

وكانت الضرائب فادحة ثقيلة ، لم تبق شيئا فى يد المصريين ، وعجزت قرى بأجمعها عن الأداء ، فأضاف ضرائبها الى ضرائب القرى المجاورة ، وضمن الموسرين ضريبة المعسرين ، ثم عهد بها الى الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية يؤدونها ثم يستوفونها بعد ذلك من الأهالى كل بما عهد اليه من بلاد . وهاجر كثير من المصريين الى البلاد العربية المجاورة فرارا من فدح الضرائب وأضرار التجنيد . وارتفعت الأسعار حتى بلغ ثمن السلعة عشرة أمثال ثمنها الأسمى ، كما يقول الجبرتى ، فزادت الناس فقرا على فقر .

وكانت في الرجل قسوة تجرده من كل فطرة انسانية ، يقص الجبرتي من اخبارها ما أهمل روايته مؤرخو الأسرة العلوية من المصريين ، فمن ذلك أن أدوات للقهوة سرقت من سراياه بشبرا ولما سيق اليه المتهمون وكانوا خمسة أمر بقتلهم ، ثم أخذ خمسين غيرهم ممن حامت حولهم الشبهات فأمر بقتلهم متفرقين في بلاد عديدة من الغربية والمنوفية والقليوبية ، ومنها أن ولده ابراهيم أمر برجل في الصعيد فربط الى خشبة وأمسك رجال بأطرافها يقلبونه على نار مشتعلة (مثل الكباب) ، ويقول الجبرتي أن ابراهيم حين نزل الى الصعيد ، وكان قد تولى امارته وهو دون العشرين (جاهلا غشوما) فعل بأهله ما فعل التتار عندما جالوا في الأقطار وأذل أعزة أهله ، ويروى أن رجلا استخلفه بقوله : « وحق من أعطاك ، فقال له ابراهيم ومن الذي أعطاني .. ؟ قال : ربك ، فقال له : انه لم يعطني شيئا .. والذي أعطاني أبي » .

وكان لحبه المال لا يآلو في جمعه سبيلا ، فكان يبيع ما يزرع حتى الخضر ، وينادي البائعون فيقولون : فجل الباشا ، كرنب الباشا ، ملوخية الباشا « ولما رغب صهره » « محرم بك » أن يسافر الى بلده ، أرسل الى الأعيان « تنابيه بالأمر لهم بمهاداته ، ففعلوا وعبوا له بقجا بنا وأرزا وأقمشة هندية ومحلاوية كل أمير على قدر مقامه » .

وظل هذا الشره الى المال كامنا في أعقابه ، فضلا عن شطحات عقل تكمن فيه لوثة ورثوها عنه تبدو في سلوكهم ونزواتهم ، فمن غرابة عباس الأول وشدوذه الى بلادة سعيد وغبائه وسفه اسماعيل وغروره ، وسلبية توفيق وجبنه ، وغيره فؤاد الجنسية التي أفسدت بنيته وزوجه الى صبيانيات فاروق ورعونته وبله تصرفاته ، ولى اسماعيل الحكم وهو لا يملك غير خمسة عشر ألف فدان . فاذا بها في نهاية حكمه وقد أصبحت تسعمائة وخمسين ألف فدان .

واقترف عباس الثانى كل شائنة حتى الرشوة للحصول على المال وأصبح فؤاد الذى اعتلى العرش مفلسا أكبر مالك فى البلاد ، واتخذ فاروق من القمار وسيلة للرشوة وجمع المال ، ومن نقائص خلقتهم أنهم كانوا يجمعون الى الذكاء الخاطف غباء أصيلا يدمر كل لمحة من لمحات ذكائهم والى جمال الصببا قبح الرجولة ، ففاروق الصبى المحبوب ، قد تحول الى غوريلا ضخمة ، ولما تجاوز الحلقة الرابعة من عمره ، وكانت تلك خاتمة ابن عمه عباس الثانى من قبله ، بدأ أميرا وجيها وانتهى مرابيا صعلوكا قبيحا .

وانعكست هذه النقائص على البلاد شرا وقسوة واملاقا رزح تحته المصريون طوال قرن ونصف ، ولم تكن الصورة التى يصفها الجبرتى لعام ١٢٣٢ هـ (١٨١٧) عن الشح والفلاء وندرة الأوقات ، وأعطاها « مانجان » مدلولها التاريخى بقوله : « اذا صح ما يقال من أن مصر أخصب بلاد العالم وأغناها ، فما من بلد آخر يفوقها فى تعاسة سكانها وبؤسهم ، فاذا لم يفن سكانها حتى الآن ، فالفضل فى ذلك الى خصب أرضها وقناعة فلاحها » وأجملها « الرافعى » بقوله : « فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة أعمال العمران لم يقترن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية » لم تكن هذه الصورة لتختلف كثيرا عما رآه « بلنت » ودونه عام ١٨٧٦ عندما جاء لزيارة مصر ، فقد « كان الفلاحون - كما يقول - يعانون أشد حالات الفقر والاملاق ، ففى هذا العام وهو الأول من الأعوام الثلاثة الأخيرة المروعة من حكم الخديو اسماعيل وحملة القراطيس الأجانب يجأرون مطالبين باستحقاقاتهم ، واسماعيل صديق المفتش المشهور ما زال فى أوج مجده كانت المجاعة تدق أبواب الفلاحين ، وكان من النادر أن يرى الانسان فلاحا على رأسه عمامة ، أو على ظهره أكثر من قميص ... ولم يكن بين مشايخ القرى من يملك عباءة غير عدد قليل ، وأينما ذهبت كانت الحال كما وصفت ، وتفشى النسوة الأسواق لبيع ملابسهن ، وحليهن الفضية

عباءة غير عدد قليل ، وأينما ذهبت كانت الحال كما وصفت ،
للمرابين الأروام ، فان جامعى الضرائب كانوا بانتظارهن فى القرى
والكرابيج فى أيديهم ، وقد ابتعنا من مصوغاتهن الزهيدة ،
واستمعنا الى قصصهن ، واستنزلنا معهن اللعنات على الحكومة
التي كانت سببا فى عريهن » . وكأن مصر لم تجن شيئا خلال تلك
السنوات الطوال من عام ١٨١٧ الى عام ١٨٧٦ ، ولم يعد فى يدها
غير حصاد الخطأ .

وكان الاحتلال البريطانى لوادى النيل عام ١٨٨٢ ، حصاد
جيل من الأخطاء امتد قرابة سبعين عاما ، منذ استبد محمد على
بالسلطة حتى عودة توفيق الى القاهرة والى كرسى الخديوية مجردا
من السلطان على أسنة الحراب الانجليزية ، ولا تنسى القاهرة
ذلك اليوم الحزين يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، وقد رأت عربة الخديو
التي اقلته من (محطة مصر) الى سراى الاسماعيلية وهى تحمل الى
يساره « دوق كنوت » وأمامهما الجنرال ولسلى قائد الحملة
والسير ادوارد مالت المعتمد البريطانى يتبعهما
« دوق تك » ممتطيا جواده فى مقدمة كتيبة من الفرسان الانجليز
ووراءه الأمراء والوزراء والعلماء وكبار المستقبلين ، بينما اصطفت
قوات الاحتلال على الجانبين فى طريق الموكب من ميدان المحطة
حتى سراى الاسماعيلية .

وفى هذا الجيل عاش « على مبارك » - ولد فى قرية برنبال
الجديدة من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية عام ١٢٣٩ هـ
(١٨٢٤ م) واجتاز مراحل التعليم المختلفة حتى أوفى على غايتها
بمدرسة المهندسخانة ، فكان أول فرقته واختاره سليمان باشا
الفرنساوى عام ١٨٤٤ فيمن اختارهم للدراسة الفنون الحربية
فى مدرسة خاصة أنشأها محمد على بفرنسا وعرفت باسم
« المدرسة المصرية الحربية بباريس » وهذه البعثة هى التى سميت

« ببعثة الأنجال » إذ ضمت من أبناء محمد على وأحفاده أربعة
— هم ولداه « الأمير حسين » و « الأمير حليم » ، وحفيده
« الأمير أحمد » و « الأمير اسماعيل » من أبناء ابراهيم .

وتميز أفراد هذه البعثة بعضهم عن بعض ، فالأمراء هم
« أصحاب السعادة البكوات » وأبناء الدوات هم « البكوات »
فحسب ، وغيرهم هم الأفندية « وبهذا جرت تسميتهم في دفاتر
المحفوظات » .

وعاد على مبارك من البعثة عام ١٨٥٠ فلم يلحق بحكم محمد
على ولا بحكم ابراهيم القصير ، ولحق حكم عباس ، وسعيد ،
واسماعيل ، وتوفيق حتى توفي في نوفمبر عام ١٨٩٣ بعد أحد عشر
عاما من الاحتلال البريطاني كتب فيها صفحة لامعة في تاريخ مصر
ما زالت صورتها باقية حتى يومنا هذا .

مغامرة الطموح

شب

الوليد عن الطوق ، وجاوز مرحلة الطفولة الى بواكير الصبا ، وأراد أبوه أن ينشئه على غرارہ ، يفقه الناس في دينهم ، ويقضى لهم حوائج دنياهم مما يحتاجه مجتمع صغير يعيش على الزراعة ولا يرى أفرادہ حاجة الى القراءة والكتابة ما دام هناك من يقوم بوظائف « القضاء والخطبة والامامة وعقود الأتکحة والکیل والميزان » وما تتطلبه من المام قليل بالفقه وبالقراءة والكتابة .

وكان في كل قرية أسرة تتوارث هذه الوظائف ، ويتلقى من يعد لها قدرا من التعليم لا يتجاوز حفظ القرآن الكريم ، والمأما بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب والمعاملات الشرعية ، يكفيہ أهل القرية حاجته من المعيشة ، فلا يشغل نفسه بما يشغل به الفلاحون من زراعة الأرض طلبا للقوت ، وتلقى مثل هذه الأسر من التوقير المشوب بالعاطفة الدينية ما يعوضها جاه المالك ونفوذ الفنى وان لم ترق الى المكانة التى يتمتع بها المالك أو الفنى ، ولكنها في مجتمع لا يملك ولا يمتاز بعض أفرادہ بالشراء كمجتمع القرية المصرية حينذاك ، كانت تتمتع بنوع من المكانة يسبغها الفضل والعمل الدينى عليها .

ومن هذا القبيل كانت أسرة على مبارك ، يرجع أصلها الى قرية « الكوم والخليج » على بحر طناح « وبسبب فشل كبير حصل في البلد - كما يقول على مبارك في سيرته بالخطط التوفيقية - تشتت عائلتنا في البلاد ... وأقام جدنا الأكبر ابراهيم الروجى

بناحية برنبال الجديدة مكرما معززا فكان هو امامها وخطيبها وقاضيا ، وبعد موته عقبه ولده سليمان على وظيفته وعقب سليمان ابنه مبارك ، ولما رزق مبارك الذي هو الجد الأدنى بأبي سماه على اسمه ونشأ على وظيفة آبائه وأجداده ، وهكذا أكثر العائلة ، فلذا كانت تعرف في البلد الآن بعائلة المشايخ ، وهي عائلة كثيرة الفروع بحيث أن منها في البلد حارة كاملة تعد نحو مائتي نفس . . . وكانت لهم رزقة بلا مال ولم يكن عليهم شيء مما على الفلاحين ، ولا لهم علائق عند حكام الجهات ، وبقوا على ذلك الى أن حصل ضعف أكثر أهالي الناحية عن فلاحية الأرض وانكسرت عليهم أموال الديوان ، فرمى الحكام على هذه العائلة مقدارا من الأطيان وطلبوا منهم أموالها المنكسرة عليها ، وضربوا عليهم بعض ضرائب وشددوا في خلاصها بالسجن والضرب كأسوة الفلاحين ، فضاقت خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة ، وبعد بذلهم ما بأيديهم وبيعهم المواشي وأثاث البيوت ، رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار ففارقوا البلد وتفرقوا في البلاد ، فنزل والدي بقرية الحماديين من بلاد الشرقية وعمرى إذ ذاك نحو ست سنوات .

ولا يذكر على مبارك علة هذا « الضعف » الذي حاق بالفلاحين فحال بينهم وبين فلاحية الأرض وحمل أهله على هجرة بلدهم فرارا من الضرائب ، ولا يعنى هذا أن الصورة لم تكن واضحة في ذهنه ، أو أنه لم يتبين أسبابها فيما بعد ، ولكنه وهو يدرك تماما علة البلاء حين كتب « الخطط التوفيقية » وأن مصدره نظام محمد على المالي والإداري ، لم يشأ وهو أحد رجال « الدولة العلوية » أن ينسب السوء اليها فيكتفى بالإشارة الى « انكسار أموال الديوان » وما رمى به « الحكام عائلته من الأطيان » ويبقى طوال حياته لا يعرض للأسرة الحاكمة بسوء ، وإن لم ينل من

ورائها خيرا الا ان مكنته من خدمة بلاده ، فحول نزوة اسماعيل المظهرية للإصلاح الى عمل جاد مثمر عاد بأعظم الخير على البلاد ، ولا يطيب لأبيه المقام في قرية الحماديين ، فيرتحل عنها الى جوار عرب السماعنة بالشرقية يقول عنهم انهم « من عرب الخيش » وهم طائفة - على ما أعلم - من البدو يعيشون على رعى الأغنام وينسجون خيامهم من أصوافها ، ويعيشون حياة قبلية مستقرة على حفاقي القرى بمعزل عن سكانها . وان ربط بينهما جوار حميد ، وما زالت بقاياهم تعيش حياتها الأثرية في ريف مصر حتى يومنا هذا .

ويجد في عرب السماعنة كرما تطيب له حياته معهم ، ويبنون له مسجدا يقيم لهم فيه شعائر دينهم ، فلم يكن فيهم من يقوم اهم بها ، وحين يلوذ بحياته الجديدة راضيا ، يلتفت الى تعليم ولده على فقام على تعليمه بنفسه - وكان قد عهد به في برنبال الى فقيه أعمى « يسمى أبا عسر » يعلمه القراءة والكتابة - ثم دفع به الى « معلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر من ناحية الكردي ، قرية بقرب برنبال ، وكان مقيما بقرية صغيرة قريبة من مساكن هؤلاء العرب ، وجعل الوالد يرسل لى كفايتى عنده ، وكنت لا اذهب الى بيتنا الا كل جمعة ، ومن خوفي منه كنت لا أعود اليه فارغ اليد ، فأقمت عنده نحو سنتين فختمت القرآن بداية ، ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن اذهب اليه بعد ذلك ، وجعلت أقرأ عند والدى الا أنى لكثرة أشغاله واشتغاله عنى استعملت اللعب والتفريط فنسيت ما حفظته ، فخشى والدى عاقبة ذلك فهم بجبرى على الذهاب الى هذا المعلم فتعاصيت ونويت الهروب ان لم يرجع عنى ، وكان لى من الأخوات سبع بنات شقيقات ولم يكن لوالدتى من الذكور غيرى ولى الخوة ذكور من غير أمى ، فلما فهموا منى نية الهروب ، أشفقوا من ذلك وحنوا الى وسألونى

عن مرغوبى فى التربية اذ لا يصح بقاء الشخص بلا تربية فاخترت
ألا أكون فقيها بهذه المثابة ، وانما أكون كاتباً لما كنت أرى للكتاب
من حسن الهيئة والهيئة والقرب من الحكام » .

واذن فقد أصبح للطفل رأى هو وليد التجربة والخبرة على
قلتهما والطموح على بداوته ، ولا بد أنها كانت جميعاً تستند الى
ذكاء فطرى يزن الأمور ويقدرها ، ويدفع عنها بأسلوب ينم عن
سلبية فلا يدفع بالتصدي والعصيان وانما يدفع بالهرب أو التهديد
بالهرب ، ولعله يرى فى هذا الأسلوب ما يحقق بغيته أكثر مما
يحققها التصدي والعصيان ، وسرى هذا الأسلوب من السلبية
يسود حياته جميعاً ، يقعد به عن التصدي والمقاومة ، وأحياناً
عن السعى ، ويحمله على الاستسلام والرضا والتكيف مع الأمور ،
بل أنه ليرى فى التكيف سبيلاً الى تحقيق الغاية المنشودة .

وينزل الأب على ارادة الطفل ، فيسدد به من جديد الى
صديق له من كتاب الأقسام كان يقيم - كما يقول - بناحية
« الأخيوه » فيراه « رجلاً حسن الهيئة ، نظيف الثياب ، جميل
الخط » ولكن ظاهره غير باطنه فسرعان ما يكتشف فقره واملاقه
وقسوته وكسله ، فقليل ما كان يخرج الى ... « السرحة »
فاذا خرج اليها صحبه لخدمته . فلا يتعلم منه الا ما كان يعلمه اياه
على قلته « أمام نسائه » وكثيراً ما قضى ليلاليه طاوياً لقلّة الزاد
فى بيت معلمه ، على كفاية ما جعل له أبوه من مرتب ، وعلى قلّة
ما يناله من زاد وتعليم على كثرة ما كان يصيبه من أذى على يده
حتى كانا يوماً « فى قرية المناجاة فسألنى أمام الناظر وجماعة
حضور عن الواحد فى الواحد فقلت له باثنين ف ضربنى بمقلاة
بن فشجنى فى رأسى ، فلامه الحاضرون ، وذهبت الى والدى
أشكو اليه فلم أنل منه الا الأذية » .

ولم يجد خلاصاً غير الهرب ، فلعل فيه منجاة مما هو فيه ،

ألم تهرب أسرته وأبوه فراراً من العسف ، ألم يتفرقوا في البلاد خوفاً من بطش الحكومة ؟ فلما لا يهرب هو الآخر ما دام لا يريد أن يكون « فقيها بهذه المثابة » وما دام رواء الكاتب قد تكشف عن فقر وأملاق وما دامت مقلاته تشج الرؤوس ؟

تري أي حافز ألم خاطر الفتى ؟ أو لعله لم يفكر في غير الهرب مما هو فيه ، ما دامت حياته لا تستوى على أمل . . لقد رضى بأن يكون فقيها إلا أنه أمل لا يساوى ما يلقاه فيه من عناء فان قبله فليس « بهذه المثابة » وهو أن يكون كاتباً ، وغره من الكاتب حسن بزمته وجمال خطه فأخلفت الحقيقة ظنه ، ولعل ما رآه من هيبة الكتاب وقربهم من الحكام هو الآخر خدعة كهذه الخدعة التي رآها من كاتبه . فماذا بعد إذن ، والطريق خلو من الأمل ؟ اليس في الهرب على الأقل منجاة من العصا وشج الرأس ؟ ولعله لن يخسر كثيراً . . ولعله يصادف في بيت خالته بالمطرية أملاً جديداً أو لعله يصادف هذا الأمل في الطريق إليها ، ولعل هذا الأمل لا يجاوز في مخيلته الفرار من العصا وشج الرأس ، وتستوى الحياة بعد ذلك ، فما أن مرض بالحمى « أو الريح الأصفر » كما يدعوها وهو في طريق الهرب ، ولقى من يرعاه من أهالي صان الحجر حتى أنكر أن له أهلاً ، وربما طاب له المقام ، لولا أنه رأى أباه على بعد وكان قد استدلل على مكانه فهرب إلى « منية طريف » ولقى أعرابياً أقام عنده قليلاً ، ثم هرب منه ولحق بأخ له في برنبال ، وكان قد رجع إليها وأقام بها . وفي برنبال جاءه من أخوته من رجع به إلى أبيه ، فيرضى بأن يعمل مع « صاحب له من كتبة المساحين » وتطيب له عشرته لما كان يناله من نقود تفيض عليه « مما يأخذه كاتبه من الأهالي » ولكن الكاتب يطرده بعد ثلاثة شهور لأنه لصفر سنه — كما يقول — « وعدم معرفتي بما ينفع وما يضر كنت أفشى سره وأخبر عن أخذه من الناس » وقيم مع أبيه عاماً أو بعض العام حتى

يلحق بعمل جديد « مساعداً عند كاتب في مأمورية أبى كبير
بماهىة خمسين قرشاً أبيض له الدفاتر » .

ولكنه لم ينل منه غير القوت مما يطعم فى بيته وبقي ثلاثة أشهر
دون أن يقبض راتبه وخلقت ثيابه ، وساء حاله ، فما كان منه
إلا أن اقتصر راتبه من أموال كلفه الكاتب بتحصيلها ، وكتب به
« علماً بالواصل » ووضعه فى « كيس النقدية » ففيظ الكاتب منه
ووشى به لى مأمور أبى كبير وأغراه بتجنيسه أو « بالحاقه
بالجهادية » على حد قوله « فنادونى على حين غفلة وأمرنى المأمور
بالذهاب الى السجن لمكتب المسجونين وأصحبنى رجلاً من أغوات
المأمورية ، فلما دخلت السجن أحضروا باشا من الحديد ووضعوه
فى رقبتي ، وتركت مسجوناً فداخلى مالا مزيد عليه من الخوف ،
فلبثت فى السجن بضعة وعشرين يوماً فى أوساخ السجن وقاذوراتها
وصرت أنتحب فرق لى السجنان لصفر سنى فقربنى الى الباب ،
وواسيته بشيء من النقود التى كانت سبب سجنى ، وكنت أرسلت
الى والدى بخبرى ، فذهب الى العزيز وكان بناحية منية القمح ،
وقدم له قصتي فى عرضحال ، فكتب باخلاء سبيلى ، وأخذ والدى
الأمر بيده ، وقبل حضوره أتى الى السجنان صاحب له من
خدمة مأمور زراعة القطن بنواحي أبى كبير وأخبره أن المأمور محتاج
الى كاتب يكون معه بماهىة ، وكان السجنان يميل الى فدله على
ووصفنى له بالنجابة وحسن الخط وعرفه مسكنتى وما أنا فيه ،
فمال الخادم الى وطلب منى أن أكتب خطى فى ورقة ليراها المأمور ،
فكتبت عريضة واعتنيت بها وناولتها للخادم مع غازى ذهب إقيمته
عشرون قرشاً ليسلك لى الطريق عند مخدومه ووعدته بأكثر من
ذلك أيضاً ، فأخذهما ، وبعد قليل حضر بأمر الافراج عنى وأخذنى
معه حتى قربت من المأمور وكان يسمى « عنبر أفندى » فنظرت
اليه فاذا هو أسود حشى كأنه عبد مملوك لكنه سمح جليل مهيب ،

ورأيت مشايخ البلاد والحكام وقوفا بين يديه وهو يلقي عليهم
التنبيهات . »

ويقص على مبارك ، بعد ذلك ، كيف قابله عنبر أفندى واتفق
معه على العمل والأجر وكان خمسة وسبعين قرشا في الشهر عدا
« جراية كل يوم » ثم يتساءل متعجبا كيف يكون ممن يعرفهم من
المشايخ الذين يعرف أنهم من مشاهير البلاد وأصحاب الثروة والخدم
والحشم والعبيد من يقف بين يديه ممتثلا لأوامره ولم ير ذلك من
قبل ولم يسمع به « اذ ان الحكام لا يكونون الا من الأتراك على حسب
ما جرت به العادة في تلك الأزمان » .

وتستبد به الحيرة ، فيلازمه ليقف على سره ، وينفرد بأبيه ،
وكان قد جاء بأمر العزيز وعرف ما آل اليه أمر ابنه ، ويسأله
عما يكون من أمر هذا المأمور ، وهو عبد أسود وما هو من الترك ،
فيقول له أبوه « قد يكون عبدا عتيقا » فيسأله « وهل يكون العبد
حاكما مع ان أكابر البلاد لا يكونون حكاما فضلا عن العبيد ؟ » .

ويمضى الحوار بين رجل لا يرى في الأمر خروجا على ارادة القدر
وغلام يريد أن يعرف علة ذلك وأسبابه ، ولا يخرج الغلام من حديث
أبيه بما يقنعه ، ويلح عليه الأمر ويلمح وراءه بصيصا من الأمل ،
فاذا كان جد هذا العبد وذكأؤه قد وصلا به الى هذا المنصب
المرموق وليس من الترك ، فما أحراه بمعرفته عساه يجد فيه أملا
جديدا لعله راود خياله من قبل لولا يأسه من أن يكون من بين
المصريين صاحب منصب أو جاه في وقت يعرف أن المنصب والجاه
فيه للترك أما وعنبر أفندى ليس تركيا بل أنه أسود حبشى ،
فهناك فرجة من الأمل ، الا أن يكون عنبر أفندى عبدا عتيقا على
ظن أبيه ولعتقاء محمد على بعض ما للأسرة من جاه ونفوذ حين
سودهم على المصريين ، ولم يكن المصريون في نظره غير حمالي أثقال
وسواقى حمر ، فاذا كان للجد سبيل فالسبيل هين اليه .

ولعل الفتى حين طافت به هذه الخواطر قد أخذ يفكر في مستقبله ، وفيما يؤول اليه أمره لو غدر به المأمور كما غدر به الكاتب ، فاذا كان المأمور قد أنقذه أول مرة فمن ينقذه هذه المرة . فيقول « كانت همتي في التخلص من كل ذلك ومن أمثاله وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها » .

ولعله وهو يرى أبواب الطموح موصدة أمام المصريين ما كان يعنيه من المستقبل إلا أن يؤمن حياته من الذل ومن غوائل الحاجة ، فاذا استوت الحياة عند لقمة العيش فأمرها هين أما أن يكون الذل كفاء لقمة العيش ، فلا حاجة به اليها وأمرها يسير ، فقد خرج من داره وعاش بعيدا عن أهله فلم يفقد هذه اللقمة قط ، بل لقد وجد من يرعاه حين مرض وطال به المرض خلال هربه ، أما وهناك فرجة أمل تلوح له في عنبر أفندى ، فما أحراه أن يسعى اليها ويستوثق منها ، فاذا لم يجد عند أبيه ما يرضى فضولة الى الحقيقة ، فلعله يجدها عند من يعرف عنبر أفندى ويعرف سر نعمته ، ولعله في سعيه وراء هذا السر كان يريد أن يستوثق من الطريق الذى سلكه فرفعه الى منصبه هذا . وقد بدا له حينذاك ضخما خطيرا ، وهل يتسنى له أن يسلكه أم كان أمره استثناء فلا قدرة له عليه .

العناء والأمل :

ويسعى الفتى الصغير وراء الحقيقة في تاريخ عنبر أفندى ، ويعرف عن طريق خادم له وثق صلته به « أن سيده يشتري ست من الستات الكبار مرعيات الخواطر أدخلته سيدته مدرسة القصر العينى لما فتح العزيز المدارس ، وأدخل فيها الولدان ، وأخبرنى أنهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، وأن الحكام انما يؤخذون من المدارس فحينئذ جال في صدرى أن

أدخل المدارس ، وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين ، فأفادني أنه يدخلها صاحب الواسطة ، فشغل ذلك بالي زيادة ، ومع ذلك فلم تفر همتي ، وسألته عن قصر العيني وعن طريقه ، وكيف الإقامة فيه ، فأخبرني عن ذلك كله وأثنى على حسن إقامتهم بها ومأكلهم وملبوسهم وكرامهم ، فازددت شوقا ، وكنت أكتب عندي كل ما يخبرني به من بيان الطريق وقدر المسافة وأسماء البلاد التي في الطريق ، وقامت بنفسى فكرة التخلص والتوصل الى المدارس .

أذن فقد استبان الفتى طريقه وعرف أن السبيل الى المدارس ومن ثم الى المناصب مفتوح أمام الفلاحين ، ولكن « بالواسطة » وان أهمته « الواسطة » الا أن الطريق ليس مقفلا تماما ثم طلب الاذن بزيارة أهله ، وبينما هو في الطريق اليهم ، وعند قرية بنى عياض صادف أطفالا « تحت قيادة رجل خياط مع كل واحد دواة واقلام فجلست معهم تحت شجرة وتحادثنا ، فظهر لى أنهم تلامذة من مكتب منية العز » ويشهد له الأطفال حين يرون خطه أنه لو كان بينهم لأصبح « جاویشا » فيقول الخياط ذلك قليل عليه فان خط الباشجاویش الذى عندنا لا يساوى هذا الخط » ويعرف أن الجاویش والباشجاویش هم « المقدمون في المكتب » كما يعرف أن « نجباء المكتب ينتقلون الى المدارس بلا واسطة » ويقول على مبارك : « فرأيت ذلك غاية مرغوبى ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب فاذا ناظر من معارف والدى فأراد أن يمنعني من الانتظام في عقد التلامذة واجتهد في ذلك لمرضاة والدى » .

ويحتال الناظر مع أبيه على إبعاده عن المكتب ، ويحبسه أبوه في البيت عشرة أيام « ووالدتي - كما يقول - تبكى منى وعلى وتستعطفني للرجوع عما يوجب فراقهم ، وتحلفني أن أرجع عن تلك النية ، فوعدها بالرجوع » حينذاك أطلق سراحه ليرعى غنيمات لهم ما دامت حرفة الكتابة تجذبه بعيدا عنهم .

أى حياة تلك التى كان يحيها المصريون حينذاك ، أهو الجهل الذى خيم حقة على أفدة الناس فقعد بهم عن الطموح ؟ أم عاطفة الأبوة وأواصر الأسرة التى تقعد بهم عن تعليم ولدهم مخافة فراقه ، أم هو البعد عن السلطان مخافة أذى السلطان ؟

هذا ما سكت عنه المؤرخون فلم يشيروا إليه بتفسير أو إيضاح ، ولعلنا نجد فى نظام محمد على التعلیمی ما يفسر لنا ذلك ، فما رأينا المصريين يصدون عن الأزهر أو يرهبون تعليمه ، وظل الأزهر أحقابا يزود البلاد بالعلماء والمتعلمين على قلتهم ، ولم يكن فى التعليم الأزهرى جاه أو سلطان الا للموهوبين ، وكثيرا ما كان يقصده من عجزت بهم سبل الحياة عن فريق آخر من المكفوفين أو العاجزين يحفظون القرآن ويشغلون بالدين ، وكان الأزهر يقدم لهم جرایة يومية تكفل لهم معيشة وان بلغت حد الشظف ، الا انها تبقى عليهم حياتهم ، وهكذا كان نظام محمد على التعلیمی يكفل للتلميذ حياته من المأكل والملبس والاقامة ، وكان ما تجريه المدارس على تلاميذها أهنا على جفافه مما يجريه الأزهر على طلابه ، ولكن المجاور الأزهرى كان لا ينقطع عن أهله ولا يقطع صلته ببلده فينزل إليها كل أجازة وخلال شهر رمضان ، يؤم الناس للصلاة ويقرأ دروس الدين فى المسجد ويتلو القرآن فى ليالى رمضان الساهرة . أما تلميذ المدارس فكان يقطع ما بينه وبين أهله ، وأن كان لهم أن يزوروه فما كان لهم أن يصحبوه الى قريته وكثيرا ما أختير للتلاميذ أسماء غير أسمائهم لأولى يعرفون بها وتسرى عليهم فى سجلات الحكومة ، فتقطع صلتهم بأهليهم ولا يعرفون لهم غير الدولة أهلا .

وكان أن انقطعت صلة على مبارك بأهله بعد أن فر من جديد ليعود الى صفوف المكتب الذى اقتنصه أبوه منه ، فما يراه الناظر « الا مع الأطفال فى داخل المكتب » ويقول : « والتزمت

أن لا أخرج منه ليلا ولا نهارا مخافة اختطافى .. وكان ذلك آخر عهدي بسكنائى بين أبوى » .

وأختير على مبارك لمدرسة القصر العينى ، وجاء أبوه شاكيا يرجو أن يرده عن سعيه فأبى والتحق بها « فى سنة احدى وخمسين ومائتين وألف ، وأنا يومئذ - كما يقول - « فى سن المراهقة » وفى هذه المدرسة كان درس حياته الثانى ، وكان درس حياته الأول حين عرف أن التعليم هو طريق التقدم والطموح عرفه حين أسر اليه خادم عنبر أفندى أن سيده من تلامذة مدرسة القصر العينى وأن الحكام انما يؤخذون من المدارس ، فكانت غاية حياته أن يعلم المصريين ويحملهم على التعليم ويفتح لهم السبل اليه ، وفى مدرسة القصر العينى يرى « أن المدارس على خلاف ما كنت أظن » كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها ، والتربية والتعليمات غير معتنى بها ، بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشى العسكرى فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفى أماكن النوم ، وكان جميع المتكلمين على التلامذة يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والاهانة من غير حساب ولا حرج مع كثرة الأغراض والأعراض عن الاعتناء بشئونهم من مأكولات وخلافها ، وكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء وأحرمة الصوف الغليظ من شغل بولاق ، ومن كراهيتى للطبخ المرتب لنا جعلت ادامى الجبن والزيتون » ويقول « فلما رأيت هذه الحالة ضقت ذرعا وظننت أنى جنيت على نفسى فى دخولى المدارس التى بهذه المثابة » حتى مرض وأصابه الجرب ونقل الى « الاسبتالية » وعانى فيها أشد مما عاناه فى المدرسة حتى كان لجوعه يمص « العظم الذى يلقيه الآكلون » وكادت نفسه تساوره بالهرب مع أبيه حين جاء ليزوره ويحتال على رؤيته ويمهد له سبيل « الهروب » ولكنه يفضل البقاء وامتنع عن الخروج مع أبيه معللا النفس بأنهم « يطلبون من يهرب من التلامذة ويقبضون على أهله

ويقيدونهم ويهينونهم » ، وان كنا نظن أن طموحه الكامن وحوافزه
اللاشعورية وان وارتها تلك العوارض السيئة بقيت تشده إليها
أكثر مما شده العذاب والمرض ، وخرج من تلك المحنة بأن التربية
وطرق التعليم الصحيحة هي التي تجذب التلميذ إلى المدرسة وتحببه
في التعليم ، وكان هذا درس حياته الثاني ، وحمله فيما بعد على
إنشاء « دار العلوم » لتمد المدارس بالمعلم الصالح . وكان من اهتمامه
بالتعليم ، وهو المهندس الذي تخصص في الهندسة العسكرية أن
أصبح يدعى « أبو التعليم » .

واجتاز على مبارك المحنة ، وأقبل على دروسه ، ولم يمرض
بعد ذلك كما يقول ، وفي العام التالي نقلت مدرسة القصر العيني
إلى أبي زعبل ، بعد أن تحول القصر العيني إلى مدرسة للطب ،
وسار في دروسه بعد أن وفق إلى فهم ما عجم عليه من طلاس
« فن الهندسة والحساب والنحو » وكان ناظر المدرسة الجديد
« إبراهيم بك رافت » قد جمع « متأخري التلامذة » وكان منهم
وأخذ يعلمهم بنفسه « ففي أول درس ألقاه علينا - كما يقول - أفصح
عن الفرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح والفاظ وجيزة
وبين أهمية الحدود والتعريفات .. الموضوع في أوائل الفنون
وان هذه الحروف التي اصطلحوا عليها إنما تستعمل في أسماء
الأشكال وأجزائها كاستعمال الأسماء للأشخاص .. فانفتح من
حسن بيانه قفل قلبي ووعيت ما يقوله وكانت طريقته هي باب
الفتوح على ، ولم أقم من أول درس الأعلى فائدة ، وهكذا جميع
دروسه بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان
التزامهم لحالة واحدة هو المانع لي من الفهم ، فختمت عليه في أول
سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتي ، وبقيت
في النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعليم السيئة
وكان رافت بك يضرب بي المثل ويجعل نجابتى على يديه برهانا

على سوء تعليم المعلمين وإن سوء التعليم هـو السبب فى تأخر التلامذة » وتأكد لديه ضرورة اعداد المعلم الصالح ، فكان حين قام على ديوان المدارس فى عهد اسماعيل ، لا تشغله كثرة أعماله « عن الالتفات الى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين ، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت ورواحى وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية » .

وبعد أربع سنوات أختير فيمن أختيروا « لمدرسة المهندسخانة » فأتى دروسها بعد خمس سنوات كان فيها دائما أول فرقته « وقلفتها » ، ثم أوفد ضمن بعثة الأنجال الى « مملكة فرنسا ليتعلموا بها » وألح عليه « لأمير بك » ناظر المهندسخانة أن يبقى ليكون « معلما بها » ويسوق اليه من يغريه بالبقاء من « الخوجات » ولكنه يرى السفر مع الأنجال مما يزيده « شرفا ورفعة واكتسابا للمعارف » ولعله كان يرى الأخيرة ولا يرى الأولى الا أن يرى فى صحبة الأنجال ما يساعده على التقدم ويحقق له بعض طموحه ، فما كان يرى أو لعله أدرك ذلك فيما بعد أمانا « لمن يلوذ بالعائلة الخديوية » وما كان اصراره على السفر اذن الا « لاكتساب المعرفة » .

ولا ينسى على مبارك أهله فيجعل لهم نصف راتبه فى البعثة وكان مائتين وخمسين قرشا « يصرف لهم من مصر كل شهر » ويجد عناء فى متابعة الدراسة باللغة الفرنسية فيقبل على تعلمها مبتدئا بكتاب للأطفال ، ويداوم على السهر « مطالعة وحفظا » حتى أصبح السهر عادة لازمته - كما يقول - بقية حياته ويفدو فى المقدمة يتبادل أولوية « الرسالة كلها مع حماد بك ، وعلى باشا ابراهيم » ويظفر بالجائزة الثانية للتقدم وهى « كتاب جغرافية مالطبرون الفرنساوى وأطلسها » وبعد دراسة سنتين « تعين الثلاثة الأول من فرقتنا وهم أنا وحماد بك ، وعلى باشا ابراهيم الى مدرسة

الطوبجية والهندسة الخربية بناحية ميتس من مملكة فرنسا أيضا ، وأعطينا رتبة الملازم الثانى ، فأقمنا بها سنتين أيضا ، وتعلمنا فيها فن الاستحكامات الخفيفة والاستحكامات الثقيلة والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنية والألفام وفن الحرب » فلما اجتاز الامتحان ، بعد سنتين وكان ترتيبه الخامس عشر بين خمسة وسبعين تلميذا ، عين « بالالاي الثالث من المهندسين الحربيين » وبقي به عاما آخر قبل عودته الى مصر .

بداية الطريق :

عاد على مبارك وصحبه من المبعوثين الى مصر ، بعد أن رأى عباس الأول أن لا حاجة بهم الى البقاء بعد ذلك ، وان كان ابراهيم - كما يذكر على مبارك - قد أراد « اقامتنا في العسكرية حتى نستوفى فوائدها ثم نسيح في الديار الأورباوية لنشاهد الأعمال ونطبق العلم على العمل مع كشف حقائق أحوال تلك البلاد وأوضاعها وعاداتها ، وكان ذلك نعم المقصد ، ولكن أراد الله غير ما أراد هو ، وتوفى الى رحمة الله تعالى ، وفي سنة ست وستين من الهجرة تولى حكومة مصر المرحوم عباس باشا فطلبنا للحضور الى مصر نحن الثلاثة » .

ويرى بعض المؤرخين أن عودة المبعوثين كانت جزءا من سياسة عباس التعليمية التى تقوم فى الظاهر على الاقتصاد الشديد فى الانفاق على المدارس ، والتى تقوم فى الحقيقة على كراهية التعليم ، وتعليم المصريين بوجه خاص ، مستشهدين على ذلك بالتضييق على التعليم بأنه جعل « مدرسته الحبيبة اليه - مدرسة المفروزة - لصفوة أبناء الترك » . وحين رأى فيهم من « لا يرتاح الى خلقه » ، فحكم بأنه من أبناء الفلاحين وأمر باخراجه من صفوف الطلبة « فاذا بعث يؤنب أفراد البعثة المصرية فى ميونخ يصفهم بأنهم ما زالوا

متخلفين بطباع الخونة التي هي طباعكم الأصلية - ويتهددهم
بإعادتهم الى القرية وتلبسهم ملابس الفلاحين وسلوكهم في فلاحه
الأرض » وانه كان في هذا على خلاف ما كان محمد على « الذي
كان يرى في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف - وعز عليه أن يرى -
كما يقول شفيق غربال - العقول المصرية تضيع هباء ، فعول على
أن ينقذ لمصر تلك الثروة العقلية التي لا تعدلها ثروة ، واستطاع
أن ينقذ قدرا ليس بالقليل من هذه العقلية » .

ولقد حمل عباس في الواقع أوزار جده محمد على ، فما كان
محمد على شديد الحفاوة بالمصريين وما كان يرى فيهم « نجابة
وقابلية للمعارف » وهي عبارة جاءت على لسان الجبرتي وصفا
لاعجاب محمد على بآلة ابتكرها مصرى لضرب الأرز « فان الباشا
لما رأى هذه النكتة من حسين شلبي هذا قال ، ان في أولاد مصر
نجابة وقابلية للمعارف » ولا نعرف أن الباشا كان يتكلم العربية
حتى تعد هذه العبارة نصا نستشهد به ، وما نظن الجبرتي
قد حمل هذه العبارة ما حملها المؤرخون من اعجاب بالعقلية
المصرية ، ولا تعدوا الاعجاب بشيء جديد فما كانت فكرة محمد على
عن المصريين بأفضل من فكرة عباس عنهم ، وما كان يراهم
يصلحون كما يقول دودول « الا لحمل الأثقال وسوق الحمر » .

ولا يذهب عمر طوسون في الحملة على عباس مذهب المؤرخين
الذين أرادوا أن يحملوا عباس وحده فشل نظام محمد على
التعليمي ، فقد كان هذا النظام ، باعتراف المدافعين عنه يحمل
جرثومة فئائه اذ « عاش - كما يقول عزت عبد الكريم - قلقا
معلقا في الهواء ، لم تمتد جذوره الى باطن التربة المصرية فكان
ما نعرفه عما أصابه من الاستقرار حيناً ، والترنح حيناً آخر ،
ومن التوسع حيناً والانكماش حيناً آخر » وان اعتذر عنه بأن
الزمن كان يتعجله وكان محمد على يخشى أن تنتهى حياته قبل

أن يتم رسالته « ولم يكن عباس — كما يقول — بالحاكم الذى يتابع سياسة جده ويحنو على مؤسساته ويؤيد نظمه » فحمل عباس وحده وزر النهاية الأليمة الذى سار إليها نظام محمد على التعليمى فى أواخر أيامه ، حين أصبحت حاجته عليها على يد عباس ، ولا يريد عمر طوسون أن يحمل « عباس » هذا الوزر ، ويرده الى تحامل مؤرخى فرنسا عليه « اذ شعرت بانصراف هذا العاهل عن الاتجاه إليها بعد ما نحى عن الحكم فى بلاده أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيين » ثم يقول : « على أننا لسنا بصدد الدفاع عن حكم عباس الأول رحمه الله من جميع نواحيه ، وإنما غرضنا أن نجلى هذه الناحية فقط ، وقد رأيت أنها نقية بيضاء » ويستشهد على ذلك ببعوثه التى أوفدها الى النمسا وانجلترا وإيطاليا وفرنسا وان « ما ذكر عنه من أنه على أثر توليته الحكم أمر بإرجاع البعثة العسكرية التى أنشأ لها جده المدرسة الحربية المصرية بباريس ثم أغلق هذه المدرسة ، فالصحيح الثابت من دفاتر دار المحفوظات وغيرها أنه أرجع بعضهم وأبقى البعض الآخر ، وظل ينفق على هؤلاء الباقين الذين أتموا تعلمهم فى غير هذه المدرسة حتى آخر أيام حكمه ، كما أن بعثة الخمسة والعشرين تلميذا الذين أرسلوا لتعلم الميكانيكا بإنجلترا فى عهد محمد على قد بقى أفرادها جميعا حتى أتموا تعلمهم فى عهده ، ويظهر أنه رأى أن مصر قد اكتفت من التعليم العسكرى فأمر بإلغاء هذه المدرسة التى أسست له فى باريس ، ولذلك لما أرسل ببعوثه لم يكن فيها من أرسله لتعلم الفنون العسكرية بل كان أغلب هذه البعوث بعوثا طبيبة أرسلها الى النمسا وإيطاليا وإنجلترا » .

أذن فلم يكن عصر عباس الا استمرارا للنكسة التى بدأت فى أواخر عصر محمد على ، ولم يصنع أكثر مما كان مقدرًا لغيره

أن يصنع ، ولم يكن خلقه أكثر سوءا مما كان خلق غيره من أفراد الأسرة الخديوية ، ولكن ما ناله من القدح والتحامل كان أكثر مما نالهم جميعا ، لأن أسرته كانت أول المتحاملين عليه فأفسحت للمؤرخين مجال الحقيقة ، ولم يكن عباس على صلة طيبة بالأجانب تحملهم نحوه بدلا من أن تحملهم عليه ، ولعله لقي من تقدير المؤرخين الانجليز لحسن صلاته بانجلترا ما لم يلق من تقدير المؤرخين الفرنسيين ممن كانت تعنيهم أمور مصر والكتابة عنها ، فنرى المؤرخ الانجليزى « دن - Dunne » يدفع عنه ولا يحب له أن يتحمل الوزر وحده .

وقد ولى عباس حكم مصر في ظروف عصيبة من ناحية أسرته ومن ناحية الفشل الذى انتهت اليه أعمال جده ، حتى كره أسرته ، وكره سياسة جده فسار على نقيضها في التمكين لعرشه والتمكين لسلطته ، وهما ما عناه محمد على ومن جاء بعده من أبنائه دون أى حساب لصالح البلاد ، فاذا كان الصالح متفقا مع هذه الرغبة فهو الإصلاح ، وإن شذ عنها فلا حاجة لهم به . اذ أراد ابراهيم أن ينزع عنه ولاية العهد الى أكبر أبنائه « أحمد » فلما توفى ابراهيم في ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ ، خشي قناصل الدول ، وخشيت الطبقة التركية الحاكمة - وهى طبقة محدثة تدين بوجودها لمحمد على - أن ينشب نزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة ، فأرسلوا يستدعون عباسا من الحجاز ، وكان قد ذهب اليها خشية مكر ابراهيم ، وعاد عباس على ظهر باخرة انجليزية وضعها تحت امرته - تشارلس مورى - قنصل انجلترا العام في مصر ، فكانت بداية الود بينه وبين الانجليز والأحن بينه وبين أفراد أسرته من أبناء ابراهيم ، وتولى العرش بمساعدة القناصل ورضاء الطبقة التركية وفرحة المصريين ، فبدلا من سيكون الحزن في مثل تلك المناسبات القليلة ، كما يقول مورى - كانت الجماهير تند بالفرحة

منادية : « عباس باشا الى الأبد » وأراد عباس أن ينال عطف السلطان ورضائه فحمل في الزيارة التقليدية بمناسبة توليه العرش من الهدايا لرجال البلاط ما قيمته مائة ألف جنيه ، ونزل على كل مطالب السلطان في خفض قوات مصر العسكرية البرية والبحرية وألا يتجاوز عدد الجيش ١٥ ألف جندي وزيادة الجزية السنوية وتقديم سفينة الى البحرية العثمانية كل عام ، وفصل المهندس الفرنسي المسئول عن تحصينات الاسكندرية ، ولم يكتف بذلك بل لج في اعلان ولائه فبعث أمه لزيارة أم السلطان تحمل عديدا من الهدايا ، وأمد تركيا بثلاثة آلاف جندي وألف وخمسمائة بحار وبارجتين وعدد من السفن الصغيرة لمساعدتها في الحرب ضد روسيا ، وتوسط لدى باي تونس ليرضى بالسيادة العثمانية وعادت مصر الى الوصاية العثمانية على طول العناء الذي بذله محمد علي لاستقلالها كما يرى موري .

ويفسر هذا الموقف من عباس في رأى « هيلين آن رفلن » ما خرج به عباس من درس النكسة عام ١٨٤١ فلم يظفر محمد علي على طول العناء الا بولاية مصر له ولأبنائه من بعده ، ولم ترض تركيا حتى بذلك ، فتلكأت أكثر من ستة شهور في اقرار ولاية ابراهيم ولم تسلم الا حين لمست أنه سيلجأ الى القوة للدفاع عن حقه ، ولكن عباس يعرف أن القوة لم تثمر أمام تألب الدول على جده كما يعرف أن فرنسا تخلت عنه بعد أن شجفته على الوقوف أمام الباب العالي ففقد ثقته بها وبالقوى الأوروبية الأخرى ولم يعد أمامه ما يحميه من أطماع أوروبا غير تركيا التي ما زالت تتمتع بنوع من الهيبة في المجتمع الدولي وغير التعلل بارادة الباب العالي أمام الحاح الدول ومؤامراتها لكسب امتيازات لها في مصر ، وهو ما أدركه محمد علي نفسه في أخريات أيامه حين عرف أن لا وقاء لمصر الا بالارتباط بتركيا .

فلما دب النزاع بين عباس وأفراد أسرته بعد وفاة محمد على تزح كثير منهم الى الآستانة وبدلاً من أن تقف تركيا الى جانب عباس شجعت هؤلاء على الالتجاء اليها ، وفي الآستانة أخذوا يكيدون لعباس ويلعنون حكمه مما حمله على البحث عن حليف جديد في شخص بريطاني . وكان ثمن الصداقة الجديدة قبول المشروع البريطاني لد خط حديدى يربط السويس بالاسكندرية ، ولم ينس عباس لبريطانيا تأييدها لولايته بعد وفاة ابراهيم .

هذه الظروف العصيبة التى واجهها عباس ، ولم يكن له يد فيها قد شابت حكمه بالقلق ، وعاد على مبارك ليواجه هذا القلق ، وهذا الركود الذى ألم بالحياة فى مصر بعد نصف قرن من الحركة السريعة والنشاط الفائر ، ينتظر ما تصنع به ارادة ولى الامر « ومكثنا جملة أيام - كما يقول - لاندري ما يفعل بنا » ثم طلبهم حسن باشا المناسترلى « وهو الكتخدا يومئذ وأحسن الينا نحن الثلاثة دون غيرنا برتبة يوزباشى أول ، وتعينت خوجة بمدرسة طره وتعين على باشا ابراهيم وحماد بك فى آلاى الطوبجية بطره ايضا ، وتعين الذين كانوا بمدرسة أركان حرب الفرنساوية فى معية رئيس أركان حرب سليمان باشا الفرنساوى برتبتهم الأولى وهى رتبة الملازم ورفت الباقون » .

وتمضى به الحياة هينة رضية فى مدرسة طره الحربية ، ولعله لم يقلق كثيرا لانكماش المدرسة وقلة عدد طلابها بعد انشاء « المدرسة المفروزة » على خلاف ما يصوره المؤرخون قلقا غير راض اذ لم يبق فى فرقته غير طالب واحد فأصبح اذن « بلا عمل - كما يقول الرافعى - وليس هذا مما تميل اليه نفسه لأنه اعتاد الجد والداب على العمل » أو « ضيق النفس مبلبل الفكر والخاطر » فى رأى آخر فاذا كان قد أصابه شئ من الضجر ، كما نرى من حديثه مع « برنستوبك » ناظر المدرسة ، فلعله حديث الرئيس

الذى يخشى على مرءوسيه الضجر الذى يحملهم على الكسل والتهاون فيجمعهم اليه ليقول لهم : « ان التلامذة الباقين صاروا الى ما ترون من قلة العدد وكبر السن وطول المدة والخاف أن ذلك يدعوكم الى التكاسل ، لكنى أرجوكم كما هو الواجب عليكم أن تبذلوا الجهد معهم زيادة حتى تستميلوهم الى الاستفادة على قدر الامكان ، وأملئ أن هذه الحالة لا تدوم وعمما قليل تستقيم الأحوال وعلى وعليكم أن تقوم بواجب الامتثال وأداء ما علينا » وأراد أن يطمئن من نفس على مبارك فيقول له : « وخصوصا أنك قد اشتغلت بفن الهندسة الحربية وقد بلغنى أن جاليس بك - وكان قائما على استحکامات الاسكندرية - يرغب في أن تكون معه والى كثيرا في طلبك ولم يجب الى مرغوبه ، وأظن أن الامر يؤول الى الحاقك به فلا تضجر واصبر فعاقبة الصبر خيرا » ولعل قلق على مبارك كان من الفصل أكثر مما كان من قلة العمل ، فما كان عباس جريا على سياسته في الاقتصاد وشدته مع الموظفين يتوانى عن فصل من لا حاجة للعمل اليه أو من يرى منه تقصيرا أو اهمالا ، لذلك يطمئن « برلستو بك » من نفسه ويخبره بحاجة جاليس بك اليه .

ولعله لم يكن يخشى شيئا من هذا فنراه على غير ما نعهد من رجل قلق حذر يتأهل .. « بكريمة معلمه في الرسم بمدرسة أبى زعبل ، وكان أبوها قد مات وصارت الى حالة من الفقر فتزوجت بها لما كان لوالدها على من حق التربية والمعروف » فلو كان قلقا لما أقدم على الزواج .

وكان على مبارك لين العريكة كيسا - كما نعتقد - وتلك صفة لازمتها طوال حياته ويسرت له أن يكسب المسؤولين والرؤساء الى صفه ، مرنا يستطيع أن يتكيف مع الموقف ويواجهه ليحقق ما ينشده ، ويسرت له تلك الخلقة أيضا أن يمضى في أعماله كما يحب

دون عنت أو حذر من غضب ولى الأمر فأجبه « برنستو بك »
أول من عمل معه ، حتى أنه لما رغب في زيارة أهله بعد غيبة طالت
واستأذنه في ذلك ، لا يأذن له برنستو بك بالزيارة فحسب ،
بل يعينه عليها ويقول له « ان من يسافر يقطع نصف ماهيته
وأنت الآن محتاج اليها فالأحسن أن تصبر حتى أكلم سليمان
باشا الفرنساوى ليأخذك معه في مأمورية استكشاف البحيرة
والسواحل ، فإذا حصل ذلك يتم مرغوبك بسهولة » .

ويتم الأمر على ما رسم برنستو بك ، فلما كان في دمياط
بصحبة سليمان باشا الفرنساوى « انفصلت عنه في جهة
من المأمورية وبعد أن رسمت البحيرة وحررت جرنالها ورسمها
ذهبت الى بلدتنا برنبال وكان أهلى قد رجعوا اليها قبل ذلك
بمدة » .

أى مشاعر تلم بالنازح الذى طالت غربته أربعة عشر عاما في
مثل هذا الموقف ، هذا ما سكت عنه على مبارك وان وصف الموقف
كما جرى في بساطة تترك من الأثر مالا يتركه حديث المشاعر
والأحاسيس فهى في صدقها وبساطتها أبلغ من كل بيان ، ففي
ليل الزيارة يطرق الباب ، وقد وقف وراءه مرتديا بزته العسكرية
« بقيافة العسكرية الفرنساوية لابسا سيفا وكسوة تشريف »
ولعله أراد أن يرى أهله ما ناله من سؤدد بعد اصرار وكفاح امتد
سنين عددا لم يرههم ولم يروه فيها ، وكأنه يقول ما عذرى
في الخروج على طاعتكم وقد نلت ما نلت ، ولعل الأم التى أذهلتها
المفاجأة لم تلق بالا الى الرجل الذى يرتدى زى الحكام ماثلا أمامها
في « كسوة التشريفة » وسيفه يتدلى الى جانبه ، ولم تذكر غير
الصبى الصغير الذى فارقها أربعة عشر عاما ، وتأخذها المفاجأة
فتقع مغشيا عليها لتفيق فتفرق في الضحك والبكاء و « تزغرت »
فتعلن للأهل والأقارب عودة الغائب ويمتلئ البيت بالوافدين

« الى الصباح » وكان الأب « قد سافر الى مصر لزيارتي » وتنتاب أمه الحيرة فيعرف أنها « تريد عمل وليمة وهى فارغة اليد » وتبكي ، فيفرغ فى يدها ما يجيبه « عشرة بنتو ففرحت وأولمت فأقمت عندهم يومين ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود ورجعت الى دمياط » وفى دمياط عرف أن سليمان باشا قد استصدر أمرا من عباس باشا « بالحاقي بمعية جاليس بك فقبلت يده وشكرت له » .

وأعد نفسه للعمل الجديد ، وسافر الى الاسكندرية « بعيالى واخ وأخت لى صغيرين كنت أربيهما » ويقابل جاليس بك ، فاذا بأمر من الخديو يطلبه حالا « فى الوابور المتهىء للقيام » فينتابه الخوف من مقابلته لما يعرف عما « يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء » ويهون عليه سايمان الأمر وكان مع جاليس بك حين لقيه ، قائلا « لعله يريد أن يجعلك معلما لابنه لأنه تكلم فى ذلك مرارا ، فلا تخف » ويكفل له سايمان باشا أمر أهله الذين خلفهم بالمركب ويرتحل لمقابلة عباس دون أن يراهم وهو « بين راغب وراهب » .

ويقابل عباس مع « حماد بك وعلى باشا ابراهيم » ليعرف أنه الحقهم بمعيته ، ويأمرهم « بامتحان مهندسى الأرياف ومعلمى المدارس لأن الكثير منهم ليسوا على شئ » وأنعم عليهم برتبة الصاغقول أغاس « وأعطانا نيشانات المرتبة وهى عبارة عن نصف هلال من الفضة ونجمة من الذهب فيها ثلاثة أحجار من الماس ، وخرجنا فرحين بما نيط بنا على الوجه الأتم » .

ويبدو ان «عباس» لم يكن راضيا عن عمل المهندسين ، فنراه يكتب الى ديوان المدارس فى ٢٣ محرم سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) يقول : « عند وصولى هذه المرة الى مديرية المنيا امتحنت المهندسين المتخرجين والمتربين فى ديوان المدارس الذى أسس لنفع الوطن ، ولتربية أولاد الأمة المصرية ، فظهر أنهم محرومون من العلم

والعمل اللازم لهم ولخدمتهم ، وبمطالعة الجرنال المرسل طرفكم ستعلمون أنهم صفر اليدين من كل علم وعمل وفضلا عن ذلك رأيتهم غير واقفين حتى على عملية ضرب الحساب فتعجبت جدا وسألتهم كيف لا يقومون بهذه العملية التي هي قوام مهنتهم ، وهم مهندسون فأجابوا بأنهم يجرون هذه العملية بواسطة المعلمين الأقباط الموجودين معهم ، فبينما نحن منتظرون منهم الفائدة اذا هم يتسببون في خراب الأقاليم . . . » ويمضى عباس في رسالته أمرا بطرد « الأساتذة والمهندسين المومى اليهم والبالغ عددهم خمسة عشر شخصا » مهددا بالغاء ديوان المدارس اذا تبين عجز المهندسين الجدد عن العمل .

ويقول عزت عبد الكريم أن المهندسين الجدد قد أنقذوا الموقف وديوان المدارس ولهذا أمر عباس أن يقوم على مبارك وزميليه حماد عبد العاطى ، وعلى ابراهيم باختبار المهندسين وقام « الأفندية الامتحانية » بعملهم « وصار امتحان المهندسين وتعويض كثير بآخرين من أرباب المعارف الذين تربوا في الهندسخانة » - كما يقول على مبارك - ويبدو أن الامتحان قد أثبت رأى عباس فراح يتهمهم على ديوان المدارس ويتهدد رجاله بالعقاب .

وتحال عليه أعمال أخرى لتيسير الملاحة خلال شلال أسوان ، وتحويل مياه البحر عن منفلوط فيقوم بها على خير وجه مما حمل « عباس » على تكليفه بالعمل مع « موجيل بك » لبحث مرور المراكب خلال القناطر الخيرية وكانت قد قاربت التمام ، فوضع مشروعا بسحب المراكب أقل تكلفة مما تقدم به موجيل بك فحاز رضا عباس وبقي يقوم مع زميليه بما يكلفون به من أعمال الهندسة حتى أحيل عليهم مشروع « لامبير بك » . . لتنظيم المدارس ، وقد بلغت نفقاته - كما يقول - عشرين ألف كيس (مائة ألف جنيه) فاستكثرها وطلب منهم أن يضعوا مشروعا أقل نفقة منه .

وتتجلى مرونة على مبارك ولباقتة ، فيدرك مرمى عباس ،
وينفرد بوضع مشروع يكلف ألف كيس بعد أن رأى الوقت يمضى
ولا يتفق ثلاثتهم على رأى . ويقدمه الى زميله فلا يوافقان
عليه ، ولكنه يطلب منهما أن يبقياه « فان لم نعمل غيره نقدمه
ليمتنع عنا اللوم » فلما لم ينجزوا غيره تقدموا به « فاستغربه
المرحوم عباس باشا وعجب مما فيه من الأصول المخترعة مع قلة
مصرفاته ، وقال من عمل هذا ، فقلت أنا عملته ، ووجد آراء
صاحبي مختلفة ومخالفة لذلك فأحال النظر فيه على مجلس ينعقد
من جميع رؤساء الدواوين مع حضوري وحضور لأمير بك ،
فانعقد المجلس ثمانية أيام وبعد المناقشة الطويلة ، استقر رأى
الجميع على هذا وصدرت خلاصة باستحسنانه واستحقاقى رتبة
أميرالاي ، فطلبني المرحوم عباس باشا وسألني عما أراه من نجاح
هذا الترتيب وعدمه لدى العمل به ، فقلت هذا رأيي فان أحسن
مديره إدارته وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح ، والا فان
الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها من لا يحسن إدارتها
من جاهل أو مفرط ، وتدوم على حالها اذا كانت بيد من يحسن
إدارتها ، فعجب من جرأتى واستحسن جوابي وقال : فهل تضمن
ذلك ، فقلت : كيف وقد ضمنه الجميع بالقرار الذى عملوه ،
فأحال على نظارتها وأعطاني الرتبة والنيشان ، وجعل على باشا
ابراهيم معلم نجله الهامى باشا وحماد بك ناظر قلم هندسة برتبة
بكباشى » .

وسار الرفاق الثلاثة كل فى طريقه يفترقون ويتلاقون فى خدمة
الدولة وخدمة مصر . وكان المشروع الذى تقدم به على مبارك
هينا وبسيطا يقوم على تجميع المدارس فى مكان واحد وتحت نظارة
واحدة ، أما الرصدخانة فقد أسقطها حتى يعد لها من يقوم
بأمرها وأشار بايفاد محمود الفلكى وكان اذ ذاك برتبة
صاغقول أغاسى ، واسماعيل الفلكى ، وحسين ابراهيم ليتعلموا

فنونها في الخارج ، وبعد عودتهم « يصير فتحها وادارتها » . وكانت بداية الطريق لأبى التعليم .

العمل والجزاء :

اضطلع على مبارك بالتنظيم الجديد للمدارس ، وأصبح ناظرا لمدرسة المهندسخانة ، وقد غدت محور النظام التعليمى الجديد . وضمت مدرستا المبتديان والتجهيزية اليها ، والفيت الرصدخانة ريثما يعود المبعوثون الذين رشحهم على مبارك لدراسة الفلك في فرنسا ، وبدأت المهندسخانة ، كما يقول عزت عبد الكريم « عهدا جديدا في تاريخها لم يطل أكثر من أربع سنوات (١٨٥٠-١٨٥٤) » .

ولا نستطيع أن ندعى لعلى مبارك فضلا في هذا ، فقد أراد الوالى أن يقتصد فاقصد ونال رضا عباس ، ورضى بسياسة الانكماش التى أرادها عباس وسار فيها ، وان كنا نعتقد أن على مبارك قد انقذ المهندسخانة من مصير مثيلاتها ، وحفظ عليها مستواها ، فبقيت بميزانيتها الضئيلة مركز الحركة التعليمية وعمرانية قوية وأدت خدمات جليلة للبلاد في تلك الفترة القصيرة من تاريخها كما يقول مؤرخ التعليم في مصر .

وقد نعجب مما يقول على مبارك عن تقدمها ، مع ما كان عليه حال المعلمين بها من ضيق واملاق فرضه على مبارك ، اقتصادا في النفقة ، فلا نعلم أن معلما يمكن أن يثمر عمله ما لم يطمئن الى حياته ومعيشته الا أن يكون قد غرس فيهم روحا جديدا حملهم على المشاورة والعمل المثمر فقد بقى لهم قبل الحكومة من أجورهم في أخريات عباس ثلاثة وثلاثون ألف قرش بح صوتهم الحاحا في طلبها . ثم كان أكثرهم يعمل بالساعة يتقاضون عنها من خمسة الى ثمانية قروش ، وقيل في تبرير ذلك أنه « مما يقوى اجتهاد المعلمين في تعليمات التلامذة وحثهم على التعليمات في الأوقات

المعينة « ويعنى هذا حرص المعلم على ساعات التدريس حتى ينال أجره عنها ، ومن المعلمين من كان يعمل « بالمقاولة » فيؤجر عن كل تلميذ يقوم بتعليمه .

ولكن على مبارك يقول : « كان أمر المدارس كل حين لا يزداد الا صلاحا ، ولا التلامذة الا نجاحا ، ولا المعلمون الا اجتهادا ، وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد من الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة ، وكان ما يحصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب داعيا حثيثا لهم لزيادة الجهد والاجتهاد ، وجرت بين المعلمين مواد المودة والألفة وتربت الأطفال على الأخوة وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة ، حتى وصلت النظارة للاكتفاء في تأديب من فرط منه أمر بالنصيحة واللوم وانقطع الشتم والسفه ، وكاد يمتنع الضرب والسجن وبالجمله فكانت أغراض فيهم أبويه ، انظر للجميع من معلم ومتعلم نظرة الأب لأولاده ، والى الآن اعتقد ان ذلك واجب على كل راع في رعيته حتى يحصل الغرض من التربية ، وقد تحقق لى نتيجة ما صرفته من المهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم » ونراه يصف هذا الأسلوب الذى اتبعه فيقول : ان كثرة أعماله من تعيين معلمى المفروزة « وترتيب دروسها واختيار ما يلزم لها من الكتب » فضلا عن نظارته للمهندسخانة وقيامه على تأليف كتب المدارس والاشراف على طبعها « لم يشغلنى عن التفاتى للتلامذة فى مأكلم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم غير ذلك ، وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يلقي الدرس وكيف يؤدب التلامذة ولا يمضى يوم الا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة حتى الفراشين بالقيام بما عليهم كما ينبغى فامتنع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ،

ومفاسيد كثيرة ولم أكتف بذلك بل رتبت على نفسي دروسا كنت ألقياها على التلامذة كالطبيعة والعمارة ، وألفت في العمارة كتابا بقى متبعا في التعليم بالمدارس وان لم يطبع ، وبحمد الله نجح مسعانا ونجب كثير من التلامذة وقاموا بمصالح كثيرة ، وحصل بهم النفع العظيم وترقى جمع منهم الى الرتب العالية . وشاع الثناء عليهم في المعارف والآداب ، وشهدت لهم بالفضل أعمالهم المهمة التي أجروها . وكثير منهم معرفة باللغة الفرنسية بحيث يجيد التكلم بها كمن تعلموا في أوروبا ، وخرج منهم معلمون متفنون فيها وفي غيرها . »

اذن فقد كانت روح المعلم هي التي تسدد خطاه وهي التي هونت كل عسير وقضت على كل صعب فتقدمت المدارس المدنية وأثمرت في الوقت الذي عصفت فيه الأهواء بمدرسة الطب ومدرسة الولادة فساء أمرهما وانتهى بمدرسة الطب البيطرى الى الالغاء والزوال ، ولولا رعاية عباس للمدرسة المفروزة لكان مصيرها مصير غيرها .

وكانت روح المعلم في على مبارك وليدة التجربة والاستقراء والذكاء المبدع الخلاق ومواجهة الواقع في مرونة تقضى على كل عقبة . فلقد عرف في مدرسة القصر العيني كيف يساس التلاميذ . وأدرك ما يثمره المعلم الناجح في تلاميذه غداة التحاقه بالمهندسخانة وتعلم كيف يثمر الجد والاجتهاد عند التلميذ حين تغلب على جهله باللغة الفرنسية في فرنسا ، فاكسب الى صفاء الفطرة وعى التجربة فكان له في تنشئة المعلم واعداده ما له من فضل على التعليم وتطويره وتقدمه .

وظل على مبارك قائما على التعليم المدني حتى تولى سعيد ، فنزعه عنه وألحقه بالقوات المصرية المحاربة في القرم عام ١٨٥٤ والتى كان يقودها أحمد باشا المنكلى . وما لبث أن أمر بالغاء

مدرسة الهندسخانة ، بعد أن رماها عنده « بعض المفسدين
بلسان الحسد والفتنة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة
واختلقوا لها معائب لم تكن فيها » .

(كضائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا أنه لدميم)

هذا ما ظنه على مبارك وذكره سببا لالغاء الهندسخانة وسلم
به مؤرخو مصر الحديثة . . وان كنا نرى أن الغاء الهندسخانة
كالغاء غيرها خضع لنزوات سعيد المتقلبة أكثر مما خضع لحسد
الواشين فقد عرف عن سعيد قابليته للاستهواء وتأثره بالقليل
والقال ، ولا نظنه حفل كثيرا أو قليلا بمكانة على مبارك لدى
عباس ، فما كان لأبناء الفلاحين مكانة لدى الخديوى ولو عرف
له هذه المكانة أو الايثار لدى عباس لفصله من الخدمة ، لما كان
فى نفسه على عباس من موجدة وكره ، بل أن على مبارك ليحمد
هذا الرجل « فان رفقتى الذين نشأت معهم كحماد بك وعلى باشا
ابراهيم كانوا قد رفتوا من الخدمة فى مدة سفرى ، فلو بقيت
للحقت بهم » .

ولا ينسى على مبارك وداع التلاميذ لمعلمهم الأكبر ، فقد
خرجوا كبيرا وصغيرا « قهرا عن ضباطهم » ووقفوا تجاه المركب
التي نقله الى الاسكندرية وهم ينشجون بالبكاء « ويستحبون
انتحاب الولد على والده حتى بكى عيني لبكائهم » ولكنه يقر عينا
لما رأى من ثمار غرسه وآثار تربيته ويمضى بمعية « أحمد باشا
المنكلى » حيث يقضى ما بين القرم والأناضول قرابة عامين ونصف
العام . هون من مشاق السفر « وما يلحق المجاهدين من الأرجاف
والاضطرابات والحرمان من المألوفات » ما رآه من بلاد جديدة
وما عرفه من عادات يجهلها ، وأناس لم تك له بهم صلة فضلا
عن تعلم اللغة التركية .

وكانت الحرب قد نشبت بين تركيا وروسيا عام ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد الى عباس أن يمدّه بحملة من الجيش والأسطول تحارب بجانب تركيا ، فأعد لها عشرين ألف مقاتل بقيادة « سليم باشا فتحى . وعقد لواء الأسطول لأمير البحر حسن باشا الاسكندراني من كبار رجال البحرية في عهد محمد على . وامتدت الحرب الى عهد سعيد واستشهد القائدان فيها .. استشهد سليم باشا فتحى في حصار ايباتوريا برصاصة في جبهته ، وغرق حسن باشا الاسكندراني مع ضباطه وبحارته على ظهر سفينته مفتاح جهاد بعد اصطدامها في عاصفة مع السفينة « البحيرة » أمام البسفور .

وانتهت حرب القرم بانتصار تركيا وحلفائها ، ونزلت روسيا على مطالب الحلفاء في صلح باريس عام ١٨٥٦ .

ويذكر على مبارك انه أقام « بالقسطنطينية » أربعة شهور هي التي تعلم خلالها اللغة التركية وعشرة شهور في القرم قام فيها على المراسلات بين تركيا وروسيا ، أو على حد قوله « أثمر المحاورة بين المسكوف والدولة العثمانية بأمر مجلس العسكرية » وثمانية شهور في الأناضول قضى « أغلبها في مدينة كموشخانة » يشرف على الشؤون الادارية للقوات المحاربة فيقوم بترحيل « العساكر من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود الى مدينة أرضروم » وكان يباشر كل فرقة بنفسه لا يصحبه - كما يقول - غير خادم واحد ، وأنشأ للمصابين بالبرد ، وكان الوقت شتاء والبرد شديدا والثلوج كثيرة « استبالية بمدينة كموشخانة وهيأت مفروشاتها ولوازمها بعضها بالشراء والبعض من طرف أهالى المدينة ولاشتغال الحكماء بالألايات استعملت في مباشرة المرضى رجلا مكيا له المام بالحكمة وسلطنا في المعالجة عادات أهل تلك الجهة فأنمر ذلك ثمرة عظيمة » وحمد له هذا العمل « أعيان المدينة وأكابرها من القاضى

والعلماء والأمرء وكتبوا بذلك مضبطة وضعوا فيها شهادتهم ،
وهى عندى الى الآن وعليها أيضا ختم خالد باشا مأمور سوق
العساكر العثمانية » .

وكان قد ركب الدين قبل سفره بسبب ما أنفقه على تأثيث
بيته ، وعلى اصلاح ثلاثمائة فدان « أبعادية أحسن الى بها المرحوم
عباس باشا بلا واسطة » - والأبعاديات هى الأراضى المستبعدة
من قانون فك الزمام لعام ١٨١٣ ، كان محمد علي يقطعها رجال
الجهادية وكبار الموظفين ، وفى عام ١٨٣٨ أمر بالألا يؤجروها وان
يقوموا على استصلاحها بأنفسهم ، ويبدو أنه كان يرمى الى خلق
طبقة موالية له تقيم فى الريف وتسود القرى توطيدا لسلطانه -
فوفى مرتبه بدينه اذ « اقتصرت على ما كان يصرف لى من التعيين
وزاد منه ثلاثمائة جنيه حضرت بها الى مصر » .
وما ان يعود حتى يواجه بأمر سعيد بتسريح جنود الحملة ،
وفصل عدد من الضباط كان منهم .

« من دروس الحياة »

ولم تكن له - كما يبدو - قدرة على الصراع أو الكفاح
الايجابى - وأن تميز بقدرة على الجلد والمثابرة ، والطموح الذى
يتكيف مع الواقع ويواجهه فى مرونة تحوله الى الفاية التى
ينشدها ، فقد شق طريقه الى التعليم بالجلد والمثابرة ، وحاز
رضاء عباس بذكائه ومرونته ، وعجز رغم هذا الذكاء أن يظفر
بتقدير سعيد ، وحالت جفوته للصراع دون موقف التحدى حتى
الدفاع عن حقه ، وحين تتكاثف عليه الخطوب ، يفض الطرف
« عن التطلع للوظائف والمناصب ، وعزمت على الرجوع الى بلدى
والاقامة بالريف والاشتغال بالزراع ، والتعيش من جبايته ، وترك
الاشتغال بالقليل والقال عوضنا الله خيرا فى نتائج الفكر وثمرات
المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها » .

كانت تلك أيام محنته ، محنة امتدت الى حياته العامة حين فصل من وظيفته والى حياته الخاصة حين فشل فى زواجه الثانى ، وكان قد تزوج بعد وفاة زوجه الأولى من « قريبة أحمد باشا طوب صقال » وهى على ما يبدو من بنات الطبقة المتميزة الأثيرة فى دولة محمد على ، وكان من عادة المصريين اذا ما برزوا أو علا قدرهم حينذاك ، أن يصاهروا الأسر التركية ، ويربطوا ما بينهم وبين تلك الطبقة المتميزة ، وكانت يتيمة ذات « مال وعقار غرة بمنزلة الطفل الصغير لا تحسن التصرف ولا تميز الدرهم من الدينار مع كثر ايرادها وتعدد أملاكها وكان جميع أمرها بيد غيرها ، والسبب فى ذلك أن أمها كانت تزوجت برجل يعرف براغب أفندى فماتت عنده الأم وبقيت البنت عنده يتيمة صغيرة فتزوج بامرأة أخرى فكانت زوجته الجديدة قيمة هذه اليتيمة والقائمة بأمرها والكافلة لها مع راغب أفندى » ويمضى على مبارك فى قصة زواجه هذا ما خلاصته أن طمع المرأة فى أموال وبيتها حملها على الكيد له خوفاً من أن يطالب لها بحقوقها ، فأخذت توقع ما بينها وبينه ، وتستعين عليه بأصحاب الجاه والنفوذ حتى اذا استخلص لها حقها وأثبت حقه لديها فى نصيبه من بيت لها بناه بماله « وصرفت عليه نحو ستمائة كيس ، وكان موقوفاً عليها ، فأرادت اشتراكى فيه معها فى نظير ما صرفته ، — وكان ذلك بمقتضى شرط الوقف — فقبلت ودخلت معها فى الوقفية ، وكتبت الوثيقة بمحضر من العلماء والأمراء والأعيان » ويقول : « فثبت لى عليها مائة وخمسة وعشرون ألف قرش عملة ديوانية غير ستمائة كيس التى صرفتها فى عمارة البيت » ولكنه يتنازل « فى المجلس عن جميع ذلك ، ولم آخذ الا وثيقة من أهل هذا المجلس بجميع ما حصل وبإثبات تنازلى بعد الثبوت » فلما تم له ذلك تركها بعد أيام قلائل « وخرجت من البيت ولم آخذ منه شيئاً حتى تركت جوارى اللائى كن فى ملكى ، وطهرت نفسى

مما نسبته الى أهل البهتان وأرحت نفسى من تلك الدسائس والهواجس « وأقام فى بيت صغير « بالأجرة » مع أخ كان يقوم بتربيته مع ابن أخ آخر ، وطردها من المدرسة بعد سفره الى بلاد القرم « لم يعطف عليهما أحد ممن كنت أساعدهم فى مدة نظارتى « الا سليمان باشا الفرنساوى « فانه أدخلهما فى مكتب كان أنشأه بمصر العتيقة على نفقته « ومات ابن أخيه غرقا وبقي أخوه حتى عودته ليقيم معه فى هذا البيت الصغير الذى اكتراه .

ولم يغير الأسى من نفس على مبارك ولم يحمله يوما على الحقد والضغينة ، والأثرة من قلة الوفاء وجذب النفوس من المروءة ، وان بقيت صور ما لقي منها لا تفارقه فيذكرها فى خططه حين يروى قصة حياته ، ولا ينسى قصة دين عليه « لبعض الأفرنج ستمائة فرنك « حين صدر الأمر بعودة المبعوثين من فرنسا ، محذرا من العودة قبل أن يفى الواحد منهم بدينه والا وضع « فى الليمان فوقعت فى أمر خطير وبقيت متحيرة ، وطلبت من رفقتى أن يسلفونى ، فقالوا ما عندنا ما نسلفك اياه ، وأنا أعلم تيسر بعضهم واقتدارهم فقعدت فى محل اقامتى أفكر فيما أصنع ، واذا بصاحب لى من الأفرنج دخل على ليدعونى للأكل عنده حيث انى مسافر ، فوجد حالى غير ما يعهد فسألنى : فأخبرته ، فقال : لا تحزن ، قل يا سيد يا بدوى يا من تجيب الأسير خلصنى مما أنا فيه ، فقلت له ، ليس الوقت وقت هزل ، فقال : هذا أمر هين ، لا يهملك ، ثم ذهب وغاب قليلا ورجع الى بكيس رماه أمامى ، فاذا به قدر الدين مرتين وقال لى : بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك ترسل لى وفاءه . ولم يأخذ منى سندا بوصول المبلغ وقال : أنا اكتفى بالقول منك . وقد كان . وحضرنا الى مصر فى تلك السنة وأرسلت اليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة » .

وبقى على رحابته يعمل لخير الجماعة أكثر مما يعمل لنفسه ،
لا يؤوده غير أن يصنع لمصر جيلا من المثقفين النابهين ، فنراه بعد
ذلك بأربعين عاما وقد أصبح وزيرا للمعارف يفسح من صدره
ومكانه للكبير والصغير « وكان بيته بالحلمية - كما يقول أحمد
أمين - ناديا عجيب الشأن يجتمع فيه كل ليلة طلبة المدارس
وأساتذتها من كل نوع حتى تمتلئ بهم الدار ، وينشغل هو بينهم
يخاطب كل جماعة منهم في شأن من شئون العلم يتناسب معهم ،
فيخاطب الطلبة في حالة مدارسهم ومقدار تحصيلهم للدرس
وما يشكون منه من نظم التدريس وما يقترحون لصلاحها ،
ويخاطب المدرسين في تدريسهم وانتقاداته عليهم ، ويستحثهم
على التأليف في الموضوعات التي يقترحها وما ينبغي أن تكون عليه
الكتب في أيدي الطلبة ، ويلتمس الفرص لشرح لهم الأخطاء
التي يقع فيها الطلبة ، ويقع فيها الأساتذة ، وتأخر الشرق
وأسباب تأخره . وتقدم الغرب وأسباب تقدمه الى غير ذلك .
حدثني عبد العزيز باشا فهمي فقال : »

« كنت يوما في بيت على باشا مبارك ، والناس تموج في بيته ،
والحجر مزدحمة بالزوار ، وعلى باشا يتصدر حجرة منها ،
فحضر مصطفى باشا رياض ، وكان ناظر النظار اذ ذاك ، فأخذ
يخوض في الناس حتى وصل الى على باشا مبارك فقال له :
ما هذا يا باشا ؟ فقال له : يا دولة الرئيس أنا في بلد يهاب الناس
فيه أن يخاطبوا معاون ادارة ، أو مأمور مركز أو أى موظف
حكومي ، فاذا نحن جرأناهم علينا وخاطبناهم وخاطبونا ، أمكنهم
أن يخاطبوا الموظفين في غير هيبة وتعودوا أن يطالبوا بحقوقهم
وقالوا : انا نجالس الناظر (الوزير) ونخاطبه ، فلم لا نخاطب
من هو أقل منه منزلة ؟ » .

ويقص الرافعي نقلا عن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد

« انه دخل ذات ليلة على على باشا مبارك في منزله الأوائل سنة ١٨٩٠ ، وهو يومئذ وزير المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء واذا بمصطفى كامل ، وكان وقتئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا في أمره ، ويقول اننى لا أطلب منك الا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلى ، وما يدريك أن لا أكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر ما تخدمه أنت اليوم ... وبعد ما خرج ابتسم الباشا وقال : اننى أعجب كثيرا بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله » وكان مصطفى كامل قد ذهب اليه في سراى الوزارة وشكى اليه حيف نظام الامتحان الذى أدى الى رسوبه ورسوب زملائه .

هذه النفس الكبيرة لم يصبها الأسى بالتعقيد أو التكبر وظلت على بساطتها من روح المعلم الذى ينشد الصلاح ويرجو الخير .

كان يرى أن يأخذ من الحاكم ، وهو حاكم مطلق الارادة « لخير بلده بقدر ما يستطيع » فيستنقذ من عباس ما يستطيع انقاذه للابقاء على التعليم ، ولا يملك في ظل الاحتلال الا أن يقوم بأمر التعليم في تلك الحدود الضيقة التى فرضها الاحتلال ضمانا لبقاء النزر اليسير من الاصلاح ويقول : « وانا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح ، بقدر الامكان ، والله المستعان » .

أيام قلقة :

وكانت مرونته ورحابة أفقه وتكيفه مع الواقع معوانا له على الاصلاح ، فيقوم بالعمل الذى يكلف به على خير وجه ، ويخلق منه على ضالته شيئا نافعا ، وهو يرى الاصلاح مرتبطا بارادة الحاكم فاذا أبعد الحاكم يثوى الى السعى وراء رزقه ، فيعتزم الإقامة بالريف والعمل بالزراعة حين (رفت) من الخدمة ،

« وبينما أتجهز للسفر الى البلد على هذه النية صدر أمر بأن جميع الضباط المرفوتين يحضرون بالقلعة للفرز » لاختيار القادرين على الخدمة من غيرهم بتحديد أعمارهم ، « وكانوا يعرفون السن بالنظر الى السن » مما هال على مبارك - كما يقول - وود لو لم يلب الطلب ، ولكن أدهم باشا - أحد القائمين بالفرز كان يعرفه ، فأعفاه من هذا الضير « وتعينت معاوننا بديوان الجهادية ، وأحيل على النظر في القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبجانات وغيرها من ملحقات الجهادية » وبقي بها وقتا حتى كلفه « اسماعيل باشا الفريق ناظر الديوان برسم بعض المناورات العسكرية » وكان قد عجز عن القيام بها « فرسمتها في عدة أفرخ من الورق على الوجه اللائق » فأثنى على ووعدنى بذكرى بخير عند المرحوم سعيد باشا وطلب منى وضع اسمى على الرسم ، فقلت عافنى من ذلك ولا تذكرنى عنده .

ولكن اسماعيل باشا الفريق يبين له الخير منه ، فلما ذكره لديه ، أمر بنقله الى مستودعى الداخلية بعد أن « أمر بإبطال التحقيق وحفظ القضايا بالدفترخانة » وبقي « زمنا قليلا » كان يحال عليه خلاله النظر في بعض القضايا حتى عين وكيلا لمجلس التجار ، ولم يبق فيه غير شهرين اذ وشى به سلفه وكان رجلا من الأرمن - لدى سعيد ، ففصل عنه وعاد كما بدأ عاطلا ، ويقول ان التجار من أبناء البلد ، أو التجار البلديون - على حد تعبيره - قد أسفوا لفصله « لما رأوه من البت في القضايا على وجه الحق » .

وبقى عاطلا ثلاثة أشهر حتى عين مفتشا لهندسة « نصف الوجه القبلى » ولم يبق غير شهرين اذ استدعاه سعيد وكلفه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع يرى الرافعى أنه « جليل الشأن ، كان الفرض منه تحقيق موقع الحماد (جنوبى رشيد) بين فرع رشيد وبحيرة ادكو لمنع العدو من مهاجمة

القطر المصرى من هذه الناحية « كما كلف على باشا ابراهيم بالكشف على الجانب الغربى من النيل ، ويقول على مبارك : « فاشتغلنا بذلك مدة بلا ماهية » ولما فرغ من اعداد مشروع استحكامات الحماد ، سعى به الى سعيد فى طره ، وعبثا حاول أن يلقاه بعد أن تردد عليها أياما ، فلما انتقل سعيد الى قصر النيل ، أطل عليه التردد دون جدوى ، « ثم قام الى الاسكندرية فتحيرت فى امرى ، اذ كان لا يثبت فى مكان ، ولم يتيسر لى عرض نتيجة المأمورية عليه فالتزمت الإقامة بمصر حتى أتمكن من لقائه ، وطالت المدة وفرغ المصروف ، ثم قدم الى مصر ، فذهبت اليه فلم أتمكن من الدخول اليه ، فقال لى مأمور التشريفات : كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة فى وقت من الأوقات تتمكن منه ، وحضر على باشا ابراهيم أيضا فاصطحبنا ولازمنا معيته فى السفر ثلاثة أشهر بلا ماهية ، ولا شغل مع كثرة التنقلات من بلد الى بلد ومن موضع الى آخر ثم لما كان ذات يوم فى الجيزة ، وقع نظره على فنادانى ، وكلمنى ، وسألنى عما صنعت فى الرسم فقدمته له ، فنظر فيه قليلا ، ثم قال ابقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه ، ثم لم يلتفت اليه بعد ذلك ، ولكن ربطت لى ماهية وبقيت فى معيته زمنا بلا شغل » .

وتلك هى محنة مصر فى تاريخها الحديث ، لم يكن هناك قانون يحكم المجتمع غير نزوة الحاكم الفرد وأنهوائه ، وكان الحكام طرازا عجيبا من الرجال يسوقهم الهوى والغباء والأثرة وقصر النظر يضيع معهم الجهد ، وتقف عجلة التقدم ، ويتضاءل الابداع والخلق ، ويبقى العاملون بلا عمل ويفيض كل حافز طيب أمام الانطواء الاجتماعى ، الذى يقعد بالأفراد عند طلب المعيشة ، فينزوى كل الى حاله ، وتبدو الذاتية أكثر أمانا من الفيرية ، فتكون اللامبالاة التى تحطم الرباط الاجتماعى للأمة .

ويضيق على مبارك بهذا الفراغ فى معية الحاكم ، وان طاب

للآخرين مثل هذا الفراغ وتلك الصحبة ، ولكنه لا يأمن الصحبة التي تحكمها النزوة ، ولأنه يعرف منذ زمن ما يقع من الإيذاء لمن « يلوذ بالعائلة الخديوية » . فلما عرف من أدهم باشا « أنه صدر له الأمر بترتيب معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب » وسأله « عمن يليق » لهذا العمل ، فقدم نفسه وظنه أدهم باشا « يهزل » وقال : « أترضى أن تكون معلما لهؤلاء ، فقلت : كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا الى ما وصلنا اليه » . ويضطلع بهذا العمل مع اثنين آخرين من « الأفندية » . وتعاوده طبيعة المعلم فلا يرى عائقا عن تعليمهم مع نقص في المعدات والأدوات فكان أحيانا يكتب لهم حروف الهجاء « بالفحم على بلاط المحلات » أو يخطها لهم على الأرض ويذهب اليهم في خيامهم ، لعدم استقرارهم في مكان واحد ، حتى ألم بعضهم بالقراءة والكتابة وقواعد الحساب الأساسية فجعل منهم « عرفاء » لتعليم الآخرين ، وكان يلجأ الى أبسط الوسائل التعليمية فيلجأ الى « العصا والحبل » في تعليم قواعد الهندسة « كتقدير الأبعاد وتعيين النقط واستقامة الحذاء » يجرى ذلك على الأرض فيثبت في أذهانهم ، ووضع في ذلك كتابا أسماه « تقريب الهندسة » طبع على مطبعة الحجر . وتكرر طبعه لتعليم الجنود ، وفي أوقات الفراغ أخذ يشغل نفسه بالقراءة والكتابة فيما يفيد المهندسين ، وجمع ما كتبه وطبع بعد ذلك أيام نظارته على المدارس في عهد اسماعيل باسم « تذكرة المهندسين » .

ويفصل مرة أخرى من الخدمة حين اعتزم سعيد السفر الى أوروبا « وأمر برفق غالب من كان بمعيته » وكان « في جملة المرفوتين » ويضيق ذرعه « ويتشوش طبعه » - كما يقول - اذ كثرت نفقاته بعد أن تزوج واشترى « بيتا بدرب الجمائيز »

ولحقه الدين ، الا انه يجد فرصة في التجارة اذ عرضت الحكومة بعض مهماتها التي اعتبرتها « زائدة عن الحاجة » للبيع « فلما حضرت المزادات - كما يقول - رأيت الأشياء تباع بأبخس الأثمان ، ورأيت ما كان لمدرسة المهندسخانة من اللوازم والأشياء الثمينة العظيمة ، وفي جملتها الكتب التي كنت طبعتها وغيرها تباع بتراب الفلوس ، وكذا أشياء كثيرة من نحو آلات الحديد والنحاس والرصاص والعقارات والفضيات والمرايات والساعات والمفروشات ، وغير ذلك وليتها كانت تباع بالنقد الحال ، بل كانت الأثمان تؤجل بالآجال البعيدة وبعضها بأوراق الماهيات ونحو ذلك من أنواع التسهيل على المشتري ، فكان التجار يربحون فيها أرباحا جمة ، فلبطالتي واستدانتى وكثرة مصرفى مالت نفسى للشراء من هذه الأشياء ، والدخول فى التجارة ، ففعلت وعاملت التجار وعرفتهم وعرفونى ، وكثر منى الشراء والبيع فربحت واستعنت بذلك على المصروف وأداء بعض الحقوق ، واستمر منى ذلك نحو الشهرين فازدادت عندى دواعى التجارة وصارت هى مطمع نظرى وقصرت عليها فكرتى ، خصوصا لما تقرر عندى من اضطراب وتقلبات الأمور التى كادت أن تذهب منى ثمرات المعارف والأسفار ، بحيث كلما تقدمت فى العمر ، وكثرت العيال ، كنت أرى التقهقر ونفاد ما استحوذت عليه ، فأثرت حرفة التجارة على حرفتى الأصلية وصرفت النظر عن الخدمة الأميرية « حتى جال فى خاطره أن يكون شركة من المهندسين المتقاعدين ، ولكن فكرته لا تحوز القبول والرضا لديهم فاعتزم القيام بها بنفسه « وشرعت فى العمل وبينما أنا فى حوالك هذه الأحوال أروم التخلص من تلك الأحوال « اذ جاء النبأ بوفاة سعيد .

وكان من اليسير على على مبارك أن يصبح تاجرا عظيما بما أوتى من ذكاء وقدرة على الابتكار والتكيف وأن يجمع ثروة طائلة ، ويمضى به التاريخ عابرا ، اذ لا يأبه التاريخ الا بمن يغير

من صفحة الحياة ويملى عليها ارادته ، ولكن القدر كان يعد له الدور الذى يلج به محراب التاريخ ولم يكن له يد فى تهيئة هذا الدور ، فما كان له أن يختار لنفسه ما يشاء ، ما دام الحاكم هو الذى يرى ما يشاء ، ولو لم يشأ ، الحاكم لعبه به التاريخ غير آبه ، ولكنه حين أراد له الحاكم ما أراد استطاع أن يصنع مما أراد ، بذكائه وقدرته على الابتكار والتكيف شيئا يستحق التخليد فجذب اليه التاريخ ليقف عنده مدونا فضل أبى التعليم .

الوسيلة والغاية

يكن من أمر الرجل العظيم ، فانه حين تواتيه الفرصة يكون له من ذكائه وقدرته هاديا الى التميز والبروز ، فيستهوى الأنظار وينال التقدير الذى يحمل صاحب الارادة على الوثوق به . وقد واتت على مبارك

ومهما

الفرصة حين الحقه اسماعيل بمعيته واستشاره فى أمر القناطر الخيرية ، ولم تكن عيونها تقفل خوفا من ضغط المياه على جدرانها ، كما قرر المهندسون ، وكانت مياه النيل تتجه الى بحر الغرب (فرع رشيد) وأخذت تتحول اليه عن بحر الشرق (فرع دمياط) مما أدى الى قلة مياه الري فى الجانب الشرقى من الدلتا ، مع حاجة الزراعة الصيفية اليها ، ورأى على مبارك أن تقفل العيون التى تمد فرع رشيد بمياه النيل فتتحول الى فرع دمياط ، وليس من خوف على بناء القناطر ، اذ أن ضغط المياه لا يكون من القوة التى تهدد البناء بالخطر لانسيابها الى فرع دمياط ، هذا فضلا عن أن المهندسين الذين قرروا فتحها لم يجزموا بوجود خطر من اغلاقها ، وانما بنوا رأيهم على الشك والامعان فى الحذر ، فاذا أغلقت ظهرت الحقيقة ، فاما خلل يتدارك فى أوانه ، واما صح رأيه فينال فرع دمياط حاجته من المياه وتنال الأراضى حاجتها من الري .

واستصوب اسماعيل رأى ، فأمر باغلاق العيون ، ولم ينجم عن ذلك خطر الا ما ظهر من خلل فى بعض العيون القريبة من « البر الغربى » فأقام حولها سياجا من الخشب ترسب حوله

الطمي فنشأت جزيرة رملية كانت وقاء للبناء من ضغط المياه
« فلم يكن خللها مانعا من اقفالها كل سنة » .

ولعل صواب هذا الرأي هو الذى لفت انظار اسماعيل الى
على مبارك فوثق به فيما يعهد به اليه من جلائل الأعمال ، فاذا
كان اسماعيل قد الحقه بمعيته « لأنه فكر - كما يقول الرافعى -
فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة » فما نظن ذلك مما جال
بخاطر اسماعيل ، ولانرى على مبارك يشير الى شىء من هذا
القبيل . ولا نرى ذكرا لصحبة قامت بينه وبين اسماعيل أو أحد
من الأمراء أيام البعثة ، ولا يذكر الا « ما يقع لمن يلوذ بالعائلة
الخدوية من الايذاء » ولم يكن قد تمرس من قبل بعمل يلفت اليه
انتباه اسماعيل وقضى اسماعيل أيامه بالاستانة فى حكم عباس ،
فلما رجع الى مصر فى حكم سعيد ، كان على مبارك بالقرم ،
ولما عاد من القرم ، لم يكل اليه سعيد عملا ذا شأن ، وظل
بعيدا عن محك القدرة والنباهة فى عمل جليل فاذا كان اسماعيل
قد الحقه بمعيته ، فلأنه كان يرى حاجته فى سياسته الجديدة
الى كل رجل نال قسطا من التعليم وما كان له أن يسقط من
حسابه هؤلاء المبعوثين ممن نالوا تعليما عاليا فى الغرب . فلما
أبرزت التجربة مواهبه ، كان له فى دولة اسماعيل ما كان من
نباهة وسداد رأى وقدرة على العمل جذبت اليه انتباه
اسماعيل .

وكان اسماعيل على خلاف عباس بانطوائه وساديته وخموله ،
وسعيد بغبائه وبساطته ونواياه الطيبة ذكيا طموحا نشيطا
بهرته مظاهر الحضارة الغربية دون جوهرها ، فبقى حياته أسير
هذه المظاهر يريد « أن يجعل لعرش مصر - كما يقول هيكل -
مظاهر العروش الأوروبية » وأن يكون « قصره كقصر لويس الرابع

عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهر وليقول عن مصر انها أصبحت قطعة من أوربا » وكان الى ذكائه قصير النظر « شرها في كل مطامعه وشهواته مغامرا في سبيلها مجازفا مجازفة لا يهون منها أى حذر ، وكان فيه من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه ، وقسوة لا يتسرب اليها أمل في رحمة » وأن أعوزه حذره ومكره فكانت نهايته الأليمة حصادالمغامرة والطموح والنزق ، كما كادت تكون نهاية محمد على لولا حذره ، عندما قادته المغامرة الى معاناة أزمة سنة ١٨٤٠ ولولا استجابته لحرم عرشه هو الآخر ، ولذهب عناء السنين هباء .

وكما كان عهد محمد على عهد نشاط وحركة لم تهدأ طوال سنوات حكمه ، أعقبها خمود جابه الفقر الذى أورثه البلاد وإدارة قلقة اتسمت بالغباء على يد خليفتيه عباس وسعيد ، كان عهد اسماعيل هو الآخر عهد نشاط وحركة لم تهدأ طوال حكمه هو الآخر ، الا ان الزمن كان غير الزمن ، وكان مسرح الأحداث بلاعبيه مختلفا اشد الاختلاف ، فحين استطاع محمد على أن يقضى على كل نزعة قومية ، وأن يخرج الشعب تماما من حسابه فلا يكون له دور فيما يعمل . لم يستطع اسماعيل وان أسقط الشعب من حسابه أن يقضى على النزعة القومية الوليدة التى انفجرت بكامل قوتها أوائل حكم توفيق ، ولا أن يتوقع ما للحركة الفكرية الناشئة من أثر على أسرته لو سارت الأمور على غير ما سارت عليه من احتلال بريطانيا لمصر ، ولعله لم يعن خطر تلك الحركة الفكرية على حاكم مستبد ، ولعله - دون أن يدري - قد أمدها بالقدرة على التفتح والانطلاق ، وكان الزمن في صفها أكثر مما قدره فكر الحاكم المستبد ونوايا العاهل الطموح ، فما كان اسماعيل أقل من جده حفاوة بالعناصر التركية أو ازدراء

للمصريين ، وما كان يحفل بالتقدم الاجتماعى ، قدر ما كان يحفل بتقدم الدولة فى شخصه وأبنته ورواء عرشه وبلاطه ، واستقلاله عن الدولة العثمانية ، فنراه وان لم يجد بدا من الاستعانة بالمصريين فى المناصب الادارية ، يحول دون ترقىهم فى السلك العسكرى الى الحد الذى يؤثر فى كيان الجيش ، على غير ما ذهب اليه سعيد من افساح مجال الترقى أمام المصريين لمناصب القيادات العسكرية ولا يشجع المصريين كثيرا على ملكية الأرض ، وكانت أكثر (انعاميات) الأراضى للعناصر التركية فى الحاشية الخديوية ، وفى صفوف الجيش ، وحال بين الفلاحين وشراء الأرض حين لجأ نفسه الى حيازة الأرض وقفزت مساحة أراضيه خلال سبعة عشر عاما من ١٥ ألف فدان فى بداية حكمه الى ٩٥٠ ألف فدان مقسمة الى احدى وخمسين دائرة فى نهاية حكمه ، فكأنه ألفى « اللائحة السعيدية » بملكية الفلاحين للأراضى بطريق غير مباشر ، وحين هالته كثرة (الوجوه السمراء) أو المصريين فى مناصب مديرى المديرىات فى « تشريفة عيد من الأعياد » (عام ١٨٧٠) نراها تختفى بعد ذلك ، وبعد أن كادوا يحتلونها عام ١٨٦٩ . ولم تكن تلك الظاهرة ، ظاهرة كثرة مديرى المديرىات من المصريين فى تلك الفترة من وحي اسماعيل أو ارادته ، فمما ينسب الى اسماعيل صديق « المفتش » وهو ناظر للمالية ومفتش عموم الأقاليم ابان حظوته عند اسماعيل أنه أخذ « يدمج فى سلك المديرين » كما يذكر أمين سامى باشا - بعض أفراد الأهالى المصريين ابتداء من سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٩) واستمر يزيد فى عدد هؤلاء لتمتعهم بوظائف المديرين ووكلاء المديرىات ونظار الأقسام سنة فسنة حتى كان من بين هؤلاء من يجهل القراءة والكتابة بالكلية خصوصا فى سنة ١٢٨٧ وما بعدها .. والمحقق أنه سلك هذا السلك .. للانتفاع بما كان يناله هو أو هو وغيره

من الاتاوة التي فرضها على من يريد الحصول على وظائف المديرين (١) .

ويذكر أمين سامى أن على مبارك « وكان في هذا العيد مفصولا وعلى المعاش » قال حين سمع بسرور الخديو لرؤية معظم المديرين من ذوى اللون الأسمر المصرى « أنا مصرى مثلهم وأسمر منهم ولكنى أعرف القراءة والكتابة » .

وكان اسماعيل كجده لا يأبه للشعب فقد كان « يعتبر مصر - على حد تعبير هيكل - كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم » وحين أراد جده أن

(١) كان مديرو المديرية عام ١٢٨٧ هـ (١٨٦٩)

الوجه البحرى : السيد أبازة باشا (مدير عموم الوجه البحرى) - أتربى أبو العز بك (الغربية ثم المنوفية) - هلال بك (الغربية) - محمد سعيد بك (الدقهلية) سليمان أبازة بك (القليوبية) .

الوجه القبلى : أبو سلطان باشا (مدير عموم الوجه القبلى) - محمد توفيق بك (الجيزة) جابر خليفة بك (بنى سويف) - مراد رفعت بك (الفيوم) - عمر أحمد بك (أسيوط) - محمد حمادى بك (جرجا) .

وكانوا عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩)

الوجه البحرى : درملى حسين باشا - خالد باشا - اسماعيل دانش باشا - محمد شاكى باشا - اسماعيل حمدى باشا - على غالب باشا - مصطفى فهمى باشا - محمد رضا باشا - ادريس بك - حسن سرى باشا - أحمد الشريف باشا - اسماعيل صفوت باشا - طه لطفى بك - محمد فوزى باشا .

الوجه القبلى : محمد سلطان باشا (مفتش عموم الاقاليم القبلية) - ابراهيم أدهم باشا - الياس حسين بك - حسين عاصم باشا - حسين واصف باشا - أحمد فريد بك - عثمان لطيف باشا .

يستثمر المزرعة على أحسن وجوه الاستثمار ، ويستعين على ذلك بالإدارة والعلم الغربيين . أراد اسماعيل أن يضيف على هذه المزرعة رواء الغرب وبهائه ، وأن ينقل « مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوروبية الا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية ، والذى دخل الى مصر سدا لحاجات محمد على الحربية » فليخطط المدن والحوضر على أحدث نظام ولتكن القاهرة على غرار باريس تعبد فيها الشوارع وتقام القصور وتفرس البساتين وتنشأ الدواوين ودور الحكومة ولتمد السكك الحديدية وخطوط البرق والتليفون ، وليكن له بلاط يزدهى به على ملوك أوربا وقصور تبرز قصورهم واذا كان للبلاد الأوروبية مجالس نيابية ، فلينشئ هو الآخر فى مصر مجلسا نيابيا وان لم يكن من السلطة ما للمجالس النيابية فى الخارج ، ويكفيه منها الا ينقصه من مظاهر الحكم الغربى شيء ، وليقم المدارس ويرسل البعث الى الخارج حتى يقال عنه حاكم مستنير يمكن للحضارة ويمد رواقها على بلاده ، وليستثمر المزرعة بعد ذلك على أحسن وجوه الاستثمار فيشق الترع ويقيم الجسور والقناطر ويعنى بالزراعة فهى مصدر الايراد والثروة . وعن هذا الطريق استطاع على مبارك أن يكون له شأن فى دولة اسماعيل وأن يحول اهتمام الحاكم بالمظهر الى عمل جوهري يعود بالخير على البلاد ويمتد من أثره فى حياتها ما كان للتعليم الذى يرعاه من أثر على العقول والأفهام ، وليستثمر حوافز الحاكم فيما ينفع ويفيد ، وانه ليعلم أن التعليم مراقبة الأمم والشعوب الى ما ترجو من خير وما تنشد من تقدم . ألم يقم بتعليم الجند القراءة والكتابة ، ولم يستنكف هذا العمل أو يترفع عنه فكيف لا يرضى ، « تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم » ولم يصل الى ما وصل اليه الا عن طريق التعليم ، فلتكن الدولة وسيلته الى الغاية التى ينشدها ، فليس أقدر منها عليه ، وليكن ولاؤه للدولة ولاء للوطن .

في خدمة الدولة :

لم يكن على مبارك رجلا ثائرا ، ولم يكن زعيما شعبيا ، ولم يتصد طوال حياته لقيادة الجماهير وحين قامت الثورة العربية ظل بعيدا عنها ، وانما كان رجل عمل ، يرى تحقيق غايته في عمله وفيما تمنحه الدولة من قدرة على العمل المثمر ، وفيما يبدع فكره وذكاءه من فائدة تجنيها أمتة من وراء عمله ولم يكن أثرا على الخديويين ، وهو المصرى الفلاح ، الا بقدر ما يحول رغبة الخديويين الى عمل مثمر فقد عانى الفصل أو (الرقت) - كما يقول - من خدمة الحكومة زمن سعيد ولم ينج منه زمن اسماعيل ولكن القدرة والتفوق والأصالة كانت هى التى تحملهم اليه مرة بعد أخرى . ولا يرى فيه اسماعيل الا رجلا يقدر على ما يعجز عنه الآخرون ، وتتجاوب قدرته مع رغبة الحاكم ، فىرى ما يبغيه ، وقد تحقق على يديه بأقل نفقة وأحسن نتيجة ، وحين يحيل عليه نظارة القناطر الخيرية ، وينفذ ما أشار به على اسماعيل تصدر ارادته عام ١٨٦٥ بتعيين « صاحب العزة على مبارك بك ناظر القناطر الخيرية فى خدمة معيتى ، وقد أصدرنا أمرا لنظارة المالية بخصوص قيد مرتباته فى دفاتر المالية اعتبارا من هذا التاريخ ، فبناء عليه يجب أن تبادروا بفصل قيده من مأموريته السابقة ، وبطلب انتخاب كفاء من نظارة الأشغال لاستخدامه فى الوظيفة المذكورة بصورة مؤقتة بدلا منه » . واختاره ممثلا للحكومة المصرية فى لجنة تقدير أراضى شركة قناة السويس ، تنفيذا لقرار التحكيم الذى أصدره نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى النزاع بين اسماعيل وشركة القناة فى ٦ يولييه ١٨٦٤ وكانت اللجنة مكونة من ممثل للحكومة المصرية ، وآخر للدولة العثمانية وثالث للحكومة الفرنسية ورابع للشركة .

وكان اسماعيل قد اعترض على بعض شروط الامتياز الذى

أبرمه سعيد مع الشركة ، وارتضى نابليون الثالث حكما في النزاع ، فكان حكمه الجائر ما يأتي :

١ - ليس للشركة حق في الزام الحكومة المصرية بتقديم العمال المصريين على أن تؤدي الحكومة للشركة مقابل ذلك ، تعويضا ماليا قدره ثمانية ملايين فرنك .

٢ - تتنازل الشركة عن كل حق في ترعة المياه العذبة ، والزام الحكومة بحفرها ، مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بمياهها ، ومقابل هذا التنازل تدفع الحكومة للشركة ستة عشر مليون فرنك .

٣ - قصر ملكية الشركة على الأراضى اللازمة للمشروع ومساحتها ثلاثة وعشرون ألف هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر) منها ١٠.٢٦٤ هكتارا على جانبي القناة البحرية وملحقاتها وتسعة آلاف وستمئة هكتار للترعة العذبة وثلاثة آلاف هكتار لمباني الشركة .

٤ - اعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ستون ألف هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ثلاثون مليون فرنك .

وقامت اللجنة بعملها بعد أن طافت بالأراضى من « السويس الى بورسعيد وبعد المذاكرات والمداولات عملت الرسوم اللازمة وتحرر بذلك القرار وتمت المسألة على أحسن حال » وأحسن اليه الخديو بعدها - كما يذكر - برتبة المتمايز ومنح النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ، كما منحته فرنسا بدورها نيشان « اللجيون دونير » من رتبة ضابط ، وان كانت مثل هذه اللجان مما لا تحتاج الى فكر أو ذكاء اذ لا يتجاوز عملها تنفيذ ما تقرر .

ويصدر قرار الخديو في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٧) بتعيينه وكيلا عاما لديوان المدارس وبقائه ناظرا على القناطر الخيرية - وقد أعيد إليها - وكان قد تقدم بمشروع (لائحة) لاصلاح التعليم وبعد قليل انتدبه للسفر الى باريس « في مسألة تخص المالية » وكانت « سفرة مفيدة - كما يقول - اغتنمت فيها فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمّة ، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك ، وتفرجت على مجاريها العمومية » .

وبعد عودته نال رتبة الميرمران عام ١٨٦٨ ، وأصبح « على باشا مبارك » واحيل اليه فضلا عن ديوان المدارس ، ديوان الاشغال العمومية ، وإدارة السكك الحديدية ، ونظارة عموم الأوقاف مع بقاءه في المعية الخديوية ، فقام بها جميعا ، يباشر فيها عمله صباحا ، أما مساء أو « من بعد الظهر الى الغروب » - كما يقول - فقد خصصه « لديوان السكة الحديدية » لاتساع أعمالها وظل قائما بها جميعا « الى رمضان سنة ثمان وثمانية » (سبتمبر ١٨٧٠) ثم انفصلت عن ديوان السكة ثم عن المدارس والاشغال بعد أيام قلائل ، ثم عن الأوقاف بعد مضي قليل من شوال من تلك السنة » .

وترجع أسباب فصله الى وشاية اسماعيل صديق (المفتش) ناظر المالية حينذاك الأثير على اسماعيل وصاحب الخطوة عنده ، فقد أراد اسماعيل المفتش أن يضم ايراد السكك الحديدية الى المالية ، فلم يقبل على مبارك الا أن تقوم المالية بمصروفاتها ما دامت تستولى على ايراداتها ويكتفى هو بإدارتها مشترطا صدور أمر الخديو بذلك حتى لا يسأل عما « يحصل من الضرر » بعد ذلك . ولم يلبث طويلا حتى عاد الى ولاية ديوان المدارس بعد أن أحيلت

اليه ادارة المكاتب الأهلية . ويبدو أن الخديو قد شعر بالفراغ الذى خلفه ولم يجد من يملأه ، فأعادته الى مناصبه الأولى فى الأشغال والأوقاف وان لم يعهد اليه بادارة السكك الحديدية ، ولما ادمجت هذه الدواوين فى بعضها وتحولت الى الأمير حسين كامل بقى معه مستشارا لها ، وحين صدر أمر الخديو بتعيين الأمير حسين كامل ناظرا للداخلية ، الحق بها الأشغال العمومية وعين على مبارك وكيلها ، ولم يلبث غير شهرين وصدر الأمر الخديو بفصله من وكالة الأشغال وتعيينه عضوا « بالمجلس الخصوصى » وكانت الأشغال العمومية قد ألحقت قبل ذلك بأيام بديوان الجهادية ثم فصل منه بعد أن لحقته نقمة اسماعيل صديق وأضرابه اذ وشوا به عند الخديو « بأن كتابنا نخبة الفكر الذى أمرنى بتأليفه فيما يتعلق بأمر النيل مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها » ، فلزم بيته مرة أخرى وان بقى مرتبه يؤدى اليه « من المالية » حتى أعيد الى الخدمة بعد قليل « رئيس اشغال الهندسة بديوان الاشغال » ثم أعيد ديوان الاشغال الى نظارة الداخلية وكان يتولاها محمد باشا توفيق « ولى عهد الحكومة الخديوية » فعين .. مستشارا له . ولما استقل الديوان بنفسه عام ١٨٧٥ « تحت نظارة دولتو ابراهيم باشا نجل المرحوم أحمد باشا » بقى معه فى منصبه حتى عين فى وزارة نوبار عام ١٨٧٨ ناظرا للأوقاف والمعارف ، وظل فى منصبه فى وزارة توفيق حتى سقطت ، وألف محمد شريف الوزارة ولم يكن من أعضائها ، وبقي بمنأى عن الحكم حتى خلع اسماعيل وتولى الخديوية ولى عهده توفيق .. فكلف محمد رياض بتأليف الوزارة عام ١٨٧٩ وعين على مبارك ناظرا للأشغال حتى استقالت فى سبتمبر ١٨٨١ وألف شريف الوزارة الجديدة فلم يكن من أعضائها ، ولما ألف شريف وزارته الرابعة بعد الاحتلال كان فيها ناظرا للأشغال حتى استقالت فى يناير ١٨٨٤ احتجاجا على اخلاء السودان ثم عاد الى الوزارة ناظرا للمعارف

العمومية في وزارة رياض التي تألفت عقب إقالة نوبار في يونيه ١٨٨٨ ، وكان هذا آخر منصب تولاه وبقي به حتى استقالة رياض سنة ١٨٩١ فلزم داره ثم سافر الى بلده لإدارة أملاكه حتى مرض بداء المثانة ، فرجع الى مصر وألح عليه المرض حتى وافته المنية بداره بالحلمية الجديدة في ١٤ نوفمبر ١٨٣٩ .

الحافز والأثر :

ولم يكن العمل لديه خاليا من الحوافز ، ولم تكن حوافزه من قبيل الحوافز التي حملت غيره من المصريين الذين تقدموا في وظائف الدولة أو نالوا حظوة لدى الخديوين ، فحين حملتهم ذاتيتهم الى التنكر لأصولهم القديمة والتشبه بالأتراك ، وجمع الثروة والسير في ركاب الخديوين وخدمة مآربهم ، والانتفاع منها بما يعود عليهم من كسب الجاه والنفوذ واقتناء العقار والأموال ذهب هو الى اتخاذ المنصب أو الجاه أو التقدم في سلك الوظائف العامة أو مصانعة الخديوين ، وسيلة لخدمة بلده ، وكأنه يرى أن كل ما يجود به الخديويون من أموال - وكان من العسير أن يجودوا بها - يجب أن يستثمر أعظم استثمار في خدمة العمران والتقدم في بلاده ، وأن كل نزعة منهم للبناء والتعمير وأن كانت مظهرية كنزعة اسماعيل يجب أن تستغل لخدمة أهله وعشيرته ، وكل حافز فيهم للعمل وأن كان عائده عليهم كما كان من الاحتلال حين عنى بالزراعة والرى وأهمل التعليم ، يجب أن يتجه ويتكيف بحيث تنال البلاد بعض عائده ، كانت تلك حوافزه : العمل من أجل مصر ومن أجل المصريين ليخفف عنهم ما أرهقهم به الحاكم من أعباء وليهون عليهم بقدر ما يستطيع من شدة الحياة ووقر الحاكم ، ولينشئ للمستقبل جيلا جديدا يزود بالقدرة على استعادة حقه واثبات وجوده » ولهذا التزمت - كما يقول - في كل ما تقلدت

من الأعمال وجميع ما تقلبت فيه من الأحوال ، أن اخدم وطنى بكل ما نالته يدي وبلغه امكاني مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل « ومضى فى الحياة لا يألو جهدا فى خدمة مصر ، ولم يشأ أن يتشبه بالترك وانما أراد أن يكون قرينا لهم ، ولم يفكر كما فكر غيره ممن نالوا بعض الحظوة أو الحظ من المصريين فى التنكر لأصوله وعشيرته والتشبه بالترك أو التقرب اليهم ولو عن طريق الجوارى أو البطش بالأهل والعشيرة لمصلحة الحاكم المستبد كما كان من اسماعيل صديق وكانت نهايته عنوانا على البطش والاستبداد ، ومحمد سلطان الذى قال فيه عبد الله النديم « انه تلميذ مدرسة الظلم الوبيل وتربية الخديو اسماعيل » ومحمد رياض الذى تولى الوزارة أكثر من مرة قبل الاحتلال وبعد الاحتلال فكان على المصريين أشد مما كان الترك ووصفه الرافعى « بالتعاضم والكبرياء والزراية بالشعب » .

وكانت تلك وما زالت آفة المصريين أورثتهم اياها عهود الاستبداد الطويلة لا ينجو منها الا من أوتى رحابة من الفكر واكتمالا فى الشخصية ، وكانت أسس التربية التى قامت عليها المدرسة المصرية الحديثة فى عهد محمد على وبعد عهده حتى الاحتلال البريطانى خالية مما يقوم شخصية الفرد أو يهدى الى الفكر الحر ، فكانت بنظامها العسكرى وبما حفلت به من عقوبات بدنية ونفسية أقتل لشخصية الفرد مما كانت عليه الكتائب القديمة ، وما كان عليه التعليم الدينى فى الأزهر والمدارس الكنسية المسيحية على قلتها ، فاذا كان التعليم الدينى قد أقام سياجا من الجمود على فكر الناشئ ، فقد ترك له حريته الشخصية كيفها ويتكيف معها على ما تستهديه حياته ، وكان من الأزهر رجال قبل عهد محمد على تركوا آثارهم جليلة على صفحة الحياة المصرية فى الوقوف أمام الممالك ، وفى الثورة على الفرنسيين وفى وصول محمد على

الى الولاية ، ويختفى هذا الأثر من آثار الأزهر بعد أن استبد محمد على بالحكم وقضى على نفوذ علمائه بين المصريين . فلما أقام مدرسته الحديثة ، أقامها لاعداد طبقة أثيرة من خدام الدولة تدين بالولاء له ولأسرته من بعده ، وطبع نظامها بنوع من الصرامة يجرّد الفرد من شخصيته ومن الولاء حتى لأهله ، فكثيرا ما كان يعطى للتلاميذ أسماء وألقابا غير أسمائهم وألقابهم الأولى ، وكان يقطع الصلة بينهم وبين أهليهم ، فلم ير على مبارك أهله الا بعد أربعة عشر عاما من فراقه لهم ، وعاقه عن زيارتهم بعد عودته من البعثة ما عرفه من أن « من يقوم بأجازة يقطع نصف راتبه » .

وكان يؤثر من بينهم الأجانب وأبناء المماليك ويعلى عليهم جميعا أبناء جلدته من الترك والجرّكس ، فاذا احتاج الى مصرى فهي الحاجة التى لا يقوم بها غيره ، ومن هذه الثغرة نفذ كثير من المصريين الى التعليم والى مناصب الدولة حين استوعب جيشه أبناء المماليك ، واستوعبت وظائف الدولة الكبرى المدنية والعسكرية غيرهم من الترك ولم يبق للمصريين غير وظائف التعليم والوظائف الفنية الأخرى فى الطب والهندسة والصناعة اذ لم يكن للمماليك أو الترك قدرة عليها .

ولم يكن مما يعنى محمد على أن يعد طبقة من المتعلمين تنهض بالأمة وترقى بها ، وما كان يعنيه الا أن يمدّه نظامه التعليمى بنفر من القادرين على خدمة الدولة ، ولا تتعدى رسالة المدرسة عنده تلك الغاية ، وبقدر ما تحتاجه الدولة من هؤلاء النفر ، بقدر ما يتسع أو ينكمش نظامه التعليمى .

وفى هذا السياق الذى أقامه محمد على للحكم ، وأقام فى داخله نظامه التعليمى ظهر بعض المصريين ونبه شأنهم فى خدمة الدولة ،

ولكنهم كانوا يحملون في نفوسهم عقدتين : عقدة الاستعلاء على مواطنيهم والتنكر لأصولهم القديمة ، وعقدة النقص أمام الحاكم التركي والاستخذاء للحكم الفاشم مهما كان وباله . ولم ينبج من عقدتي النقص والاستعلاء الا من أوتى - كما قلنا - رحابة من الفكر واكتمالا في الشخصية ونكاد لا نعثر بين خريجي مدارس محمد على من استوت في نفسه وفي خلقه الشخصية المصرية استواءها الصحيح ، فما أن تتقدم بهم المناصب ، حتى يأخذوا السميت التركي في التعاضم والاستعلاء على المصريين ، ويبقى فيهم مركب النقص يشدهم الى التشبه بالأتراك ، ويجرهم الى مصاهرة الترك ، وقليل ما كانت تقبل الأسر التركية مصاهرة الفلاحين المصريين ، فكانوا يقبلون على زواج الجوارى من معتوقات الأمراء أو خدم الأسرة العلوية ، ولم يرض الخديو اسماعيل عن عرابي ويعيده الى خدمة الجيش ، الا بعد أن تزوج ابنة مرضعة الأميرة أمينة الهامى ولى عهده توفيق .

وكانت التركية عتيقة أو حرة قادرة على أن تجمع بين زواجها من مصرى وازدراء غيره من المصريين ، وبين الولاء الذى عرفت به التركيات للزوج والازدراء الذى نشأ عليه للمصريين ، كن يوائمن أنفسهن على الاعتقاد بأن الزوج المصرى قد سلخ نفسه عن عشيرته بزواجه منهن . وبقيت تلك العقدة كامنة فى أبنائهن ، فكان اعتزازهم بالنسبة الى الترك يفوق اعتزازهم بالنسبة الى المصريين وخاصة فى الاناث منهم .

ولم ينبج على مبارك من عقدة الاستخذاء وان نجا من عقدة الاستعلاء مما يفسر التناقض بين ما أداه لبلاده من خدمات وبين موقفه من الثورة العرابية . فقد حملته عقدة الاستخذاء على أن يرى فى الدولة ، رجاءه فى خدمة وطنه ، فيستنكر الثورة عليها ويكون موقفه من الثورة العرابية موقف من يخشى العواقب ،

ولا يفامر بالتجربة ، فيستنكرها ويلام على ما لم يكن في طاقته أن يقوم به ، فما كان إلا ربيب النظام التعليمي الذي أنشأه محمد على ، وإن لم يدن بنوع من الوفاء لهذا النظام الذي حمله في مستهل التحاقه بمدرسة القصر العيني على التفكير في الهرب فلم يعقه عنه إلا خوفه مما يلقي الهارب وأهله من نكال .

ولكن هذا النظام التعليمي قد ترك في نفسه هذا الأثر من التسليم والاستخذاء ، وكان في الوقت نفسه صدى لنشأته في أسرة تشتغل بالدين وتقيم حياتها عليه ، فبقدر ما يعرف عن مثل هذه الأسر من الطيبة والوداعة والتسامح ، فإنها تعيش في قرى مصر على رعاية المجتمع وبر الناس ، ولم يكن العنف أو الثورة من طبائعها ، بل أنها لترى من واجبها أن تدعو الناس الى الرضا والتسامح وأن تصلح ذات البين بينهم ، فإذا حلت بها مصيبة أو نكبة أو لقيت جوراً أو ظلماً - كما لقيت أسرة على مبارك في برنبال الجديدة - فأرض الله واسعة وليهاجروا الى حيث تطيب لهم الحياة وليجدوا في كنف قوم آخرين من الرعاية والبر ما يقيم حياتهم الجديدة .

ولم يكن على مبارك بحكم نشأته وتربيته وتعليمه ممن يؤمن بالثورة ، ولم تكن له قدرة عليها وكان يرى في العمل الوئيد المحقق مالا تثمره الآمال العراض . أو الرغبة في تغيير عنيف لا يضمن عواقبه ، فكان موقفه من الثورة العرابية ، وكان حذره منها ، فضلا عن أنها جاءت في وقت كان قد بلغ فيه أقصى ما يأمله مصرى في طموحه حينذاك ، وحقق من آماله في العمل وفي المنصب ما يبتغيه . فإذا قصده بعض شباب الضباط من المصريين في داره - وما من شك في أنهم ما ذهبوا اليه إلا لأنه مصرى صميم يحس احساسهم ، وتجييش نفسه بما تجيش به نفوسهم - يستشيرونه في أمرهم وفيما يعتزمونه من استخلاص حقوقهم

بالقوة ، وقد بلغ بهم التدمير من الضباط الجراكسة حد الانفجار ،
قص عليهم قصة وقعت له في بداية حياته ، حين طلبه الخديو
لمقابلته في سراى رأس التين ، وقد جلس معه في قاعة الانتظار
تركبان تحدثا الى بعضهما باللغة التركية وقد ظنا انه لا يفهما ،
وأبديا عجبهما من أن يدخل فلاح قصر الوالى أو أن يطلبه الوالى ،
ثم قال للضباط : « وهذا الفلاح عينه قد أصبح ناظرا ، هذا
مكسب كبير لنا ، فاذا صبرنا فسنحل محل هؤلاء الشراكسة ...
اذن كونوا أثبت من ذلك ولا تتحركوا حركة من قبيل ما ذكرتم » .

فلم تكن الثورة من طبيعته ، ولم يكن التحدي وسيلته ،
وما كان يؤمن بغير العمل المثمر في اطار الدولة ، فكانت الوظيفة
عنده وسيلة لغاية ، وكانت غايته أن يتخذ من حوافز الدولة
معوانا لغايته ، والدولة كما هى دولة الفرد صاحب الأمر والنهى ،
ورب السلطة المطلقة ، ما من عمل يتم الا بإرادته وما من قرار يبرم
الا بأمره ، ودولة هذا شأنها فان تقدمها رهن بمشيئة الفرد
وحوافزه ، ولن يتاح لفرد فى مثل هذه الدولة سبيل الخدمة العامة
مالم يكن من رجالها القائمون على تنفيذ ارادتها ، العاملون على تحقيق
ما يراه الحاكم لها ، على أن يستهدى فى عمله خدمة الوطن وصالح
المواطنين ، فلا تكون بفите ارضاء الحاكم فحسب ، فكثيرا ما يرضى
مثل هذا الحاكم المستبد ببهاء الصورة ويفغل عن المضمون المتداعى
المنهار فلا تكون لأعماله صفة الأصالة أو البقاء .

ويفصح عن أسلوبه فى العمل فيقول « وأستعين ... بالأوامر
الخديوية » فالأمر الخديوى وسيلة لتحقيق الغاية التى يتوخاها
من الاصلاح والتعمير ، وليست وسيلة لأرضاء الخديو فحسب
وان كان لا يفغل عن ارضائه بتنفيذ ما يبغي ولكن على الصورة
التي يراها مثمرة ونافعة ، ففى ارضائه ما يمنحه مزيدا من

القدرة على التنفيذ ، فليس بعد الأمر الخديوى أمر وليس عليه معقب .

فالحافز الذى يدفعه الى العمل النافع المثمر ، هو أن يخدم وطنه - كما يقول - بكل ما نالته يده ، وما بلغه « مكانه » والوسيلة اليه هى الأوامر الخديوية التى تمثل سلطة الدولة العليا . أما الأثر فهو ذلك السجل الحافل من الأعمال الجليلة التى تمت على يديه والتى عادت على مصر بأعظم النفع ، ولم تكن لتتم على تلك الصورة ، لو لم يكن وراءها هذا العقل المبدع الخلاق وتلك الطاقة القادرة على التكيف ، لتصل بعائد العمل الى أقصى مداه .

فاذا توارت عنه الحوافز أو غامت لديه يبقى أمامه حافز واحد يضنيه ويدفعه فهو تجربة حياته كلها . وهو الفكرة التى ندبها عقله من واقع وجوده وكفاحه لتحقيق طموحه ، فما زالت صورة الطفل الشارد يبنى أن يتعلم ، وأن يتقدم عن طريق التعليم ليكون مثل « عنبر أفندى مأمور زراعة القطن بنواحي أبى كبير » تراود ذهنه ، وتلح عليه ليكون لكل مصرى من فرص التقدم ما كان له باصراره ، وما كان لعنبر أفندى بحظوته : فما قد أصبح الطفل الشارد مهندسا ومديرا وناظرا فاذا أتيح للمصريين حظ التعليم ، واذا انتشر التعليم بين المصريين ففى ذلك تقدم مصر وتقدم المصريين .

كان هذا إيمانه وأعظم حوافزه فشغل جل اهتمامه ، وتضاءلت الى ما تركه من أثر فى ميدان التعليم - وهو المهندس النابه - كل آثاره فى الميادين الأخرى على جلالها وقيمتها ، وأن بقى يعمل فى ميدان التعليم ، كما عمل فى الميادين الأخرى فى إطار الدولة واستطاع أن يجعل من جهاز الدولة أداة لخدمة حوافزه وأغراضه ،

فينزع التعليم من صورته المظهرية ويحوّله الى أداة مثمرة في تكوين الأمة وتقدمها ورفع مستواها الفكرى والثقافى لتعرف طريقها على خط الحياة ، وعلى هدى المستقبل المنشود ، وحين يتحقق ذلك تكون مصر لأبنائها لا للترك والجركس ، كما قال لمن قصده من الضباط الثائرين .

رجل وعمل :

وهو فى كل هذا يواجه الواقع على ما هو عليه ، وتتجلى قدرته فى التكيف معه ليحول ما فيه من شر أو خير الى نفع اكيد يعود على بلده وعلى أرومته بالخير ، وكانت حاجة الحاكم الى قدراته العديدة سببا فى تعدد مجالات عمله وتنوعها ، فلا نجد رجلا يقترب اسمه فى تاريخ مصر الحديث بالجانب العملى للنهضة والعمران كما يقترب اسم على مبارك فضلا عن انتاجه الفكرى ، ويكفى وحده لأن يدرج اسمه فى سجل الخالدين .

وقد بدأ حياته العملية كما رأينا مع عباس واستطاع أن يتكيف مع ارادته فينقذ تلك البقية من المدارس من شر يحيق بها بحجة كثرة نفقاتها ، فما كان أيسر على عباس من اغلاقها لو زادت نفقاتها على الفضة التى يراها لها ، والتى لا ترهق نزواته الأخرى ، ولعل هذا ما استشفه على مبارك حين جعل ميزانية التعليم خمسة آلاف جنيه بدلا من مائة ألف ، اذ لو كان يعلم أن عباسا يهتم بالتعليم ، أو يلقى اليه بعض العناية لما أنقص ميزانيته الى هذا الحد ، ولا اكتفى بالحد المعقول لضغط الانفاق ، وهو ما غفل عنه لامبير بك ، وزميلاه على ابراهيم وحماد عبد العاطى حين ترددوا فى الموافقة على مشروعه .

ولم يكن له على أيام سعيد دور يذكر ، الا دوره في حملة القرم ، ولكن قدرته على العمل المثمر لا تفارقه فينشئ « اسبتيالية » للجند في كموشخانة لا تكلف الدولة شيئا ويستعين على انشائها بالتبرعات ، وعلى الخدمة فيها بالتطوع . وحين اعتلى اسماعيل العرش تحفزه نزعة جياشة الى التشبه بالغرب ، وحافز قوى لأن يقال عنه ملك متنور يحكم بلادا مستنيرة ، استطاع أن يستغل هذه الحوافز للعمل المثمر الذي ينشده ويرتجيه لتقدم بلاده ، وان وقف عمله عند حدود وظيفته ، فما كان له أن يتعدى تلك الحدود والا حل به غضب الحاكم ، وجرده من القدرة على العمل ، وقد رأيناه مفصولا أو محالا الى التقاعد لا يعمل الا ما تقتضيه أمور معاشه .

لذلك كان كل عمل قام به في خدمة (دولة الحاكم) متسما بالحكمة والمرونة تحكمه - كما قلنا - المنفعة والرغبة في الاصلاح كما تحكمه رغبة الحاكم واراادته ، فقام على تنظيم المدن بما يحقق رغبة الخديو في الرواء الأوربي الذي يبتغيه لحواضر البلاد ومدنها الكبرى لتكون على غرار المدن الأوربية .

ويرى على مبارك أن الحركة في القاهرة قد اتسعت « فكثر عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر فصار غير لائق بها بقاء الحالة القديمة على حالها من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها اذ كان الازدحام بها يترتب عليه النصب والعطب والخطر والضرر ، فصدرت الأوامر الخديوية لديوان الأشغال ونحن به بالنظر في ذلك وأن يعمل له قانون يأتي على المرام » وكانت لجنة تنظيم القاهرة برئاسة محمود الفلكي ، قد انتهت من تخطيطها الجديد ، فاعتمده ونفذ على الصورة التي أصبحت عليها القاهرة من بعده ، « مثل شارع محمد على وميدانه ، وشوارع الأزبكية وميدانها ، وما بعابدين من الشوارع ونحوها ، وباب اللوق ، وغير ذلك مما

هو بداخل المدينة وخارجها « فقامت المباني والعمائر الجديدة ، وامتدت الشوارع الواسعة تحف بها الأشجار المغروسة كما أزيلت التلال التى كانت تمتد من الفجالة الى باب الفتوح ، وحلت مكانها المباني والبساتين وأقيمت « قصور الاسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها » بعد أن سويت أراضيها ومستنقعاتها وتلالها . « ولم يكن بها صالح للزراع ومأهول بالناس الا القليل » وبنى جسر قصر النيل ليصل القاهرة بالجيزة و « لأجل زيادة الأمن والتسهيل على الخاص والعام » وامتدت الشوارع الفسيحة « المنتظمة فى بر الجيزة ، وحفت بالأشجار ، وفرشت بالأحجار الدقيقة المختلطة بالرمل ، لمنع الأتربة وتسهيل المرور الى العمائر والسرايات والبساتين التى تجل عن الوصف » وهو ما قامت على غرار « الشوارع المستجدة بالمدينة وضواحيها » وقامت « شركة من الأفرنج بعمل وابور الماء » ليمد « الأهالى بماء النيل بلا كبير ثمن ولا مشقة » وأنيرت المدينة بغاز « التنوير حتى ذهبت غياهب ظلامها والتحقت لياليتها بأيامها » - ثم يقول - ان هذا كله « غير الأعمال الجسيمة التى أجريت فى جهات القطر مثلما تجدد فى الاسكندرية ... وما تجدد بالسويس من عمل الميناء والحوض والمحافضة وشركة الماء ... وما رسم فى المديریات من الدواوين والجسور والقناطر والترع التى من أعظمها ترعة الابراهيمية ، وترعة الاسماعيلية التى حفرت بالمقاولة » ولعله حين أشار الى أنها « حفرت بالمقاولة » كان يشير دون أن يفصح الى تفكيره عن السخرة ، فقد كانت السخرة نوعا من العبودية ، اذ كان على القرية أن تقدم عددا من ابنائها للعمل مجانا فى المنشآت العامة . وأحيانا فى المنشآت التى تخص الحاكم أو صاحب السلطان .

وما كان لعلى مبارك أن يلغى نظاما قائما أو يقضى على سنة جارية ينتفع منها الحاكم وتنتفع بها دولته ، فما كان من دعاة

الاصلاح الاجتماعى ، وما كان من المطالبين بحقوق الشعب ، ولكنه حين يرى بادرة لرد بعض الحق للناس ، أو لتخليصهم من جور يلم بهم ، لم يكن يتنكبها ، أو يقعد عنها ، فوضع نظاما للعمل فى حفر وتطهير الترعى يقول أنه « وفر تسخير عشرة آلاف شخص عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣) وأدى الى تعديل لائحة العونة (السخرة) ، وهى اللائحة التى يقول أنه « ندب لها جملة من أعيان البلاد والحكام ، وهى المتبعة الآن ، من مقتضاها جعل العونة على كل من له قدرة على العمل مع الترخيص فى التخلص منها بدفع البذل ، فتخلص من العمل ثمانية وخمسون ألف نفس ، وتحصل منها فى السنة نحو ستة وثلاثين ألف جنيه ، وكان كل سنة يزيد » واستعاض عن السخرة فى تطهير رياح البحيرة باقامة « وابورات بقم الخطاطبة وتحسين وابورات المحمودية » لرفع ما يلزم المديرية من مياه الرى ، وكلف احدى الشركات بالقيام بها « فبطلت السخرة - كما يقول - وقل الاحتياج الى التطهير » ويذكر أنه كان يسخر لتطهيره سنويا « نحو عشرين ألف نفس تجمع من سائر مديريات الوجه البحرى ، لقللة أنفاس مديرية البحيرة ، ومع ما فى ذلك من الظلم والاجحاف كان لا يتحصل منه الا على ثمانمائة ألف متر مكعب من الماء فى اليوم واللييلة » .

وكان ديوان الأشغال يستخدم كتائب الجيش لنقل الأحجار اللازمة لصيانة جسور النيل ، فاستعاض عنها بالتعاقد مع المقاولين لتوريد الأحجار اللازمة ، وأعفى الجيش من السخرة ، وحقق وفرا فى النفقة وزيادة فى كمية الأحجار اللازمة .

وبهذه القدرة على التكيف والتكيف استطاع على مبارك أن يوفق بين حاجة الدولة ونظامها وما يقتضيه حبه لبلده وأرومته من خير . وهو نوع من الوطنية يعز على كثير من الناس وان مست

الحاجة اليه عندما يستشرى سلطان الدولة ويعصف بحقوق المواطنين .

وكان عمله فى كل ما تولاه من مناصب يقوم على الدراسة والفكر وامعان النظر الى طاقة هائلة من الجلد والمثابرة تميز بهما منذ صغره . ومكنتاه من أن يقوم بأعمال عديدة فى وقت واحد ، وان يسرت له تلك الأعمال قدرته الفائقة على التنظيم والادارة ، وهى قدرة تقوم فى العادة على ذكاء أصيل وادراك واسع ، فكان العمل الذى يبدو عسيرا معقدا فى يد غيره ، يصبح فى يده سهلا بسيطا ، وكثيرا ما كان يأخذ على يده اتجاهها جديدا يصلح به من خلله القائم ، فحين تولى ادارة السكك الحديدية عام ١٨٦٨ ، أخذ يعالج أمورها على ما يراه كفيلا بتقدمها وقيامها بوظائفها على خير وجه .

وكانت السكك الحديدية شيئا جديدا على مصر ، كما كانت فى بلاد العالم اجمع حينذاك ، ولم يكن قد مد منها فى مصر حتى ولاية اسماعيل سوى ٢٤٥ ميلا تمثل امتداد الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية ، وبعض الخطوط الفرعية الأخرى فى الوجه البحرى ، ولم تكن قد استوفت - كما يقول - المقومات الأساسية لحسن الأداء » فلم يبن من المحطات غير محطتى مصر واسكندرية وأما باقى المحطات فكان فى بعضها أخصاص من خشب وفى بعضها بناء من الطوب النىء والدبش على هيئة غير هندسية . وفى جميع المحطات كان الاقتصاص على رصيف للركاب من غير أن ينظر لراحتهم ووقايتهم من حر الصيف وبرد الشتاء ، ولا الى ما يلزم للمحطات من الفرش وأدوات الجلوس ، بل كانت مجردة من ذلك ، ولا الى حركة الواورات الواردة والصادرة على وجه يجلب منافعها ويدفع مضارها والمحطتان المبنيتان وهما محطة مصر واسكندرية ، وان وجد فيهما بعض من المباني اللازمة لتلقى أمتعة

الركاب وبضائع التجار لكن لم يكن ذلك كافيا ... فكان ما فيها من الأبنية اما غير كاف للبضائع واما غير مستوف لشروط حفظها ... وجميع المستخدمين بالمحطات كالوكلاء والمعاونين ، وجميع خدمة الواحورات والمقطورات والمخازن كانوا بهيئات لا يتميزون بها عن بعضهم وأكثرهم كان من الأجانب الذين لا معرفة لهم بلغة هذه الديار ... فلذا كانت عديمة الأرباح كثيرة الخسارة والمضرات داعية الى النفور » ومع حرص القائمين عليها كانت الخسارة تتزايد عاما بعد عام ، ولقلة الخبرة الفنية « تلف أكثر المهمات والعربات والواحورات » ولم تكن الإيرادات لتفى بنفقات الإصلاح ، ولا ورشة العمليات بكافية للتعمير « اما لنقص بعض العدد والآلات واما لقلة العمال » وكثرة ما يرد اليها لم تعد تتسع لغيرها مما اضطر الادارة لخبزنها في أماكن أخرى وكانت « حرارة الشمس في فصل الصيف تؤثر في خشب العربات فتفصل الواحها عن بعضها وكذلك اهمال دهنها » .

تلك كانت حالة السكك الحديدية كما يصورها على مبارك ، وقد حفا اسماعيل بعنايته بعد توليته - كما يقول - باستكمال ما يلزمها « مما يجلب اليها رغبة الركاب والتجار لعلمه أن إيرادها تابع لقدر الرغبة فيها قلة وكثرة » ثم « قلدني نظارة هذه المصلحة ... فأعملت في ذلك جل أفكارى » ويقول أنه بدأ ببناء المحطات وأولها محطة الاسكندرية « لأنها مجمع المتاجر الواردة والصادرة ، فمتى استوفت لوازمها وسهل الشحن والتفريغ بها وأمن التجار على بضائعهم من التلف أقبل الناس على استعمال السكة الحديد خصوصا اذا قلت الأجرة فيها عن أجرة البحر » فعمل على تيسير ذلك ببناء المخازن وتعبيد الطرق اليها حتى يسهل وصول العربات الى أرصفة الشحن وتقل نفقات « العتالين » .

ويبدو أن تلك الحالة لم تتغير كثيرا عما كانت عليه في أيام

سعيد ، بالرغم من أن اسماعيل قد حفيها بعنايته - كما يقول -
فما أن تولى أمورها بعد خمس سنوات من ولاية اسماعيل حتى
وجد أن « أربعمئة عربية متخربة ... وكان الذى يعمر منها مع
قلته يعمر بمهمات عربيات أخرى ، فكانت عمارة العربية الواحدة
تستوجب تخريب عربتين وأكثر ، وعمارة الوابور الواحد تستلزم
تخريب وابور مثله » وكانت القاطرة تتغير أكثر من مرة فى الطريق
من الاسكندرية الى القاهرة حتى فقد الناس ثقتهم بالسكة
الحديد وعدلوا عنها الى ركوب البحر « فشمرت ساعد الجد
وبذلت غاية الجهد ، وشرعت فى عمل الطريق الجالبة للرجبة
وصيانة المهمات وعمارتها » فأصلح الأرصفة وأقام فوقها المظلات
« والسقائف » وخصص لكل نوع من البضائع رصيفا معيناً وأنشأ
الورش فى الاسكندرية والسويس وكفر الزيات ومحطة مصر
لعمليات التعمير والإصلاح الخفيفة وأحكم نظام المراقبة والحركة
مما حمل « المستخدمين على زيادة الملاحظة وأعمال الأفكار فيما
هو مطلوب منهم فحصل من ذلك نتائج حسنة » حتى « غطت
رجبة التجار فى استعمال السكة الحديد وأنهالت البضائع على
اختلاف أنواعها على جميع المحطات تجارية وزراعية حتى البطيخ
والخيار والأسماك والحجر والدبش والرمل والخطب والسباخ »
وان حال بعد البلاد عن المحطات عن الوفاء برغبة « المزارعين
من نقل محصولاتهم الى الأسواق أو الى بلد أخرى من مراكز
التجارات الريفية » .

ولم يبق على مبارك طويلا فى ادارة السكك الحديدية حتى
ينجز ما يراه كفيلا بتقديمها وان أفصحت المدة القليلة التى تولى
فيها ادارتها عن طريقته وأسلوبه فى العمل سواء فى ادارة مثل هذا
المرفق أو فى ادارة غيره من المرافق الأخرى التى تولاها .

وبقدر ما يفصح عمله عن الاصاله والقدرة بقدر ما يفصح عن

ذكاء شامل ، ونظرة عامة تتكامل فيها الجزئيات ، وتتسق في
اطارها الكليات ، فحين تولى ديوان الأوقاف وكان في الوقت ذاته
مديرا للمدارس ، جعل من كل منهما عونا للآخر ، أو على حد
تعبيره « مساعدة كل منهما للآخر مساعدة كلية ، اذ صار أمر
التعليم في المكاتب ملحوظا بعين المدارس فكاد سيرهما في التعليمات
والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرها سواء ، وتيسر لمن أكملوا
دروسهم الابتدائية في مكاتب الأوقاف والمكاتب الأهلية المنتظمة
دخول المدارس التجهيزية والتدرج منها الى المدارس العالية ،
وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والأهلية كل سنة عدد عديد
كما يؤخذ من تلامذة المدارس الابتدائية الأميرية ، وأحيت المدارس
كثيرا من عقارات الأوقاف المدرسة وانتفعت بها » . وكان بعض
أهل الخير « في الزمن السابق » قد وقفوا شيئا من أموالهم على
التعليم « حسبة لله تعالى » ولكن المتنظرين عليها ، انحرفوا بها
« عن الصراط المستقيم صراط الواقفين الراغبين في الخيرات
وصار ما يسلم من العدم والتخريب يستعمل أكثر في اغراض
أخرى ، والمستعمل في الغرض الأصلي على قلته ولا يستوفي في
سيره شروط الواقف وحد اللازم ، وساء حال التعليم في المكاتب
الحاصلة وقل المعلمون والمتعلمون ، وصار اجتماع الأطفال
والمعلمين بهذه الأماكن قليل النفع بحيث كاد لا يفيدهم الا الضياع
والأمراض الناشئة عن الوساخة والتفريط فحصل رجوع كثير
من هذه العمائر الى أصلها المقصود منها والفائدة الموضوعة لها »
فردها على مبارك الى ادارة ديوان الأوقاف وشملها بإشراف
ديوان المعارف لتقوم برعاية مكاتبها ، تحقيقا لرغبة الواقف
ومنفعة التعليم .

ولا يقف جهد على مبارك عند هذا الحد ، فقد لا يعد هذا
أكثر من تصحيح وضع خاطيء ولكن أصالته تبدو في تنظيمه

لإدارة الأوقاف تنظيماً لم يتناوله التغيير كثيراً من بعده ، إذ أنشأ
مأمورية للأوقاف في كل قسم من أقسام القاهرة يرأسها مهندس
يشرف مع مساعديه من الكتبة والمعاونين والمحصلين على عمائر
الأوقاف وأراضيها في مأموريته ، ويقول أنه « شدد عليهم في
الالتفات إلى ما نيظ بهم بحيث أن من فرط في أمر يجرى عليه
ما يستحقه ، ففتحوا أعينهم ونصحوا في سيرهم خوفاً على
أنفسهم ، فانصلح كثير من الأوقاف وحسنت أحوالها » وأنشأ
إدارة لأوقاف الوجه البحري مركزها طنطا أما أوقاف الوجه
القبلي فإن موظفيها من المأمورين والمهندسين كانوا تابعين للديوان
بأنقاهرة .

كما تبدو أصالته الإدارية في تنظيمه لأعمال الأشغال العمومية
حين تولى نظارتها في وزارة رياض سنة ١٨٧٩ بعد عزل اسماعيل ،
وكان يراها « الأساس الأعظم للثروة » إذ كانت « جميع الأعمال
— كما يقول — ما عدا المقاييسات يجريها المفتشون والمديرون
ونحوهم فيعملون برجال العونة مباني وترعا ومساقى على أغراضهم
الخاصة بلا فائدة عامة حتى كثرت الخلجان وضاعت بسببها
مزارع كثيرة ، وضاعت المصارف التي عليها مدار إصلاح الأرض »
فقسم الديوان إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي : « قسم التحريرات
والمحاسبة ، وقسم التصميمات لما يلزم تجديده من الأعمال ،
ويتبعه فرقة مهندسين لعمل الرسومات والموازن وقسم يختص
بالقاهرة وغيرها من مدن القطر » هذا عدا الأقسام الفرعية وهي
كما يقول : « قلم الزراعة ، وقلم المصلح ، وقلم الانجرارية ، وقلم
القضاء » ثم عاد وقسم الأعمال الهندسية إلى خمسة تفتيش
تتبع وكيل الوزارة ، وعلى كل تفتيش مفتش يشرف عليه ويديره
ويقول : « وانتشر المهندسون في جميع أنحاء القطر لمعاينة ما به
من عيبان وترع وقناطر وغيرها فحرروا الدفاتر بالموجود من ذلك ،

وما يلزم تجديده أو رمه في كل مديرية « وأخذ في التنفيذ مقدما « الأهم على المهم » وجعل التنفيذ على عدة سنوات وفقا لحجم العمل وحاجته من الانفاق .

ويتحدث عما أنجزه من أعمال فيقول : « وجدت جملة من المباني والقناطر النافعة منها بمديرية الشرقية قنطرة الزوامل على الترعة الاسماعيلية ، وقنطرة الشراوية على النيل والبولاقية وقنطرة أشمون وقنطرة كفر الحمام ، وهويسات الاسماعيلية ورصيف العريش وبلغت تكاليف ذلك كله حوالي اثنين وثلاثين ألف جنيه » .

وجعل الاشراف على أعمال الري للمهندسين ، فحددوا مواعيد معينة لفتح القناطر واغلاقها وفقا للحاجة ومنع « ما كان يحصل من الفتح والسد على حسب الأغراض الخاصة » ووضع لائحة لآلات رفع المياه تنظم استعمالها فقد « ترتب على كثرتها حرمان كثير من الأهالي من الانتفاع بمياه تلك الترع ، سيما مع استحواذ أصحاب النفوذ على ترع لوابوراتهم ، اما لسقى زروعهم او لبيع الماء لزراع غيرهم ، وكثر التشكى من ذلك » فانتظم الري - كما يقول - « وبلغ مقدار الماء بمديرية القليوبية في أعظم التحريق نحو ثمانمائة ألف متر مكعب في اليوم والليلة » منها ستمائة ألف متر مكعب من الترع وحدها ، « وفي مديرية الشرقية نحو ثلاثة ملايين ونصف ، وفي الدقهلية نحو أربعة ملايين ، وفي الغربية والمنوفية نحو ثمانية ملايين » وطهرت الترع والخلجان « بطريقة لا تمنع من سقى المزروعات ، بأن منع سد أفواه الترع عند التطهير » والابتداء من نهاية كل ترعة بدلا من أولها ، على مراحل في كل مرحلة يطهر جزء فما يليه حتى البداية ، وحولت ترع الوجه البحرى من النيل الى الصيفى ، فأصبحت الأرض تزرع زراعة صيفية ، وأقيمت الجسور وحفرت الترع في الوجه

القبلى لرى الجزائر وأعالى الحيطان وأصلح نظام الرى بالفيوم بعد أن أفسدته « أحداث الجفلك » وحول إليها ما يلزمها من مياه الإبراهيمية ، فقل بها « استعمال السواقى » وزرع من أرضها خمسة عشر ألف فدان زراعة صيفية ، ولتعويض ما نقص الأرض من طمى النيل فى مديرية المنيا بعد أن تحولت الى ترعة الإبراهيمية ، استغل مياهها - بعد أن كانت قاصرة على رى أراضى الدائرة السنية - ومياه اليوسفى فى « ملء الحيطان » فتمكنت من زراعة ثلاثة آلاف فدان من القصب ولم يكن يزرع فى غير أراضى الدائرة السنية وتمت زراعة الذرة « أضعاف ما كانت عليه » وكانت أعمال المبانى والتنظيم مما يخص وزارة الأشغال فلقبت من اهتمامه هى الأخرى ما لقيته أعمال الرى ويقول : « وأجريت عمارات فى المحافظات والمديريات صرف عليها نحو ٥٠ ألف جنيه ، وصار الابتداء فى بناء سلخانة القاهرة ، واستتالية القصر العينى ومدرسة الطب » واتفق مع شركة المياه على مد حلوان بماء الأنابيب ، كما اتفق مع شركة النور على زيادة « فوانيس الفاز » بالقاهرة ، وزود طريقى الجزيرة والجزيرة بالماء « للرش وسقى الأشجار » وعبد طريق شبرا ، وأقام بنهايته - كما يقول - رصيفا « طوله نحو مائتين وخمسين مترا ، وجدد بالقاهرة ميادين وفساق ، وأنشئت جنينة الانتكخانة ببولاق وبنى بالأسكندرية سراى البوستة » .

واستأنف عمله وجهوده فى وزارة الأشغال ، وقد عين وزيرا لها فى وزارة شريف الرابعة ، بعد الاحتلال ، فمد ترعة الإبراهيمية لرى أراضى بنى سويف ، وتم تطهيرها وتطهير ترعة الاسماعيلية وبحر موسى ، « والشرقاوية والمنصورية ورياح الوسط ورياح المنوفية والغربية » لزيادة حصيلتها من مياه الرى ، واستخدمت الكراكات فى تطهيرها ، فخفت السخرة « عن كاهل الأهالى » .

« والى ذلك الوقت لم يكن بالمديريات محلات كافية لدواوين الإدارة والقضاء والضبط ، ونحو ذلك ، وكان الموجود منها مبنيا بالطوب النيىء أو الدبش على غير نظام ، وكانت الحبوس حواصل مظلمة لا يدخلها النور الا قليلا ، وكان أصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالامتعة وداخلها يختنق بمجرد استنشاق هوائها ... فعمل ديوان الأشغال التصميمات اللازمة وشرع فى بنائها على التدرج فبدأ بديوانى الشرقية والمنوفية ، وكذا لم يكن بالمديريات استباليات داعية الى الصحة ، بل كان بعضها محل ورشة ونحوها ، واكثرها متهدم والسليم منها كمربط البهائم ، فعملت تصميمات لتلك الأعمال على حسب أهمية كل مديرية بالكبر أو الصغر ، وتدرجت الأعمال على السنين ، فعملت استباليات المنصورة والغربية فى تلك السنة ، وكذا الذبح كان فى القضاء وجاريا على غير قانون ومنافع الحكومة منه قليلة ، فبنى مذبح المنصورة والغربية ، وجعلت تلك المباني أنموذجا لما يبنى فى سائر المديريات ، وبنيت جملة شئون للمصالح ووراقولات العساكر ، وغير ذلك مما لا يسع المقام شرحه » .

ويمضى على مبارك فى ذكر ما قام به فى وزارة الأشغال لتوفير مياه الري للزراعة أيام التحريق وعند هبوط الفيضان ، باقامة آلات رفع المياه الى الحد اللازم لثبات كمية المياه اللازمة للزراعة . مهما بلغ هبوط النيل ، « فيتوفر على الناس ما ينفقونه فى سبيل رفع الماء بالسواقي ... ويتمتع الأهالى بالزراعة الصيفية ... وتحويل جميع الترعى النيلية الداخلية الى صيفية بدون اجراء حفر بحيث يتيسر استخدامها للزراعة الصيفية وبالجملة فجلب المياه الى الترعى بواسطة الآلات الرافعة يصير مقدار تصرفها كافيا كافلا لاحتياجات الأراضى ، اذ لا توجد أرض الا وريها مرتب على ترعى نيلية أو صيفية » .

وكان هذا آخر ما قام به على مبارك من جهد في سبيل البلاد ،
اذ كان عمله في وزارة المعارف بعد أن تولاها في وزارة رياض
عام ١٨٨٨ ضئيلا ، فعلى قدر ما عنيت سياسة الاحتلال بالزراعة
والرى ، بقدر ما أهملت التعليم ، فكان عمله في وزارة الأشغال على
عهد الاحتلال أثمر منه في وزارة المعارف وان بقى أبو التعليم حفيا
بالتعليم والمعلمين .

أبو التعليم

لم

يكن معلما ، ولم يعد نفسه ليكون معلما ، وسواء
أعد نفسه ليكون مهندسا أو اختير لهذه الدراسة بين
من اختيروا لها « من نجباء مدرسة أبي زعبل »
فما نعتقد انه كان يختار لنفسه غير هذا فقد

كان - كما يقول - أول فرقته في الهندسة والحساب ،
وكان أستاذه فيهما « ابراهيم بك رافت » يضرب بنجابه المثل ،
وكان هو نفسه يتخذه مثلا على ما يمكن أن يؤديه المعلم النابه
لتلاميذه وكان يقول « وان سوء تعليم المعلمين هو السبب في
تأخر التلامذة » ولكنه كان بطبعه معلما وكان له من تجربته في
مدرسة قصر العيني من الأثر ما ظل عالقا بخاطره حتى قدر له
أن يقوم على التنظيم الجديد للمدارس في عهد عباس ، فكان
ما علق بخاطره من صورة الماضي حافزا له على ما أرادته للتعليم من
اصلاح وهاديا له في تقويم طرقه ووسائله من معاملة التلميذ في
المدرسة الى اعداد المعلم الذي يقوم على تربيته .

وقد رأينا كيف حمله العناء في مدرسة قصر العيني على التفكير
في الهرب ، وهجر الدراسة وكيف عمل بعد أن ولى أمر المدارس
على كف هذا العناء عن التلاميذ ، فكان ما قام به للنهوض بالتعليم
من واقع تجربته الذاتية وهى تجربة عقل مستنير ملهم لا يقدر
عليها الا من كانت له أصالة على مبارك وذكاؤه الفريد وتفكيره الفذ
ونظرته الواقعية الشاملة ، فلم يستلهم الكتب والنظريات قدر
ما استلهم الواقع الملموس ، ولم تفتنه نظم التعليم في الغرب ، وقد

عرفها دون شك خلال بعثته في فرنسا ، الا بقدر ما تتكيف وتتلاءم مع البيئة المصرية وحاجياتها الأساسية فكان نجاحه في ميدان التربية والتعليم وكانت مآثرة حياته التي خلده أكثر مما خلده عمله كمهندس ، وكان بحق أبا التعليم في مصر لا يطاوله حتى اليوم مصلح آخر في هذا الميدان ، على كثرة ما حفل به تاريخ التعليم في مصر من تغيير غلبته النزوة أكثر مما حكمته الأصالة وان لم تعوزه النوايا الطيبة في الحاليين بقدر ما أعوزته أصالة على مبارك وفكره المتسق المبدع ، فحين أخذ غيره بالتقنين الغربي للتعليم وجعل يستوحى النظم والنظريات الغربية على جلالها وأصالتها دون تطويرها بما يلائم البيئة المصرية وحاجياتها الأساسية وقدرتها على الاتساق ، كان على مبارك يطوع هذه النظريات التربوية من واقع تجربته الذاتية لتتلاءم مع البيئة ، وكان يطور النظم الى أقصى حد من البساطة لتصل الخدمات التعليمية الى أقصى ما تستطيع أن تقوم به قدرة الدولة من الانفاق ، وكانت قدرته تتمثل في توجيه الاتفاق الى الخدمات التعليمية ذاتها دون ما يحيط بها من مظاهر وكماليات قد تستوعب أكثر بنود الانفاق ، ففي الوقت الذي عجز فيه لامبيرك وعجز زميلاه على ابراهيم وحمام عبد العاطي عن تصور امكان قيام نظام تعليمي في حدود الميزانية التي أرادها عباس للتعليم ، استطاع هو أن يقيم هذا النظام التعليمي ، وينقذ البقية الباقية من المدارس من مصير ما كان عباس يتورع عنه لو رأى فيه ما يرهق ميزانيته كما قدر على مبارك حين خفضها الى الحد الذي أرضى « عباس » .

وحين زوده العناء الذي لقيه في مراحل تعليمه بالأسلوب الصالح للتعليم فقد زوده ما حققه من نجاح في حياته بالايمان مما يحققه التعليم للمصريين من تقدم ، فكان دأبه على نشر التعليم والخروج به من الاطار الضيق الذي أراده له محمد على الى

الاطار الشعبى الفسيح » ولقد عمل على مبارك - كما يقول نجيب هاشم - أعمالا كثيرة تتصل بتخصصه فى الهندسة من تصميم الشوارع وفتحها . وإنشاء ترع وبناء جسور واستحكامات ومساجد وغير ذلك من أعمال هندسية عظيمة ولكن سر عظمته لم يكن فى ذلك كله ، إنما كان سر عظمته فى شىء لم يتعلمه عن استاذ ذلك هو اصلاحه للتعليم فى مصر بالوسائل المختلفة حتى ليعد عمله فى ذلك دعامة النهضة التعليمية فى مصر .

» لم يتعلم فى مصر ولا فى فرنسا علوم التربية والنفس على أساتذة مختصين ، وإنما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره ، ومن دروس فى التربية الفاسدة تلقاها فى الكتاب حين يضرب ، وفى مدرسة قصر العينى حين يعذب ، ومدرسة أبى زعبل حين يلقي عليه الدرس فلا يفهم هذا الى طبيعة خيرة توحى اليه بالرحمة بالناس والاشفاق عليهم والألم لجهلهم « (١) .

وما قصد على مبارك أن يكون معلما ، وما أعد نفسه للإشراف على شئون التعليم أو ادارته ولكن حين اختاره عباس لإدارة المدارس وتنفيذ المشروع الذى تقدم به ، فقد وافق ذلك هواه ورأى نفسه أقدر على القيام به من غيره فقد كان يعرف حاجة قومه الى التعلم وإن التعليم مرقاتهم الى النهوض والتقدم ، وإذا كانت المدرسة إحدى سبل التعلم فليست فى الحقيقة الا وسيلة للتعليم أما التعلم فهو قرين التربية والتنشئة مما يعسر على المدرسة وحدها ، مالم تتكاتف معها البيئة ويتآلف معها المجتمع حتى يصبح التعلم غاية التعليم ، ويغدو امتصاصا للقيم والسلوك والفكر الرفيع وتقديرا للعقل واعلاء للتفكير العلمى واعدادا للحياة الطيبة

(١) من خطاب الاستاذ نجيب هاشم وزير التربية والتعليم التنفيذى فى حفل ازاحة الستار عن تمثال على مبارك بمدرسة دكرنس الثانوية فى ٨ مايو ١٩٦٠ .

الكريمة لا اكتسابا للمعلومات والمعارف المدرسية فحسب ،
ولن يكف التعلم وحده للتقدم والارتقاء ، بل يجب أن يكون وسيلة
لشحذ العقل وصقله حتى يغدو قادرا على النظرة الصائبة للأشياء
والتقدير السليم للظروف والملابسات القائمة .

ولن تصبح المدرسة أداة للتعلم مالم يعد لها المعلم الصالح ،
ولن تثمر رسالة المدرسة مالم تتواءم مع البيئة وتصدر عنها
فتكون البيئة حافزا للمدرسة على أداء رسالتها وتكون المدرسة
مرقاة البيئة للتقدم ووسيلتها الى التغيير المنشود .

فاذا أعددتنا المدرسة للتبشير برسالة المجتمع ، فان علينا أن
نعد المجتمع للتكيف مع رسالة المدرسة والنهوض بها وحتى يتسنى
لنا ذلك فعلى أن نزود المجتمع بالمدرسة الصالحة .

وكان هذا ما اهتداه على مبارك في نظريته للتعليم والعمل على
اصلاحه ، وكان هو نفسه مثالا رائعا للمعلم القادر حين تصدى
لمحو أمية الجنود ، ولم يستنكر - كما قدمنا - تفاهة هذا العمل
كما رآه أدهم باشا وقال له : « كيف لا أرغب انتهاء فرصة تعليم
أبناء الوطن وبث فوائد العلوم » . ويقوم على تعليمهم بأبسط
ما يملك من وسائل ، لا يذكر أنه كان من قبل ناظرا للمدارس على
عهد عباس أو أنه تقلب في أعمال أعلا من هذا العمل واكبر .

ولكنه لم يكن من الدعاة الذين يتبنون فكرة ويتحمسون في
الدعوة لها بل لعله لم يتصد لحركة أو لرأى معارضا أو مؤيدا ،
ولكنه كان أداة فذة لصقل وتنفيذ الأفكار العليا ، أو بمعنى آخر
الأفكار التي يراها تتواءم مع ارادة الدولة ورغبة الحاكم حين
يكون له سلطة التنفيذ ولم يكن أعظم ما نسب اليه وارتبط بذكره
وهو اصلاح التعليم والنهوض به من تفكيره وحده ، فقد سبقه
اليه ابراهيم أدهم مدير ديوان المدارس في أواخر أيام محمد على

حين تقدم بمشروع مكاتب الملة لنشر التعليم الشعبى وهم بتنفيذه على عهد ابراهيم القصير ، وعاد اليه مع رفاعة الطهطاوى فى أوائل حكم سعيد ، ووضع رفاعة فى الصورة التى تفى على حد تعبيره « بتربية الأهلية وادخال المعارف فى أفراد مراتب الرعية على اختلاف درجاتهم ، والتسوية بين الأعيان والرعاع فى مادة التعليم الأهلى » . ولقيت الفكرة تأييد الأهالى وترحيبهم فما لبثوا أن رفعوا العرائض يشكرون فيها الحكومة على ما انتوته من تعليم « أبنائهم فى هذه المكاتب بالطوع والاختيار والمبيت عند أهاليهم ولا مانع من أخذ الانسان ولده متى أحب واختار » (١) . كما سبق اليه مجلس شورى النواب فى دور انعقاده الأول عام ١٨٦٦ باقتراحه تعميم التعليم بين طبقات الأمة كافة ، فكانت لائحة رجب التى قام على اعدادها ، تنظيما رائعا لهذه الاتجاهات وخطة عملية لتنفيذها .

فليس لعلى مبارك فضل الدعوة الى تعميم التعليم الشعبى ، وان كان دون شك من المؤمنين به ، ولكن الفضل له وحده فى وضع هذه اللائحة ، أو على الأقل فى وضع خطوطها الرئيسية والانتقال بها من حيز الفكر الى حيز العمل فقد أصبح له بحكم منصبه كمدير لديوان المدارس الهيمنة على التعليم والاشراف على تنفيذ اللائحة الجديدة .

وقد نسب اليه بعض مؤرخيه أو جلهم أنه صاحب اليد الطولى على التعليم ، وانه هو الذى أقال عثرته ونهض به من كبوته وعمل على نشره بين كافة ، والواقع انه هو الذى نظم ونفذ فتمثل نظامه التعليمى ارادة عصره .

(١) محفظة ٦ (معية تركى) رقم ١٤٤ من طلعت باشا الى المعية فى ١٣ جمادى الأولى ١٢٧١ مرفقات عربية .

ولا يصح لنا أن نفعل في هذه الدراسة إرادة الحاكم الفرد التي ترجع إليها مصائر الأمور ، هذه الإرادة التي لم تثمر معها حظوة أدهم لدى عباس ، ولا محاولة أدهم ورفاعة بعث مشروع مكاتب الملة وتنفيذه على يد سعيد ، وقد انتهى التعليم على يد عباس تلك النهاية التي عرفنا ولم يكن على يد سعيد خيرا مما كان على يد سلفه ، فلم يبق من المدارس في أواخر أيامه سوى مدرستين : هما المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية ، ومدرسة الطب بالقاهرة ومدرسة ابتدائية وأخرى تجهيزية .

فاذا لقي التعليم خيرا على يد اسماعيل فقد كان ذلك بعض إرادة الحاكم الفرد الذي يمنح ويمنع ، فاذا لقيت هذه الإرادة من يقوم على ما تمنح فيوجهها أحسن توجيه لتثمر على يديه أحسن الثمر فليس الفضل لإرادة الحاكم الفرد وحدها ، وليس الفضل لمن يقوم على تنفيذها وحده ، وقد لا يرى التاريخ لأيهما فضلا إلا بقدر ما يثمر اجتماع إرادتهما من عمل وما يترك من أثر تاريخي .

وقد أبدى اسماعيل اهتماما بالتعليم لم يكن لسلفيه ، وكان إلى حد ما متباينا مع اهتمام جده ، فحين أراد جده بافتتاح المدارس أن يغذى جهازه الإداري والفني بحاجته من الرجال القادرين ، لم يكن اسماعيل يبغى أكثر من أن يضفي على دولته بهاء الدول المتقدمة حتى يقال عنه حاكم عصرى متمدين ، إلا أن الزمن كان غير الزمن ، وكانت التربية غير التربية ، فحيث وقف المصريون في حذر من هذه النظم الجديدة التي طالعهم بها محمد على غدوا أكثر تمرسا بها من بعده وحيث وقفوا في وجل من امتداد الموجة الغربية إلى بلادهم لم يعودوا ، بعد ستين سنة من جلاء الفرنسيين عنها يتهيبونها ، فقد نفضت مصر عزلتها وأخذت تتصل بالغرب اتصالا لينا لم تبد فيه بعد مظاهر العنف الذي

انتهى اليه في أواخر عهد اسماعيل ، وكانت الطبقة المصرية الصميمة قد بدأت تتكون وأخذت تسفر عن ذاتها في أول اجتماع لمجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ حيث قام « أتربى بك أبو العز » أحد نواب الغربية يقترح تعميم التعليم الشعبى بإنشاء مدرسة ابتدائية في كل مديرية ولقى الاقتراح تأييد النواب مما حمل اسماعيل - كما نعتقد - الى وقف أطيان تفتيش الوادى على المدارس ، وأعلن شريف باشا باسم الحكومة هذا الأمر على النواب .

وكان اسماعيل منذ توليته قد أخذ في احياء المدارس القديمة وإنشاء غيرها على غير سياسة مرسومة حتى كان اقتراح أتربى أبو العز فكان بداية التفكير في وضع سياسة مرسومة للتعليم هى التى قام بها على مبارك وهى التى قرنت اسمه بالنهضة التعليمية واستحق من أجلها أن يلقب « بأبى التعليم » .

فلم يكن على مبارك اذن رائد هذه النهضة التعليمية التى تنسب اليه ولم يكن من الداعين اليها ، وانما هو الذى قام بصنعها ووضع خطتها واضطلع بتنفيذها في أحسن صورة وعلى أكمل وجه حتى غدا صاحب اليد الطولى على نهضة التعليم فما كان لارادة اسماعيل ولا لمطالب النواب أن تثمر هذه النهضة مالم يكن وراءها عقل مبدع خلاق هو عقل على مبارك ، وما كان لعلى مبارك أن ينشئ هذا النظام التعليمى مالم تدفعه ارادة الدولة واتجاه العصر ، فبالرغم مما كان يملك من قدرة على الخلق والابداع والعمل المثمر ، ما كان يستطيع أن يعمل في الميدان العام الا في اطار الدولة ، ولعله لم يكن يؤمن بقدرة الجماهير على الانشاء والتغيير ما دامت لا تملك السلطة القادرة المنفذة وما دامت ارادتها معلقة بارادة الفرد ، الحاكم الذى يملك وحده السلطة القادرة عليها . ولقد رأى ما كان من عباس وما كان من سعيد من نظرة

ذاتية يحكمان بها على الأشياء وينفذان منها ما يوافق هواهما ، ولعله كان يرى أن اسماعيل بدوره لا يصدر الا عن هذه النظرة الذاتية للحاكم المستبد ، وما دامت الأمور معلقة بإرادة الحاكم فان كل تغيير لا يتم الا بإرادته ، فاذا جاءت ارادة الحاكم متفقة مع ارادة عصره ، ولو من قبيل الزهو ، فان قدرة رجل الدولة أن يستثمر زهو الحاكم في عمل نافع يعود على الدولة أو على الأمة بالخير ويزدهى به الحاكم في الوقت ذاته .

وجاء عمل على مبارك في الميدان التعليمي متفقاً مع ارادة الحاكم الذي أخذ باحياء المدارس القديمة وارادة العصر التي بدت في الموافقة الاجتماعية على اقتراح « أتربي أبو العز » وأكثر من هذا واهم منه أنه جاء متفقاً مع نظرتة الى التعليم ، فالتعليم كما يراه للشعب وليس لسد حاجة الدولة من الاداريين والفنيين ، ولن يصلح التعليم مالم تصلح المدرسة ويصلح المعلم ، ولن يثمر مالم يتكيف مع البيئة وتكون البيئة ذاتها حقلاً صالحاً لتقبل التعليم والحفاوة به ، بأن تكون على درجة من المعرفة والثقافة تحملها على تقديره والايمان به ، فلم تقف جهوده عند انشاء المدارس وتنظيمها بل عدتها الى الاهتمام بالمعلم واعداده بانشاء دار العلوم والاهتمام برفع المستوى البيئي للثقافة والمعرفة بانشاء دار الكتب وقاعة للمحاضرات العامة .

لائحة رجب ١٢٨٤ :

لم يكن على مبارك غريباً على التعليم حين اضطلع بأموره وصدرت الارادة الخديوية بتعيين « صاحب العزة المهندس على مبارك بك وكيلا عاما لديوان المدارس ، لملاحظة المكاتب الأميرية والأهلية الموجودة في مصر والبنادر وفي الأقاليم والاهتمام باصلاحها

ونظامها ، والاعتناء بحسن ادارتها » (١) فقد قام عليه من قبل على عهد عباس كما عرفنا ، ولا نقول أن خبرته بالتعليم هي التي حملته وحدها على التقدم بمشروعه لاصلاح التعليم ولكن اهتمامه الحقيقي بنشر التعليم بين أبناء الأمة هو الذى حمله على اقتحام هذا الميدان البعيد عن فنه وتخصصه ، فما أن أثار مجلس شورى النواب موضوع نشر التعليم الابتدائى حتى أعد مشروعا بتنظيمه اذ « كانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف - كما يقول - جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتمه منهم ، ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط عامة فى المكاتب المذكورة ، فاستحسننا اجراءها على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظيمها ، وترتيبها على الوجه الذى هى عليه ودعوت الى النظر فى هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والأعيان النبهاء فنظروا فيه واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه وصدر الأمر الخديوى بالاجراء على حسبه » وأن كان من الثابت - وأن أغفل ذكره - أن مجلس شورى النواب قد سبقه اليه كما سبقه أيضا - أدهم ورفاعة ، فلما تقدم بمشروعه كان مما نظره القومسيون المشكل لدراسة قرار مجلس شورى النواب أيضا ، مما يشير اليه الأمر الصادر الى نظارة الداخلية بضمها الى ديوان المدارس بأن « مقتضى ارادتنا أعمال جمعية بطرفكم للنظر فى شأن المكاتب المذكورة وترتيبها وتنظيمها وسائر ما يلزم اجراؤه فى هذا الشأن مما يستلزم انتظام أولئك المكاتب تحت مراقبة مستحسنة وتبع ادارتهم لديوان المدارس مع النظر أيضا فى المدارس اللازم تأسيسها

(١) تقويم النيل ٢ . ج ٢ ص ٧٢٢ .

بجهات الأقاليم كنص القرار (١) وما يترأى للجمعية المذكورة في هذا . وهذا يتقدم العرض عنه لدينا بصدور أمرنا هذا لكم بذلك ، ومرفوق طيه كشوفات تعداد مكاتب المحرسة المحكى عنهم عدد ٣ ثم ورسالة قدمها على مبارك بك تتعلق بهذا الخصوص حتى بعد معلومية حقيقة تلك الكشوفات والوقوف على حقيقة مقادير المكاتب التى بثغر اسكندرية وعقد الجمعية المحكى عنها والمداولة فيما سلف الذكر عنه مع ما تحتوى عليه الرسالة السالف ذكرها مما ينحط عليه الرأى تعرضوا لدينا تفصيله حسبما تعلق به ارادتنا « (٢) .

وأصبح على القومسيون المشكل أن يدرس المشروعين معا .
وصدر القرار بتعيينه وكيلًا لديوان المدارس في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ ، وأصبح لرأيه المكان الأعلى في مناقشات القومسيون ، فاقترح أن يضم اليه بعض الأعيان ليستهدى برأيهم في موضوع يتصل أشد الاتصال بحياة الناس ، ويكتمل له بهم نوع من التأييد الشعبى يراه لازما ما دام يبنى فرض رسوم على التعليم ودعوة الناس للتبرع له . وفى ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٧) شكل ديوان المدارس برياسته ، وفى ٦ محرم ١٢٨٥ (٢٩ أبريل ١٨٦٨) صدر قرار القومسيون (بتنظيم المدارس والمكاتب الأهلية بالديار المصرية) وهو القرار المعروف بلائحة رجب ١٢٨٤ . واضطلع على مبارك بالتنفيذ .

وتشمل اللائحة مقدمة وخاتمة وأربعين مادة فى ثلاثة أقسام ، ويتضمن القسم الأول . . المواد المتعلقة « بمكاتب المدن

(١) المقصود قرار مجلس شورى النواب رقم ٢٦ شعبان سنة ١٢٨٣ بهذا

الخصوص .

(٢) أمر كريم صادر للداخلية بتاريخ ١٧ محرم ١٢٨٤ هـ : تقويم النيل

م ٢ ج ٣ ص ٧٠٠ .

الكبيرة » ، كما يتضمن القسم الثانى « تنظيم المكاتب الأولية بالقرى والبنادر » ، وأما القسم الثالث فيتناول « تنظيم المدارس المركزية التى تنشأ فى مراكز المديریات » .

وتحدد المقدمة مصادر الانفاق على التعليم ، فالمدارس والمكاتب القديمة من طرف أهل الخير على التعليمات - سواء كانت بالمحروسة أو بغيرها من البنادر تكون على ريع الوقف الذى له إيراد ، فإذا كان الوقف عديم الإيراد وكانت فى محلات لها موقع عظيم وشهرة ورغبة فى اجتماع التلاميذ بها ، فإن عمارتها تكون من الاحسانات الخديوية وأن ما يستدعى الحال لتجديده بقرى الأرياف من المكاتب الابتدائية فتكون تكاليف بنائه وتعميره على طرف القرى والنواحي المنشأ فيها وكذلك المدارس الأهلية التى بمنزلة التجهيزية المتجددة فى مراكز المديریات فتكون تكاليف بنائها على طرف الجهة التابعة لها ، هذا ما يخص البناء ، وأما ما يخص المفروشات . . والأدوات كلها فى مكاتب القرى ومدارس ومراكز المديریات فيكون على طرف أهالى التلاميذ وأما أشخاص مكاتب القرى الذين هم عبارة عن المؤدبين والعرفاء فيترتب لهم من طرف أهالى المتعلمين شيئاً على قدر معاشهم بدون اتكالهم على الأشياء الهينة كالأخمسة التى لا تقوم بمعاشهم (١) . وأما أشخاص المدارس المركزية فيكونون على طرف الميرى ، بخلاف

(١) يرجع تاريخ المكتب الى عهد بعيد ، فهو المدرسة الأولى على ما نظن فى تاريخ البشرية حيث يجتمع الأطفال الى معلم يتلقون عليه تعليمهم الأول ، وكان المكتب أو الكتاب وسيلة التعليم الوحيدة طوال العهد العثمانى فى مصر ، ومنها ما كان على وقف خیرى ومنها الخاص الذى يديره فقيه يناديه الأطفال بلقب « سيدنا » ويتقاضى سيدنا عن تعليم الأطفال جعلاً من الحبوب أو الاطعمة الجافة أو المال يؤدى له كل يوم خميس فعرفت بالخميس وجمعها على مبارك على خمسة .

المأكولات والمشروبات والأدوات تكون على طرف أهالى المتعلمين وتحتم اللائحة أن تكون « جميع المدارس والمكاتب سواء بالقرى أو البنادر تحت أصول تنظيمية وترتيبات حسنة منتخبة وامتحانات سنوية وملاحظات وتفتيشات من طرف الحكومة ، وهذا لتحسين حالهم واستقبالهم ومنفعتهم الخصوصية العائدة اليهم مع المنفعة العمومية على الحكومة من تهذيب رعاياها واصلاح حالهم ووجود التعاون بينهم ، ومعاونتهم لأوطانهم » .

وأباححت اللائحة هبات الأهالى للتعليم و « كل من تبرع بشيء للاعانة على ذلك فهو مقبول » على « أن يجرى حصره فى دفتر بالمديرية والمحافضة ، ويتقدم هذا الدفتر لعموم .. المدارس » . وقد أحصيت المكاتب فى المحروسة وبولاق ومصر القديمة فبلغ عددها ٢٢٢ مكتبا منها الكبير وعددها ثمانية ، ويقرب عدد الأولاد فى الواحد منها من المائة ، ومنها « الوسط والصغير الذى يختلف عدد أطفالهم (١) من خمسة أولاد الى أربعين أو خمسين » وهى اما وقف ونظارتها تابعة للميرى ، أو انها وقف ونظارتها تابعة لغير الميرى ، وأما اهلية لا وقف لها ولا تخرج المكاتب الأخرى فى المدن الكبيرة والثغور « عن الثلاثة الأنواع السابقة » الا أن منها ما هو خرب مستعمل ، أو صالح مهجور أو ملائم للصحة أو لا يتفق مع الشروط الصحية ، فقررت اللائحة أن تكون جميعا على نمط يتفق والشروط الصحية ، فألفت ما كان منها « فى دكان أو حاصل أو يماثل ذلك وتكون مضرّة بالصحة » على أن ينقل أطفالها الى المكاتب الأخرى تبعا لرغبة أهاليهم .

ويتعلم الاطفال فى المكاتب الكبيرة التى يزيد عدد تلاميذها على السبعين الخط والحساب مع تطبيقه على التجارة والصرف

(١) هكذا فى الأصل .

والتاريخ والجغرافيا ، ولغة أجنبية وبعض الكتب الأدبية ، أما المكاتب الصغيرة فيكتفى فيها بتعليم القرآن الكريم والكتابة والقراءة « ومن الحساب باب العدية » وللتلميذ الحق في الانتقال من مكتب صغير الى مكتب كبير بغير امتحان ، فاذا كان يريد الالتحاق بمدرسة أميرية فعليه أن يجتاز امتحانا لذلك .

وأما « الكتب اللازمة لتعليم الأطفال فهي كتاب القرآن الشريف وكتاب ألف باء ، وكتاب آداب وكتاب حساب وهندسة وكتاب جغرافيا وتاريخ وتطبع جميعا على طرف الميرى ، وتصرف من ديوان المدارس حسب اللزوم ، وتعطى لمن يلزم لهم من الأطفال بالثمن ، وتحصل أثمانها بمعرفة المؤدبين لخزانة ديوان المدارس » .

وتنص اللائحة على انشاء « أربع مدارس مركزية في بنادر المديرية البحرية بالتدرج حسب الامكان : الأولى بطنطا لزوم مديرية الروضة والبحيرة ، والثانية ببندر الزقازيق للشرقية وللبلاد القريبة للزقازيق من القليوبية والدقهلية ، والثالثة ببندر المنصورة لزوم الدقهلية والبلاد المجاورة من الروضة والشرقية ، والرابعة بالجيزة لزوم مديرية الجيزة وما جاورها من القليوبية والروضة » وهذا عدا ما هو قائم منها في الأسكندرية والقاهرة ، كما تنشأ أربع مدارس في بنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا من الوجه القبلى .

ويقوم الأهالى بتكاليف بناء هذه المدارس وتزويدها بالأدوات في مديرياتهم أما « مفروشات محل نوم التلامذة وأدوات تعليمهم ومأكلهم وملابسهم فانها تحصل من الهدايا الخيرية ، من أطيان الوقف الخيرية الخديوية ومن ريع الأوقاف الأيالة لمدارس المديرية ... فاذا لم يف ما ذكر لتكميل المصروفات فالباقى يجرى تأديته من أهالى المديرية كل منها بالنسبة للتلامذة الواردة منها » .

ويتراوح عدد تلاميذ المدرسة ما بين مائتين الى ثلثمائة ،
يقيمون بالقسم الداخلى ويسمح لعدد من التلاميذ فى حدود ٢٠٪
بالالتحاق بالمدرسة ، زيادة على العدد المقرر على أن يكونوا «برسم
خارجية » أى لا يقيموا بالقسم الداخلى .

وبرنامج الدراسة فى المدارس المركزية ، وفقا لما رسمته
اللائحة هو :

أولاً - اللغة العربية من نحو وصرف ومطالعة وانشاء وعقائد
التوحيد وواجبات القيادة والأدب .

ثانياً - لغة افرنكية تركية أو غيرها بقراءة كتبها المختصرة .

ثالثاً - مبادئ جغرافيا وتاريخ .

رابعاً - اصول الحساب وتطبيقه على التجارة ومبادئ
الهندسة وتطبيقها على المساحة .

خامساً - نبذة فيما يتعلق بالحيوانات والنباتات الأهلية ومقدمة
لفن الزراعة .

سادساً - تعليم الخط والثلث والنسخ والرقعة والرسم .

وتقوم لجنة بديوان المدارس باختيار الكتب المقررة مما هو
موجود أو ما يرى تأليفه .

وحددت اللائحة الزى المدرسى لتلاميذ المدارس المركزية « فمن المعلوم
أن حسن نظام المدرسة يقتضى أن يكون تلامذتها على هيئة واحدة

مخصصة بها ، فلهذا استحسن أن يكون (١) جميع المدارس
المركزية على نسق واحد بطقم مخصوص « (٢) .

والخاتمة تعريف بأغراض التعليم وتوجيه للمعلمين ، تتمثل
فيها روح على مبارك وطريقته في التعليم ، وكأنه علم من أعلام التربية
الحديثة ، ولم تكن غير تجربة حياته التي هدته الى وسائل التربية
الصحيحة ، كما هدته الى الغرض الحقيقي من التعليم ، فالتربية
كما هدته اليها فطرته وكما يعرفها في الخاتمة هي « اكتساب
الأدب وحسن السلوك » والغرض من التعليم هو « حصول أبناء
هذا القطر على ما يوجب اصلاح شأنهم وشأن أهاليهم ليفوزالوطن
بشجرة التقدم لأبنائه جميعا . . . واتساع دائرة المعارف » ويرشد
المعلمين الى الطريقة الواجبة لتحقيق ذلك فيقول أن عليهم « أن
يبدلوا غاية جهدهم في تلقين ما يلزم اكتسابه في المدارس والمكاتب
الاولية للأطفال بالطرق البسيطة الحسنة الموافقة لحدثة سنهم ،
بحيث لا يستعملون في تربيتهم الا ما تقوى به حواسهم وقواهم

(١) يلاحظ ما في النص الاصلى من اخطاء لغوية مما يعطى صورة من تطور
كتابة الدواوين .

(٢) وحتى تتكون لدينا صورة عن تطور الزي المدرسى والازياء عامة ننقل
فيما يلى ما قررته اللائحة لكل تلميذ :

عدد	عدد
٢ طربوش	٢ قميص
١ زر حرير	٢ لباس
٣ طقية	٣ صديري غزلية او غيرها
١ كبود للشتاء على سنتين	٣ جلابية ملونة شكل واحد
٢ مركوب حزمة بلدى	مسدودة الصدر بياقة
١ سبتة حزام من جلد	٤ شراب ابيض
بأبزيم او كمر	٣ دكك

العقلية ، ويتجنبون في التربية الأمور المورثة لشراسة الأخلاق مثل السب والضرب ، وما أشبهه مما يوجب الجفاوة ، وأن يعاملوا الأطفال معاملة الأبناء لأنهم عوض عن آبائهم ، فبناء على ذلك ينبغي من الآن فصاعدا للمؤدبين أن يقتصروا في التأديب على النصائح الحسنة للأولاد .. وتفهمهم عواقب الأخلاق الحسنة ونتائجها العائدة عليهم بالاصلاح ليتعودوا عليها من زمن طفولتهم مع ملاحظة أطوارهم وحركاتهم في داخل المكاتب ، فبهذا لا يحصل وقوع الأطفال فيما لا ينبغي ، ولا يحتاج الحال الى سب ولا ضرب كالسابق . وعند ترتيب المكاتب وادارتها على الوجه المشروع أعلاه يصير تنظيم لوايح من ديوان المدارس متعلقة بتهديب الأخلاق والاجراءات اللازمة لذلك ليصير اتباعها حرفا بحرف في هذه المكاتب . وبحسن التعليم والتربية واتباع اللوائح الخصوصية تتهدب أبناء الوطن وتحسن أحوال الأهالي المصرية .

وغدت اللائحة دستور التعليم في السنوات التالية لا يطرا على اجراءاتها تغيير يذكر ولا يعنى هذا أنها جمعت فأوعت ، أو أنها كانت مخططا للأجيال القادمة فإنها في الواقع قد لمست الأساس في نواح كثيرة ، وأصلحت القائم حتى تنهيا البلاد لخطوة أكثر تقدما ، إلا أن الاضطراب المالى والسياسى فى أواخر عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق قد عاق خطى التقدم ، ثم كان الاحتلال البريطانى فاخترط للتعليم خطة مؤسسية لم تتخلص البلاد من وقرها إلا بعد أن خفت يده عن كاهلها .

ولم يمر على صدور اللائحة غير نيف وعشر سنوات حتى بدت الحاجة الى خطوة أكثر تقدما للنهوض بالتعليم اذ رفع على باشا ابراهيم ناظر المعارف فى وزارة رياض الأولى عام ١٨٧٩ ، مذكرة الى مجلس النظر حدد فيها جوانب النقص فى نظام التعليم واقترح الوسائل لتنفيذها ، وشكل قومسيون المعارف لدراستها

في مايو ١٨٨٠ فوضع تقريراً مفصلاً لاصلاح التعليم والنهوض به ، نستطيع ان نعهده استكمالا لنواحي النقص في لائحة رجب وتطويرا للأساس الذي قامت عليه مما يتلاءم والتطور السريع للبلاد في تلك الفترة وكان مما أشار به انشاء مجلس أعلى للمعارف يكون ناظر المعارف مسئولاً عن تنفيذ مقترحاته ، وفي مارس ١٨٨١ صدر المرسوم بانشاءه من أربعة وعشرين عضواً منهم على مبارك ناظر الأشغال حينذاك والشيخ محمد عبده ، محرر الوقائع المصرية . وجاء الاحتلال البريطاني فلم تر توصيات القومسيون النور وان بقي تقريره أساساً لكل دراسة لاصلاح التعليم فيما بعد .

دار العلوم :

لم تعرض لائحة رجب لاعداد المعلمين ، وان نصت على أن يكون تعيينهم « بمعرفة ديوان المدارس ، وتعطى لهم شهادة من الديوان المذكور ، وهذا يكون باتحاد الديوان المذكور مع من يلزم من العلماء وعمد الجهة » (١) . ويعنى هذا الا يعين الديوان معلماً ما لم يوافق على تعيينه اهل الرأي في بلده ، ممن « يكون حسن الأخلاق والصفات وفيه اهلية لتعليم القرآن الشريف كما ينبغي ، وأن يكون له معرفة بأمور الدين القويم وأن يحسن الخط ويحسن باب العديّة من الحساب » (٢) . وتعود اللائحة فتؤكد أن « يحسن - أي المؤيد - تجويد القرآن والخط وله معرفة بأمور الدين ، وأن يكون بيده شهادة تدل على رضا اهل القرية عنه ، وأن يكون محكوماً في هذه الشهادة بلياقته للتعليم على هذا الوجه من اعيان الناحية وأهل العلم الموجودين بها

(١) البند السادس عشر من اللائحة .
(٢) البند السابع عشر من اللائحة .

الا أن على مبارك كان يحس حاجة المدارس الى المعلمين الصالحين فرأى « أن يصطفى عددا من طلبة المدارس المتقدمين أولى المقدرة فيخصص لكل منهم مائتان وخمسون قرشا . . فيستخدموا مساعدين للمدرسي المدارس ليكتسبوا قدرة على تدريس الرسم واللغات الأجنبية بالمدارس الملكية والأهلية ، ولكيلا يتأخروا عن دروسهم يجب أن يمتحنوا آخر السنة فيجعل القادرون منهم على تدريس العلوم التي مر ذكرها معلمين ويخصص لهم المرتب المقرر لوظيفة التدريس في تلك المدارس » (٢) .

ولا يختلف هذا الاجراء عما كان متبعاً من قبل ، الا أنه لم يواجه المشكلة ، وبقيت الحاجة الى المعلمين المؤهلين قائمة ، ولم تجد الكتائب الأهلية العدد الكافي من المؤدبين الذين يعرفون « باب العدة من الحساب » مما شغله وأهمه فنراه يقول « وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم أمعنت النظر في هذا الأمر المهم واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب في العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدارس بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب

(٢) من مدير المدارس الى مهردار الخديو في ٢٧ شوال ١٢٨٥ - محفظة ٤٤

(مجلسی ترکی) ۲۰۸

أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهري يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ورتب لهم طعام في النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ والعلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ويجعل منهم معلمون في المكاتب الأهلية بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك ، فلما أشيع هذا الأمر وأعلن حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام في هذا السلك فاختر منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب ، وساروا في التحصيل فحصلوا واثمروا ذلك المسعى وخرج منهم معلمون في القاهرة وغيرها وحصل النفع بهم ولهم ، وأما المعلمون في غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالهندسخانة والمحاسبة والادارة بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل على حسب استعداده .

تلك هي رواية على مبارك عن انشاء دار العلوم ، المعهد العتيق الذي زود المدارس بصفوة من معلمى العربية أكثر من نصف قرن ، وما زال قائما يحمل الرسالة ككلية من كليات جامعة القاهرة ، وان كنا نود لو بقى محتفظا بشخصيته كمعهد لدراسة متخصصة يستمد طلبته من المعاهد الأزهرية فيكون موثلا للعربية ودراساتها المتشعبة على درجة أعلا من التخصص ويبقى منارا للعربية في العالم العربى ، فلم تعد به حاجة الى اعداد معلم العربية ما دام يقوم بها غيره من معاهد المعلمين . فقد كان لهذا المعهد من الفضل على العربية وآدابها ما يفوق الرسالة التى قام من أجلها وتخطى حدودها بما خلف الأعلام الذين تخرجوا بين جدرانها من آثار يزدان بها الأدب العربى .

وقد بدأت الفكرة باتشاء قاعة للمحاضرات الصامة تلحق

بالكتبخانة الخديوية وتتولى الأوقاف الانفاق عليها وعرفت باسم « مدرسة الكتبخانة » أو « محل التدريس » أو « دار العلوم » (١) أو « المدرج » أو « الانقتياتر » (٢) . واختير لها عدد من الأساتذة يحاضرون في الأدب والتفسير والحديث والفقه والفلك والطبيعة والعمارة والسكك الحديدية والتاريخ والنبات . ويؤمها كل من شاء دون قيد أو شرط « من جميع أجناس الناس من أهل الوطن وغيرهم على أى هيئة أو صفة كانوا » .

ويبدو من طابعها أنها كانت لنشر الثقافة العامة ولعلها بعض ما كان ينشده على مبارك لتزويد الناس بالمعرفة وحثهم على التعلم ، فقد كان مما ينشده ، رفع المستوى البيئى للثقافة والمعرفة كما قلنا ، جريا على سنته في نشر التعليم والمعرفة بين الناس حتى تخصب التربة للتعليم ويقوم بناؤه التعليمى على أساس من حب المعرفة .

ورأى ديوان المدارس أن يفيد من محاضرات العلوم العربية والشرعية فى اعداد معلمى اللغة العربية للمكاتب الأهلية ، فقرر أن يلحق عشرة من طلاب الأزهر ممن تتراوح أسنانهم بين الثلاثين والأربعين ، للاستماع إليها بجانب دراستهم الأصلية فى الأزهر ، فكانت تلك هى البداية فى انشاء دار العلوم .

وما ان انقضى عام حتى اخذ ديوان المدارس يعين هؤلاء الطلاب معلمين للغة العربية والقرآن فى المكاتب الأهلية ، ولكنه لاحظ « أن المشتغلين الآن بوظيفة التعليم فى اللغة العربية والتركية ليس

(١) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر : مصر اسماعيل ص ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٢) الرافعى : مصر اسماعيل ج ١ ص ٢٤٧ .

فيهم الكفاية بالنسبة لذلك « (١) . فاقترح اعداد دراسة خاصة « في دار العلوم المحقة بالكتبخانة العامرة » يختار لها « خمسين من نجباء الطلبة من سن العشرين الى الثلاثين يؤخذون بالامتحان ممن يرغبون لذلك ، ويوجد فيهم الأهلية واللياقة ويدرس لهم في دار العلوم ما يلزم لتكميل معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم وحسن التربية على الوجه المطلوب والأسلوب المرغوب ويحضرون جميع الدروس التي تلقى اليهم ويربط لكل منهم مدة اقامته تحت التعليم مائة غرش شهري من ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الاوقاف » فاذا عين أحدهم « بعد تمام تعليمه وظهور براعته بالامتحان تربط له الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التي ينتخب اليها فان بهذه الوسطة يمكن الاستحصال على ما فيه الكفاية من المعلمين . . وبذلك يتقدم ويستقيم أمر العلم والتعليم » (٢) .

ولقى الاقتراح قبولا وصدر الأمر في ٢ اغسطس ١٨٧٢ بتنفيذه على الصورة التي تقدم بها على مبارك وأعلنت في الوقائع المصرية حتى يتقدم الى ديوان المكاتب الأهلية كل من يرى نفسه أهلا لذلك على « أن يكون حائظا للقرآن الشريف ومتن الفية بن مالك في النحو وأن يكون قد حضر في النحو لغاية شرح بن عقيل » اذا كان ممن يختارون اللغة العربية ، فاذا اختار اللغة التركية فان عليه أن يكون « عارفا بها حسن النطق بالعربية أيضا قادرا على التكلم والتفهم بها » .

ووجد أقسم اللغة العربية كفايته من طلاب الأزهر ، أما قسم

(١) من ديوان المدارس الى المية السنية في ٢٤ ج ٢٧ تحريريات : تقويم النيل ٢ ج ٣ ص ١٠١٦

(٢) من الوثيقة السابقة . . ٢٣٢ ج ٢٧ رتبة سنية في دار العلوم

اللغة التركية فلم يجد حاجته ممن تتوافر فيهم الشروط المطلوبة ، ومضت دار العلوم في اعداد معلمى اللغة العربية للمدارس حتى وقتنا هذا ، وتواترت عليها ظروف واحوال لم تغير من طابعها الذى عرفت به وعرف عنها حتى أصبحت كلية جامعية تتبع جامعة القاهرة .

الكتبخانة الخديوية (دار الكتب ١٨٧٠) :

ومن مآثره الباقية انشاء دار الكتب ، فقد كان ينشد التعليم للتعليم لينتفع الناس وينتفعوا على حد قوله ، ويعمل - كما قلنا - على رفع المستوى البيئى للثقافة ، فلا يقف جهده عند انشاء المدارس وتعميم التعليم الاولى ، بل يتعداه الى تيسير وسائل المعرفة للراغبين فيها ، فليس هناك ما هو « أنفع له - أى للوطن - وأجلب للخير والبركة اليه من تعليم ابنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم ، حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدا واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن أن يصل اليه من الفبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خبراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم ، وهذا لا يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية ، فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره ، لأنه لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا يعرف الطرق الموصلة اليها » (١) .

اذن فقد كان يؤمن بأن التعليم مراقبة الوطن الى النهوض والتقدم وليست المدرسة وحدها سبيل التعليم ، فقد اعدت لتعليم الناشئة وما الكبار ، فى أمة حرمت طويلا من وسائل التعليم بأقل حاجة الى التعليم من الصغار ، ولتعليم الكبار وسائل تختلف عن

(١) من مقدمة علم الدين ص ٧٠.

وسائل تعليم الصغار ، عليه أن يزودهم بها ويسرّها لهم ، وأنه ليرى لهذا « الوطن العزيز » ديناً عليه « فقد نشأت في ظله وتقلبت في مهده وتربيت في حجر كفالتة ، حتى صرت من ابنائه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيراً بكثير من خيراته وثمراته ، ولا أزال متنعماً بطيباته ، فأجدني وإن استوفيت الجهد وقضيت العمر في خدمته ، لم أقم بعشر معشّار ما على من واجباته وحقوقه » (١) .

وعلى كثرة ما أداه من خدمات لهذا « الوطن العزيز » لا يذكر منها « إلا استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التسمية والتعليم ونشر الكتب المفيدة أما بالاشتغال في تأليفها بنفسى ، أو الحث والتحريض عليها لن أرى فيه أهلية القيام بها » .

فإذا كان قد استكثر من المكاتب والمدارس لتعليم الناشئة ، فقد أنشأ دار الكتب لنفع « الخاص والعام » (٢) ، وألحق بها قاعة للمحاضرات العامة « لكل من أراد أن يحضر من جميع أجناس الناس من أهل الوطن وغيرهم على أى هيئة أو صفة كانوا » وأصدر مجلة « روضة المدارس » لأحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، ولم يكتف بذلك بل ولج ميدان الكتابة والتأليف ابتغاء خدمة « الوطن العزيز » — كما يقول — بنشر العلم والمعرفة .

وبدأت الخطوة الأولى في إنشاء دار الكتب — كما يروى على مبارك — باختييار « محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز » — وهى السراى التى نقل إليها المدارس كما نقل إليها ديوانى الأشغال والأوقاف ، حين كان يقوم بها جميعاً — وكانت « محلاً متسعاً يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم »

(١) من مقدمة علم الدين ص ٧ .

(٢) الخط ج ٢ ص ١٤ .

وكانت الفكرة في انشائها أن تكون « دار كتب جامعة عامة يرجع اليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما في مدارس البلاد الأجنبية » .

ويرد الرافعي تلك الخطوة « الى عهد محمد علي فقد أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة في بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسيني ، ولما ولي اسماعيل الحكم أضاف اليها نحو ألفي مجلد من المحفوظات العربية والفارسية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المنسترلي ، ثم تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب » (١) .

الا أن تفكير علي مبارك — كما نرى — كان يتجه الى انشاء مكتبة « جامعة عامة يرجع اليها المعلمون للاستعانة على التعليم » واختار لها « محلا بجوار المدارس » ثم يقول « وقد كان الخديوي اسماعيل يرغب في انشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة في الجهات الميرية ، وجهات الأوقاف في المساجد ونحوها ، وأمرني بالنظر في ذلك ، فوصفت له المحل الذي أنشئ فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء ، فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام ، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة فجمعت من كل جهة وجعل لها ناظر وخدمة ، وترتب لها معير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية وآخر لمباشرة الكتب التركية ، ونظمت لها لائحة صار نشرها يؤذن باباحة الانتفاع بها للطالبين وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها فجاءت بحمد الله من أنفع الانشاءات وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب اذ تخلصت بها الكتب من أيدي الضياع وتطرق الأطماع ، فانها كانت تحت نظار أكثرهم يجهلون قيمتها ولا يحسنون التصرف فيها ، ولا يقومون بواجباتها ، بل أهملوها وتركوها فسطت عليها عوارض متنوعة أتلقت كثيرا منها حتى صار السالم من الضياع مخروما بعضه باكل الأرض ،

(١) عصر اسماعيل : ج ١ ص ٢٤٦ .

وبعضه بأكل الأرضة ، وزاد أن تصرفوا في أجودها بالبيع للأغراب
بشمن بخس وحرموا الأهلين من الانتفاع بها ، وبعضهم يحجرون
عليه فلا يتمكن أحد من النظر إليه فتخلصت من ذلك فضلا عن
صونها من هذه العوارض ونظافتها ونظافة أماكنها وحسن ترتيبها
كل فن على حدة ، وجعل بها محل للاطلاع على الكتب والمطالعة
والمراجعة فيها والنسخ والنقل فيها ورتب فيه ما يلزم للكتابة
من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من
ذلك متى شاء ، وأمكن الاطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين والعلماء
والمتقدمين ومشاهير الخطاطين كابن مقلة وغيره مما كان يسمع به
الإنسان ولا يراه ، أو لا يسمع به ، وأخذ بعد انشائها وافتتاحها
في تكميل الناقص من الكتب وتجديد شراء كل ما يستحسن وأمكن
تحصيله مما ليس موجودا بها من الكتب ومشى على هذه الطريقة
كل من رضيها ورأى اتمام الفائدة بها ممن تولوا على نظارة المدارس
والأوقاف بين مكث ومقل .

وبهذا يرد على مبارك فكرة انشاء دار الكتب الى اسماعيل ،
وأما ما فكر فيه فلا يعدو انشاء مكتبة عامة للمدارس ، حتى رغب
اسماعيل « في انشاء كتبخانة عمومية » الا أنه يروى في مكان
آخر (١) ما يفهم منه أنه صاحب الفكرة ومبدعها اذ يقول « ثم ظهر لى
أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية أضاهى بها كتبخانة
مدينة باريز فاستأذنت الخديو اسماعيل باشا في ذلك ، فأذن لى
فشرعت في بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (٢) وبعد فراغها
جمعت فيها ما تشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف زيادة

(١) الخطط ج ٢ ص ١٤ - أما ما قبل ذلك فمن سيرته التى رواها في الجزء
التاسع ، وكل ما اقتبسناه على لسانه فمن هذه السيرة كما أشرنا من قبل .

(٢) أى بسرأى مصطفى فاضل التى أصبحت مقرا للمدارس بعد نقلها من
العباسية .

على ما صار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها . . . «
مما حمل الرافعى على الجزم بأن « صاحب الفكرة في هذا المشروع
الجليل هو على باشا مبارك ذاته » (١) .

ويبدو أن اللبس جاء من الخلط بين فكرة انشاء « كتبخانه »
وبناء كتبخانه « تضاهى كتبخانه مدينة باريز » ، فقد فكر على
مبارك في انشاء مكتبة « جامعة عامة » للمدارس واختار لها محلا
بجوار المدارس يزيد على حاجة المدارس من الكتب والأدوات ،
ولعله فكر في أن تكون « كتبخانه عمومية » ولكنه كان يخاف
الاسراف ، ويخشى أن يعوق مشروعاته ، فیلجأ الى تنفيذها في
اضيق حدود الانفاق ، فلما رأى اتجاه الخديو الى انشائها ، وأنشئت
في المكان الذي اختاره لمكتبة المدارس ، تقدم باقتراح بنـاء
« كتبخانه خديوية اضاهى بها كتبخانه باريز » . وكان له ما أراد
من بناء دار الكتب وأصبحت مآثرة من مآثره الباقية .

والى جوارها قام « الانفتياتر » أو قاعة المحاضرات « التى
غدت نواة لمدرسة دار العلوم — كما قلنا « تنتظم فيها المحاضرات
في شتى المعارف يستمع اليها كل من رغب أو أراد ، ويلقيها صفوة
من العلماء وأساتذة البعوث ممن تلقوا علومهم بالخارج ، فكان الشيخ
حسين المرصفي يحاضر في الأدب العربى ، واسماعيل بك (باشا)
الفلكى في الفلك ، ومنصور افندى أحمد في الطبيعيات ، وفرانس بك
(باشا) كبير مهندسى الأوقاف في المباني ، وجيجون بك ناظر الفنون
والصنائع (٢) في الميكانيكا ، وبروكش بك ناظر مدرسة اللسان
المصرى القديم في التاريخ ، والشيخ عبد الرحمن البجراوى في فقه

(١) عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) وهى التى تحولت الى مدرسة الهندسة التطبيقية عام ١٩٣٧ ثم أصبحت
كلية الهندسة بجامعة عين شمس ، وكان لها فضل كبير في تخريج صفوة من
المهندسين الفنيين .

الإمام أبى حنيفة ، والشيخ أحمد المرصفي في التفسير والحديث ، وأحمد بك ندا في النبات ، ومسيو فيدال في السكك الحديدية وغيرهم ممن يذكرهم أمين باشا سامي في كتابه « ، التعليم في مصر » .

وكان نشر التعليم بغيته - كما يبدو من كل أعماله - وكان هو نفسه ثمرة من ثمار التعليم يعرف تماما أننا « قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من أحوال الكمال وصلنا إليها ، ولم تكن نشأنا عليها فترتب علينا أن نربي غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك (١) فلم يترك وسيلة لنشره الا قام بها ، فاذا كانت المحاضرة وسيلة من وسائله ، فان الورقة او الصحيفة وسيلة أخرى ، وانها لو وسيلة أوسع انتشارا ، واذا كان قد أعد « الانفتياتر » للمحاضرات العامة فقد أصدر عام ١٨٧٠ مجلة « روضة المدارس » للنهضة باللغة العربية واحياء الأدب العربي ونشر المعارف الحديثة . ورأى أن يعهد بها الى رفاعة الطهطاوي فان « رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار اليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان » (٢) .

وكانت روضة المدارس طوال حياتها التي امتدت ثمان سنوات مجمعا للفكر والعلم والأدب والفن تلمع على صفحاتها اقلام الأعلام في ذلك العصر الذي بدأ يفور بشتى الاتجاهات ويورى بالحركة وينفعل بالتغيير .

اتجاهات جديدة :

ترك أبو التعليم لمساته البارزة على صفحة التعليم والثقافة في عصره ، وما زالت لمساته بارزة حتى وقتنا هذا ، لا فيما خلفه من

(١) علم الدين : المقدمة ص ٦ .

(٢) رفاعة الطهطاوي للمؤلف ص ١٢٣ .

منشآت ثقافية باقية كدار الكتب ، ودار العلوم ، ولا فيما تركه من مؤلفات وكتب ما زال بعضها مرجعا لكل باحث في تاريخ مصر كالخطط التوفيقية ، ولكن فيما تركه من اتجاهات تخطيطية وتربوية وفنية ما زلنا في حاجة الى استيعابها والافادة منها بل نحن في أشد الحاجة الى ادراك مراميها وأهدافها حتى نفيد منها في نهضتنا التعليمية الحاضرة وفي اتاحة فرص التعليم لكل مواطن على أساس من مبدأ تكافؤ الفرص في مجتمع ينشد العدالة والتقدم .

كان على مبارك يؤمن بالتعليم ، وبأثر التعليم في نهضة الشعوب وارتقاء الأمم ، وكان يحث عليه ويعمل على نشره ، ويرى أن تحرر المصريين لا يتم بدونه ، والتحرر كما كان يراه المصريون حينذاك هو التحرر من الطغيان التركي وسيطرة الأتراك على أجهزة الحكم ومراكز السلطة في الدولة ، فإذا كان للأتراك من عصبية الحاكم ما يسندهم ويقومهم ، فلن يشاركهم المصريون في التقدم واحتلال مناصب الحكم مالم يشعر الحاكم بحاجته اليهم ، واقد رأى كيف ارتقى به التعليم الى ما صار اليه ، وكيف احتاجه الحاكم ولم يستغن عنه في أية مرة ينزعه فيها من مناصبه ويحيله الى التقاعد ، فيعود اليه ملتصقا بكفاءته وخبرته ، وهو ما أراد أن يعيه من قصده من شـباب الضباط المصريين حين جاءوا اليه ناقلين من استعلاء الضباط الأتراك مهددين بالثورة ، فقص عليهم حكايته وكيف أصبح ناظرا وقال لهم : « هذا مكسب كبير لنا ، فإذا صبرنا فسنحل محل هؤلاء الشراكسة » ، فلم ينس على مبارك مصريته كما نسيها اسماعيل صديق ومصطفى رياض ، ولم يستغل على مواطنيه بل جعل من نفسه قدوة لهم وعنوانا لآمالهم ، واثقا ان المصريين سيجلون الأتراك عن الحكم بقدرتهم وكفاءتهم ولن يكتسبوا القدرة والكفاءة مالم يتعلموا فانهم « أقرب الناس الى الإصلاح

وأسرعهم تقدما في سبيل الفلاح اذا وجدوا حاملا على ذلك « (١)
والحامل على ذلك هو التعليم .

فاذا كان قد اتخذ من نشر التعليم ورعايته غاية حياته ، وهو
المهندس الذي ظهرت براعته في كل ما قام به من أعمال هندسية ،
وارتقى في سلكها الى أعظم المناصب ، فلأنه هو نفسه كان بذرة
أينعت في تربة التعليم ، وعليه أن يلقي ببذور مصر الناشئة الى
هذه التربة الخصبة .

ولكن كيف يتسنى له أن ييسر التعليم للناس وأمره للدولة ،
وهي التي اذا شاءت تقبض يدها عنه أو تسخ عليه ، وعلى قدر
ما تمنح وتسخر ، على قدر ما ينتشر ، وقد قبضت الدولة يدها
عنه أيام عباس وأيام سعيد ، وكانت له مع عباس تجربة ، استطاع
بها أن يبقى على الذبالة مضيئة ، فلما جاء سعيد أقصاه عن التعليم
فكاد يدركه البوار حتى لحقه اسماعيل فنفخ فيها حتى صارت
وهجا وحين اقترح أعضاء مجلس شورى النواب تعميم التعليم
الأولى ولقى الاقتراح تأييد الحكومة ، وجد على مبارك فرصته
المرجاة لتنفيذ الاتجاهات التعليمية والتربوية التي ينشدها ، فعمل
على أن يكون التعليم شعبيا ، تعليما بقصد التعليم لا لأعداد موظفي
الدولة ، وعمل على أن يمتد اشراف الدولة الى المكاتب الأهلية
لينتظم حالها ويرقى مستواها ويحظى أطفالها برعاية مسئولة ، وفي
اطار هذا الاشراف احتفظ لها بشخصيتها واستقلالها المحليين
فكل « مصاريف المكاتب الموجودة بالقرى والبلدان بجهات المديريات
من مباني وخلافه ومن أدوات تعليم ومرتبات المؤدبين تكون جميعها
من طرف الأهالي بمعنى أن كل قرية تقوم على حداثها بمصرف
المكتب الموجود بها ، فأما بناء المكتب وترميمه طبق الرسم المحكى

(١) نخبة الفكر ص ١٧٥ .

عنه يكون من طرف القرية ما لم يتبرع ببناؤه أحد من أهالي الخير وكذلك مرتبات المؤدبين وصرافات زفة الفائقين للأقران وتشويق المؤدبين آخر كل سنة فانها تكون أيضا على طرف القرية .
وأما أدوات التعليم كمصحف أو كتاب مطبوع للتعليم أو ألواح ومحابر فهذا كله يكون مصرفه على طرف أهالي الأولاد ان كان لهم أهالي . وأما الأيتام فما يلزم لهم يكون على القرية « (١) » .

ويؤدي هذا الاشراف الى خلق نمط للتعليم القومي يقوم على الاتساق والتشابه . كما يؤدي قيام المدن والقرى ببعض نواحي الانفاق الى الارتفاع بالتعليم الى مستوى المسئولية القومية فيغدو واجبا شعبيا اكثر منه واجبا حكوميا . فلا يتأثر بشح الأمير أو سخائه ، ويتسع الى ابعد مما تطيقه ميزانية الدولة وينتشر انتشارا مضاعفا لا يصل اليه اذا قامت الدولة وحدها بنفقاته .

ولم يكتف بذلك بل عمل على أن يشارك القادرون في نفقات تعليم أبنائهم كل على قدر ما يستطيع ، فمنهم من يقوم بمبيت أبنائه وماكلهم ومشربهم ، ومنهم من يقوم بمبيتهم فتستبعد نفقات مقروشاتهم ومنهم من تقوم الدولة عنه بكل هذا .

ثم نراه يأخذ مما نعرفه اليوم باللامركزية ، ولكنها لا مركزية (معدولة) تقوم على أساس من مركزية الاشراف والتوجيه ، ولا مركزية الادارة والميزانية ، فالعرفاء والمعلمون أبناء مديرياتهم والميزانية على طرف المديرية والأهالي ، بل أن المنشآت والأبنية المدرسية على نفقة الأهالي ، ولكن عليهم أن يلتزموا بالمواصفات والرسوم التي يضعها ديوان المدارس .

(١) البند الثامن والعشرون من لائحة رجب ١٢٨٤ .

هذا عدا ما اشرنا اليه من اتجاهات تربوية تحسن معاملة التلميذ وتمنع القسوة وتحرم الشتائم وتبين الملكات والمواهب وتنميها فضلا عن اعداد المعلم الصالح وتزويده بالخلق الكريم والمعرفة اللازمة . فكانت ثورة في التعليم رضى عنها اتم الرضى وحقق بها بعض ما كان ينشده للتعليم ، فما نطن الا انه كان يود لو رأى جميع اهل مصر وقد نالوا قسطهم منه .

والمعلم

لم

يكن رائد حركة للتعليم فحسب ، بل كان هو نفسه معلما ، استشف تجربته في التربية من واقع حياته ومن إيمانه بأن المعلم الصالح ينشئ جيلا صالحا ويبني أمة ناهضة ، وليست المدرسة وحدها موئل التعليم .

وليس المعلم وحده من يحترف التعليم ويفشى المدرسة ملقنا للتلاميذ ما تفرضه البرامج المدرسية من صنوف المعرفة ، فكل مكان أو محفل أو ندوة تهدي الناس نوعا من المعرفة موئل للتعليم ، وكل من أهدي قومه أو أهدي الناس عامة - محدثا أو كاتباً - نوعا من المعرفة أو شيئا من الحكمة أو فكرة طريفة . أو بين لهم الرشد من الغي ، والهدى من الضلال والحق من الباطل ، والشمين من الفث ، والصحيح من الزائف والصواب من الخطأ فهو معلم .

وكان على مبارك من هذا الطراز يتلمس كافة السبل لتعليم الناس ما هم في حاجة إليه لا يستنكف أن يكون معلما للهجاء ، وقد قام زمنا بتعليمه للجنود ، وقال في ذلك : كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن ، وقال : كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه ، ولا يعجم عليه أن يلقي القول في محفل العلماء مليئا بالمعرفة والحكمة فاذا هو في القمة بين البحاا والأعلام ، وما زلنا إلى اليوم نستهدي كتبه ومؤلفاته ما تحوجنا معرفته أو الامام به ، ولو لم يكن له غير « الخطط التوفيقية » لكفته وحدها خلودا بين المؤرخين . ولو لم يكن له غير « علم الدين » لكفاه وحده ليجد مكانا له بين المفكرين . ومع ذلك لم يترك بابا من أبواب

المعرفة الا وكان له فيه ركن ، وكان له فيه أثر من المعارف المدرسية ، الى المعارف العامة ، فالمعرفة التخصصية ، فمن الهندسة المدنية والعسكرية ، الى العلوم والرياضيات ، ومن الجغرافية الى التاريخ ومن خواص الاعداد الى المكايل والأوزان ، ومن علوم الدين الى علم الأخلاق والاجتماع . بل وعلم التغذية وما يتصل بها من معارف طبية ، فقد كان الرجل موسوعيا ، يختزن قلمه أو تختزن ذاكرته كل ما يقرأ ، يسوقه أحيانا على حاله ، أو يطبعه بفكره تحملاه حقيقة ما الى فكرة ثم تسوقه أخرى الى تقيضها . وان بقيت مثله واخلاقياته كما هي لا تتغير ، بل لعل الفكرة وتقيضها في منطق المعرفة ، لم تكن لتجور أبدا على المثل والأخلاقيات في منطق الشخصى .

فإنما يعثر على حقيقة فيدونها ، اذا به يأتى بنقيضها وكأنها تؤيدها ، أو يأتى بهذا النقيض وكأنه لا يذكر أنه جاء بضده من قبل ، أو يكرر ما ذكره من قبل بالفاظه وحروفه ، وكأنه يكتبه لأول مرة ، وتسوقه هذه المعرفة الموسوعية أحيانا الى ذكر معارف أقديمة وأخرى حديثة في موضوع واحد فيبدو ناقلا أكثر منه باحثا وكأنه لا ينكر القديم ولا يرجح الحديث ، ولا عوار عليه ولا تشريب فأن المعرفة الموسوعية كثيرا ما تحمل صاحبها دون أن يدري الى الاستطراد ، وكأنه في بستان اختلطت فيه الأزاهير فلا يدري أيها يقطف . وامتزج فيه العطر فلا يميز رائحة منها على الأخرى وان كان لا يعجم عليه نفحها ، ولكنه يقطف ما شاء له القطاف ، وينشق ما حلا له العبير ، فما كان يعنيه الا أن يعلم الناس ما تعلم ، فان أخذوا بعضه وأهملوا البعض الآخر فهو خير ، وان أخذوه كله فهو كل الخير .

كان يكتب للناس كل ما يراهم في حاجة اليه ، لا يضمن بعلمه على أحد ولا يمنعه عن راغب ، بل انه ليغرى الناس به ، فيقول في مقدمة « علم الدين » انه رأى « النفوس كثيرا ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد

تعرض عنها في كثير من الأحيان لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال ، وفي أوقات عدم خلو البال ، فحداني هذا أيام نظارتى لديوان المعارف الى عمل كتاب أضمه كثيرا من الفوائد في أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ، ويرغب فيها رغبته في ما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عفوا بلا عناء حرصا على نعيم الفائدة وبث المنفعة .

ويرى هذا واجبا لأمة نال فيها من العلم غايته ، وبرز فيه فصار لزاما عليه - وقد أصبح له من الأمر في الدولة ، ومن القدرة على الكتابة - أن يفي « بالجميل على قدر الامكان » فيعمل على نشر التعليم ، ويقوم هو نفسه بالكتابة والتأليف ، فيما يرى حاجة الناس اليه من ألوان المعارف والعلوم ، فيقول ان كل « خير حصلنا عليه في هذه الحياة ألزمنا أنفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالجميل على قدر الامكان ، وهل جزاء الاحسان الا الاحسان . مثلا نحن تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من أحوال الكمال وصلنا اليها ، ولم تكن نشأنا عليها فترتب علينا أن نربي غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا . ومن أعظم ما نرى أنفسنا مدينين له مطالبين من جهته مغمورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن الجليل الذي نشأنا به وعشنا فوق أرضه وتحت سمائه ، ونعشنا بهوائه ، وروينا بمائه ، واغتنينا بنباته وحيوانه ، وانتفعنا بسائر أجزائه وهو في كل آن يمدنا ويفيدنا ، ويعطينا ويزيدنا ، كما كان صنيعه مع آبائنا وأجدادنا السابقين . وكذلك يكون شأنه مع ابنائنا وأحفادنا اللاحقين ، فلزمنا أن نقدره حق قدره ، ونأتي على آخر جهدنا واستطاعتنا في منفعته وخيره ، ولا شيء أنفع له وأجلب للخير والبركة اليه من تعليم ابنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم ، حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدا واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن أن يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم

وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم وهذا لا يكون الا بالعلم
والمعرفة وحسن التربية .

لقد أدرك نعمة التعليم عليه وفضله فيما وصل اليه في وطنه
« حتى صرت من أبنائه المعدودين ورجاله المعروفين » وعليه أن
يفي بدينه اليه ، وأن كان على يقين من أنه وأن استوفى الجهد وقضى
العمر في خدمته « لم أقم بعشر معشار ما على من واجباته » . وكأنه
كان يريد لكل مواطن أن يكون « على مبارك » آخر . فلا يكتفى
بافتتاح المدارس أو اعداد المعلم الصالح ، أو تيسير وسائل الثقافة
للكافة ، بل يلج ميدان التأليف ليزجى الى الناس علمه ومعرفته ،
ويدلى اليهم برأيه وفكره ، فكانت أكثر كتبه مدرسية كتبت
للمدارس ، أو للمبتدئين في دراسة العلوم الهندسية ، أو لنشر
البسائط العلمية التي يحتاجها الناس في حياتهم ، أما القليل منها
فهى الأثر الخالد لجهد العلمى .

فمن كتبه المدرسية بترتيب ظهورها :

١ - تقريب الهندسة :

وقد وضعه « لاستعمال العسكرية المصرية » وطبع لأول مرة
على مطبعة الحجر ببولاق فى أوائل عام ١٢٨٠ ، ثم نشرته مطبعة
وادى النيل سنة ١٢٩٨ . وفى الأمر الصادر بطبعه الى نظارة المالية
ما يفيد أن على بك مبارك المهندس العسكرى قد ألفه « لتسهيل
وتقريب فن الهندسة لأذهان المبتدئين » ، وحيث أنه فى الواقع
مؤلف مختصر مفيد فى فن الهندسة ، فبناء عليه قد اقتضت
ارادتى طبع خمسمائة نسخة منه فى مطبعة الحجر التى بمطبعة
بولاق ، وحيث أن الكتاب المذكور سيرسل اليكم ، فبناء عليه يجب
اجراء تصليح وتصحيح عباراته بمعرفة صالح مجدى افندى مترجم
الكتب العسكرية ونحب أيضا المبادرة بطبع النسخ المار ذكرها

وارسالتها الى هذا الجانب لتوزيعها على ضباط العساكر ، وقد
حررنا لكم هذا لاتباعه « (١) .

٢ - حقائق الأخبار في أوصاف البحار :

ونشره تباعا في مجلة روضة المدارس ثم جمعت فصوله وطبعت
بمطبعة وادي النيل بالموسكى سنة ١٢٨٧ هـ ويقع في احدى
وثمانين صفحة من القطع المتوسط . يقول أنها خلاصة « مؤلف
جليل في علم البحار » .

وليس هذا الكتاب مدرسيا بالمعنى المعروف ، بل هو أقرب
الى الكتب الثقافية منه الى الكتب المدرسية ، وان اتخذ الطابع
المدرسى البسيط ليكون سهل التناول ، فيتحدث عن البحار
بأنواعها وتركيب مياهها وخلجانها وتياراتها ومدىها وجزرها وكثبانها
وشواطئها الى غير ذلك مما يتصل بعلوم البحار .

٣ - خواص الأعداد :

وطبع بمطبعة المدارس الملكية بدرب الجمايز عام ١٢٨٩ هـ
في مائة وأربع صفحات من القطع المتوسط ، ويتناول الخواص المميزة
للأعداد ، وبعض ما يتصل بالرياضيات وما سماه بالجدول الوقى ،
وكان موضع عناية قدماء المصريين ومن أخذ عنهم كفيثاغورس
- كما يقول - وقد سموها كذلك « لنسبتهم لها الى السبعة
الكواكب » .

ويجمع هذا الكتاب بدوره بين السمتين المدرسية والثقافية .

(١) تقويم النيل : ج ٢ م ١ ص ٢٦٤ - ارادة لناظر المالية راغب باشا

في ١٩ جمادى الآخر ١٢٧٧ هـ .

٤ - تنوير الأفهام في تغذى الأجسام :

وطبع هو الآخر بمطبعة المدارس الملكية عام ١٢٨٩ هـ فى سبعين صفحة من القطع المتوسط ويبحث فى التغذية الصحيحة ، وقد أعادت مطبعة الجمهور طبعه بعد ذلك بعشرين عاما .

٥ - تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين :

فى أربعمئة وثمان عشرة صفحة من القطع المتوسط ، طبع مطبعة المدارس الملكية سنة ١٨٩٠ ، ويبحث فى ألوان شتى من العلوم الهندسية كالمساحة والخطوط الحديدية ، والقناطر والأحجام والمسطحات والمبانى والمقاييس ، وغير ذلك مما يحتاجه البادىء فى دراسة الهندسة .

٦ - حروف الهجاء والتمرين على القراءة :

وطبع بمطبعة وادى النيل العربية والأفريقية بباب الشعرية سنة ١٢٩٧ فى جزئين من القطع الصغير - الأول فى ست وتسعين صفحة ، والثانى فى مائة وستين صفحة وهو كتاب مدرسى وضعه لتعليم المبتدئين القراءة والكتابة .

٧ - الميزان فى الأقيسة والمكايل والموازين :

طبع بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ فى ست وتسعين صفحة من القطع المتوسط وفيه رد الأقيسة والأوزان الى أصولها المصرية القديمة .

وفى ما عدا هذه الكتب التى تتسم بالطابع المدرسى سواء منها ما وضع للمدارس خاصة أو نشر تعميما لنوع من الثقافة أو المعرفة التى رأى حاجة الناس إليها فى مجتمع ينتقل من القديم الى

الحديث ، كتب رسالة في شرح الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » كما عمل على ترجمة كتاب « المستشرق الفرنسي (سيدو) » - خلاصة تاريخ العرب - فأمر - كما يقول في مقدمة الكتاب - وهو ناظر على ديوان المعارف سنة ١٢٨٥ هـ ، بترجمته ، وقام بالترجمة « محمد أفندي بن أحمد عبد الرازق » ثم يقول : « وتخلت عن نظارة الديوان فوقف الطبع . وحفظت الترجمة في الكتبخانة الخديوية ثم عدت الى نظارة الديوان سنة ١٣٠٥ فوجدت به أبوابا لم تترجم وأخرى لم تستوف حقها في الترجمة ، فترجمنا ذلك وصححنا الكتاب ، وقابلناه على الأصل كلمة كلمة ، ثم كلفنا به العالم النحرير الشيخ عبد الرحمن ابن العلامة المرحوم الشيخ السيد الشرقاوى الشرشيمى المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ وأمرناه بأن ينشئه انشاء عربيا فصيحاً ، فأخذ ينشئ ويقرأ علينا ما كتبه بخطه ، ثم صححنا أسماء البقاع والرجال . وقابلناها على أصلها الأفرنجى وسميناه (خلاصة تاريخ العرب) فجاء بحمد الله كتابا مبارك الطالع ترتاح له المسامع ، كما أن شمس النجاح عليه طوالع ، لم يدع كبيرة ولا صغيرة من تاريخ العرب إلا أحصاها ، ولا شاردة من شوارد فضلهم إلا ردها لأهلها وكشف القناع عن محياها ، مع النزاهة عن وصمة العيب ، والتبرئة عن مثل ما يأتى به الكثير من المؤرخين رجما بالغيب ، ورجائى به أن يكون لأبناء الشرق وعلى الخصوص المصريين ، دليلا مرشدا ، يروى لهم محاسن آبائهم الأولين حديث محمد ، لا يزال مدى الأيام مخلدا ..

وطبع الكتاب في مطبعة مصطفى محمد بخوش قديم سنة ١٣٠٩ هـ .

ومن أبداع ما كتب كتابه « نخبة الفكر في تدبير نيل مصر » نشر عام ١٢٩٨ هـ ، وطبع في مطبعة وادى النيل في مائتين وست وتسعين صفحة من القطع المتوسط تناول في مقدمته - كما يقول - « تاريخ

الديار المصرية وتقلبات الحوادث بها من مبدأ تاريخها الى وقتنا هذا
وبيان ارتباط سعدھا وشقائھا بتدبير مياه النيل » . أما الباب
الأول فعن « النيل وما يتعلق به من المسائل » والباب الثانى عن
« تكوين وادى النيل » والباب الثالث « فى أهالى القطر المصرى »
وأما الباب الرابع فعما تم من « الاصلاحات » . ويختم الكتاب
بجدول يبين زيادة النيل وتقصانه من عام ٢٠ هـ حتى عام ١٢٩٧ هـ
وسماه « جدول النيل السعيد » .

والكتاب دراسة أصيلة مليئة بالمعارف والأفكار التى لا تبلى
على مر السنين فيقول مثلاً عن بلاد المسلمين أنها : « بلغت ذروة
مجدها وغاية سعادتها وعزها عندما كان السلاطين والعلماء كلاهما
من أهل المعرفة ، يراقب بعضهم بعضاً ويخشى بعضهم بعضاً . ثم
رجعت بلاد المسلمين القهقرى عندما تغلب على الحكم فيها أهل
(الخشونة والجهل) فوقع المحكومون تحت تصرف الأهواء ،
وتنازع الأغراض ، فوقفوا فى السير ، ثم تقهقروا حتى تدهوروا » ،
ويقول : « ان أهل مصر كغيرهم من الأمم الأوربية فى قبولهم للصلاح
والتقويم والاصلاح اذا سار فيهم حكامهم سيرة الاستقامة والعدل » .
وفيه نظرات صائبة تحمل على التأمل والتفكير اذ يعيب على خلفاء
محمد على اهمالهم التعليم الزراعى ويعده تقصيراً يأسف له . فان
اعظم ما يعنى به فى بلد - الزراعة مصدر ثروته كمصر - هو الاكثار
من المدارس الزراعية ومن مراكز التجارب لتطوير الزراعة وتحسينها ،
ولعلنا نقف عند نقده للنظام الزراعى القائم متأملين ، اذ يرى أن
هذا النظام الزراعى اقلد أدى الى بوار الصناعة والتجارة ، باهماله
زراعة الغلات الصناعية كالكتان أو غرس المراعى لتربية الماشية .

ولم يكن على مبارك فى كل ما كتب معلماً يهذى الى الناس الوانا
من العلوم والمعارف فحسب ، بل كان مربياً ، ينقد ويوجه وينصح
ويرشد الناس الى الخير من أمرهم ، وكان مصرياً لم ينس مصريته

فنراه يذكر بمجدها وحضارتها فيقول مثلا : ان فيثاغورس وجماعته قد أخذوا عن المصريين (١) وان الأقيسة والأوزان الرومانية مأخوذة عن مثيلاتها المصرية أصلا (٢) وان المصريين « أقرب الناس الى الإصلاح وأسرعهم تقدما في سبيل العلاج اذا وجدوا حاملا على ذلك » (٣) .

فحبه لمصر هو الذى حمل حماسه الى نشر التعليم ، وحبه لمصر هو الذى حمله على الكتابة والتأليف معلما وهاديا ومرشدا ، فالتعليم وليس غيره مرقاة الأمة الى النهوض والكمال .

وتحت هذا الحافز كتب « علم الدين » وبنفس الحافز أيضا كتب أروع آثاره « الخطط التوفيقية » .

علم الدين :

وفيه تتجلى روح المعلم وطبيعته وأهدافه ، المعلم الذى يغذى الناس بالمعرفة والمعلم الذى يهدى الناس الى الصلاح وينمى فيهم القدرة على النضج والاكتمال .

فعلم الدين موسوعة ضخمة حوت كثيرا من المعارف وكثيرا من الحكم ، تقع فى أربعة أجزاء والى وأربعمائى وست وثمانين صفحة ومائة وخمسين وعشرين مسامرة ، كل مسامرة فى موضوع بعينه وتؤلف فى مجموعها موضوعات شتى تختلف وتتباين ، وتتعدد فيها ألوان المعارف حتى ليعجب القارئ أن يلم عقل بكل هذا الشتيت من المعلومات والحكم والأفكار والقصص العابر والأمثلة المتواترة

(١) من كتابه خواص الامداد .

(٢) من كتابه الميزان فى الأقيسة والمكايل والأوزان .

(٣) من كتابه نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر .

من النثر والشعر ، فمن الحديث عن « البورصة والبانكات وأوراق
المعاملة » الى الحديث عن « الهوام والدواب » و « الجراد »
و « دودة القز » و « النحل » و « أبو دقيق » ومن « الميسر والانصاب
والازلام » و « السكر » الى « الأرق والصلاة » ومن « الانسان
والحيوان » الى « ذم الدنيا ومدحها » ومن « كلب البحر والديمورا »
الى « المحار » و « الودع » ، و « اللؤلؤ » ومن « حكاية المصرى
الغريب » الى « الزباء وجذيمة الأبرش وقصير وبهس » ومن
« الموالد والأعياد والمواسم » الى « الخانات واللوكندات » .

ولكنه حين كتبه كان يقصد أن يكون « كتابا جامعا » فيقول أنه
« اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب
العربية والأجنبية في العلوم الشرعية ، والفنون الصناعية وأسرار
الخليقة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تقلب نوع
الانسان فيه من الأطوار والأدوار في الزمن الغابر وما هو عليه في
الوقت الحاضر ، وما طرا عليه من تقدم وتقهقر وصفاء وتكدر
وراحة وهناء وبؤس وعناء الى غير ذلك من الشؤون بتقلب الدهور
وتصرف الأمور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين أحواله وعاداته
في الأوقات المتفاوتة والأنحاء المتباينة ليطلع مطالعه على ما يشحذ
خاطره ويثبه قريحته ، ويستنهض فكرته ، ويدرجه لأعمال عقله ،
وامعان نظره واستعمال بصر بصيرته في نقد الأمور وسيرها وتدبرها
ومقارنتها والموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر
وتخير النافع والنافع والحسن والأحسن » .

وقد جعله على شكل قصة ليسمو به عن السامة - كما يقول -
« مفرغا في قالب سياحة شيخ عالم مصرى وسم بعلم الدين مع
رجل انكليزى كلاهما هيان بن بيان نظمهما سمط الحديث لتأتى
المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوربوية » فكان أول من نحا هذا
المنحى القصصى في كتاب للمعارف العامة وان كنا لا نستطيع أن

نتخذة بداية لفن القصة في الأدب العربي الحديث فليس فيه من مقومات القصة غير الأطار العام ، وفيما عدا ذلك فهو حديث للمعرفة يجرى على ألسنة المتحدثين ، وهم في الأعم الأغلب علم الدين وزوجه وابنه برهان الدين وسائح انجليزى وآخرون يعبرون بهم في تجوالهم أو لقاءاتهم .

ومجمل القصة أن رجلا من فقهاء القرى بعث بابنه الى الأزهر وكان قد اختار له اسم « علم الدين » تفاؤلا بأن يكون من أعلام العلماء المجتهدين . وكان الفقيه في قرى مصر والى عهد قريب أحد معالمها البارزة ، يخدم المسجد ويؤم الناس للصلاة ويتلو القرآن في مناسباته وغالبا ما يفتح « كتابا » لتحفيظ القرآن وتعليم الصبية القراءة والكتابة ، ومن هذه الكتابيب كان الأزهر يستمد « مجاوريه » أو طلابه .

وارتحل « علم الدين » الى القاهرة بعد أن تزود بدعاء أبويه وآله وقد نصحه أبوه وأوصاه بالطاعة والامتنال لمعلميه فيما يعود نفعه عليه وأن يصرف جميع أوقاته في تحصيل ما يرشدونه اليه وأن يجتنب المناهى وأماكن الملاهى ، وأن يكون فى الغدوة والرواح من أهل الصلاح ومن لهم شهرة بفعل الخير وحسن السير ، فقد قال العلماء : اصطحب من الاخوان فى الدين والحسب والرأى والأدب فإنه ردد لك عند حاجتك ، وركن عند نائبتك ، وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال الشاعر :

تخير من الاخوان كل ابن حرة يسرك عند النائبات بلاؤه
وقارن اذا قارنت حرا فاتما يزين ويورى بالفتى قرناؤه

ثم ختم وصيته لولده علم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وآداب المتعلم « أجملها - كما يقول - فى عشر جمل » وان أفاض فى بعضها وأسهب مؤداها : تقويم النفس والتجرد للعلم ، والاجتهاد

في طلبه ، والتواضع في السعى اليه ، والتحرز مما يختلف عليه الناس حتى يعيه ويصيب فهمه والتعرف على مقاصد العلوم وغايتها ، والأخذ من كل شيء بأحسنه ، والبدء بفن من فنون العلم فيستوفيه قبل أن يخوض في غيره « فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض كترتيب علم المعاني على النحو والهندسة على الحساب » ، ومعرفة السبب الذي يدرك به أشرف العلوم ، وأخيرا « التحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه بأكمل الوجوه وأعظمها ، واحسن الطرق واسلمها ، والنفع لآخوانه وأهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان أحب الناس الى الله أنفعهم لعباده » .

وصحب علم الدين أخوته الى القاهرة بعد موت أبويه ، وقام على تربيتهم وكفالتهم ثم تأهل بفتاة اسمها تقية ، وجدها - حين استقرت عنده - « ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها ، تشكر على القليل ولا تنسى الجميل .. كفته المؤونة في تربية أخواته وتفرغ هو لطلب العلم » وقام على تعليمها وتثقيفها « فكتبت وحفظت القرآن » ثم علمها « العلوم الأدبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من المعقول والمنقول » وكانت قد « سأله ألا يكتب عنها شيئا مما يعلمه .. حتى جارتها في كل مضمار وأخذت معه في كل أودية العلم حيثما سار » وقامت من جانبها بتعليم أخواته ما يلزمهن « من اللوازم المنزلية .. فأخذن في التعلم وصرن لها كبناتها فقمن بخدمة المنزل وتفرغت هي لصنائعها » من « الخياطة والتطريز وكب الحرير » لتساعد زوجها بما تكسبه منها « حتى رزقهم الله بأربعة من الأولاد فتعطلت عن مساعدته في أمور المعيشة بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصفرهم وكثرتهم » .

وفيما كان من علم الدين وزوجه ساق على مبارك رايه في قضية

المرأة من غير أن يشير مطعنا أو يقارف ذما من المحافظين الذين
تصدوا بعد ذلك لقاسم أمين حين جهر برأيه في تحرير المرأة ،
فلم يأت بأكثر مما جاء به على مبارك مثلاً لما يبتغيه لها في زوج
علم الدين « فقد قال رأيه في تعليم المرأة ، وإن من حقها أن تتبحر
في العلم الى غايته ، وقال ان الحياة بين الزوجين شركة يتعاونان
فيها على العيش بالعمل والكسب ، حين جعل زوج علم الدين تعمل
لتعين أسرتها « بالخیاطة والتطريز وكب الحرير » فقرر بهذا حق
المرأة في العمل الذي تقدر عليه ولكنه أقدم عليه عملها الاصيل
ووظيفتها الأساسية وهي رعاية أسرتها وتربية اولادها وتنشئتهم
فصرفها عن مساعدة زوجها « في أمور المعيشة » لتقوم بخدمة
اطفالها وتربيتهم ، ثم يجعل لها الأمر الأعلى في توجيه زوجها
وارشاده ، ففي محاوراة طويلة تستوعب (المسامرة الخامسة) نراها
تخوض معه مناقشة دقيقة عن العمل والسعى لكسب الرزق يغلب
فيها رأيها رأيه في أن « السعة والفنى » ليسا قاصرين على « أهل
الجهل » وأن « الفقر والقلّة » ليسا وقفا على « أهل العلم
والفضل » وإنما السعة والقلّة هما على قدر العمل والسعى لكسب
الرزق .

وعاجز الزأى مضیاع لفرصته

حتى اذا فات أمر عاتب القـدرا

وبعد ان تحثه على السعى والعمل ابتغاء الرزق والكسب
تقول له « فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم أن الذي
تعلمته غير ما كان يلزم ان تتعلمه أو أن هذا البلد غير البلد الذي
ينبغى لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن أو تغير البلد ، وغير ذلك
لا أقول ، وفيما جرى بيننا من المناقشة كفاية ، قال الشاعر :

على المرء أن يسعى الى الخير جهده

وليس عليه أن تتم المطالب

وقال آخر :

لا تياس اذا ما كنت ذا ادب على خمورك أن ترقى الى الفلك
فبينما الذهب الابريز مختلط بالترب اذ صار اكليلا على الملك

فقال لها : « دعيني أتفكر في أى الأمرين أولى ، وهل يشرح
خاطري لموافقتك أم لا » ، فلا يرضى على مبارك الا أن يكون الأمر
شورى بين الزوجين ، والرأى الأرجح لمن يصيب ، فلا يضير الرجل
أن يخطيء وتصيب المرأة ، ولا يؤودها أن يصيب وتخطيء هى ،
ما داما متساويين فى العلم والفضل ، وفى حق كل منهما على
الأخر ، فاعترف للمرأة بشخصيتها المستقلة فى وقت لم يكن لها
فيه الى جانب الرجل حق أو كيان .

ويرى علم الدين أن يغير « بلده » ولا يغير « فنه » وتسوقه
الظروف للعمل مع رجل انجليزى من المشتغلين بالأدب العربى ،
فيسافر برفقته الى انجلترا ومعه ولده برهان الدين .

ويعود على مبارك فيعرض لقضية المرأة ويناقش الحجاب
والسفور فى المسامرة الثانية عشرة ، حين يجمع الانجليزى بين
علم الدين وابنه وطائفة من نساء الأوربيين ورجالهم فى غرفة الطعام
بالفندق الذى نزلوا به بالاسكندرية انتظارا للباخرة التى تقلهم
الى اوربا ، وكان من النساء « شابة طليانية » شاء على مبارك أن
يجعل مكانها على المائدة قريبا من الشيخ علم الدين قال انها « تعرف
اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم بها وتارة تتكلم بلغتها
أو غيرها من اللغات الأجنبية على حسب لغات الحاضرين ، وكانت
بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشمائل ثابتة الجأش فصيحة
اللسان لا تقتصر فى حديثها على الألفاظ العادية بل تأتى بمحاسن
الألفاظ اللطيفة والنكات الطريفة وتدخل مع الرجال فى المباحث
العلمية والسياسية مع صغر سنها » ولا يفوته أن يضع الى جانب

هذه الصورة ، صورة المرأة الشرقية ، فيقول ان الشيخ تعجب من ذلك واستغربه « لكونه لم يعهد في نساء البلاد الشرقية أمثالها ، فانه يراهن دائما عن الرجال بمعزل ، ولا شيء عليهن سوى خدمة المنزل ولا يتكلمن الا مع أزواجهن وذوى قرابتهن . واذا تكلمن مع الرجال يتكلمن بخجل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقا في المخاطبة والمجاوبة والمحاورة والمسامرة وكان يرى الخدام يبدأ في تقديم الطعام بهن قبل الرجال ، واذا طلبن شيئا بادر بتقديمه اليهن من كان قريبا منهن لا فرق بين صديق وغريب وأجنبي وقريب فالكل محتفل باكرامهن كل الاحتفال ولا يأتى الا بما يسرهن من الأقوال والأفعال ، فأمعن في ذلك النظر وأجال فيه قداح الفكر وقارنه في نفسه بعوائد الشرقيين لينظر أيهما أفضل فرأى أن عوائد الشرقيين أجمل وأكمل لأنها أعون على حفظ الشرف وأصون للعرض من أسباب التلف » .

كان ذلك حكم النظرة الأولى والتجربة العابرة ، ساقه على مبارك على لسان للشيخ ، ولكنه يعرض رأيه القاطع في المناقشة التي أدارها بين الشيخ وصاحبه الانجليزى ، فيقول الشيخ « كنت أتأمل فيما أراه من الأحوال لا سيما في اختلاط النساء مع الرجال فوجدت في اختلاطهن فوائد لهن من حيث انهن يتلذذن بما يرينه ويعلمنه من الحوادث والأخبار وما يطلعن عليه من محاورات الرجال ، لكن ربما ترتب على هذا الاختلاط ما يخرجهن عما هو أليق بهن من الصيانة والحياء لأن كثرة المخالطة والملازمة بين الرجال والنساء قد تفضى الى ضد ذلك فلا شك أن عادات الشرقيين أرجح ورأيهم في احتجاب النساء عن الرجال أصح وأصلح » ، ويقول الانجليزى : « ان الذى ذكرت أيها الشيخ من المحذورات لا تمنع منه العزلة بالكلية لأن كل امرأة يمكنها أن تعلم كل شيء وهى فى

منزلها بأن تنظر من الشباك مثلاً فتري كل ما يمر بالشوارع والحدائق فتعرف أوصاف النساء والرجال وأحوالهم إقمن أحبته خاطبته وما أعجبها فعلته » ويمضى فيقول ما معناه أن المرأة (عندكم) تخرج لعل من العلل تمكنها من بلوغ الأمل ، وما من فرق بين من تخرج متى شاءت ومن تخرج « الا باذن وسبب وعلة » ، والتربية وحدها هي التي تصون المرأة عن الزلل ، وهي التي « ترشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلل المروءة اللائقة بها وبزوجها وأقاربها ، فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع الحرية كذلك لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لابد في كلا الحالين من حسن التربية » ثم أن « هذه العادة المخالفة لعاداتنا » لا توجد الا « في بعض من البلاد الشرقية » مما يدل على أنها بدعة طارئة » فان جميع نساء الأرياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب وأهل المغرب وسواحل الشام وأرض الحجاز لا يحتجن عن الرجال وربما قمن مقام أزواجهن في بعض الأحوال كإكرام الضيف والأخذ والاعطاء مع الأجانب وكثيرا ما يكون أمر المنزل وإدارته موكولا الى رأيهن وتدهيرهن . . وفيهن من عاونت الرجل في أعماله الشاقة » ويرد الانجليزى - عادة الحجاب - في مناقشته للشيخ - الى الترك حين استكثروا من الحريم فخافوا « عدم رضاهن بهم » فحاولوا بينهم وبين الاختلاط « والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الأجانب » وأقاموا من الأغوات حراسا عليهن وعيونا على سلوكهن .

وتطرد المناقشة بين الرجلين حتى يتفقا على أن القدوة الطيبة والنصح الرشيد هما منبع الخير وأصل الفضيلة ، ويقف على مبارك عند هذا الرأي فلا نعرف ان كان يؤيد السفور أو ينفيه ، وان أدركنا ميله اليه ولكنه كعادته لا يحب أن يجهر بما يصدم الناس فيما درجوا عليه ويكتفى بعرض الأمر ونقيضه تاركا لهم الخيار ، وان كان حين أثار موضوع السفور قد قوض الاجتماع على نقيضه وترك لغيره

أن يجهر به فام يمض ربع قرن حتى قام قاسم أمين يدعو الى تحرير المرأة من وقر الحجاب وقيوده التي تعزل المرأة عن الحياة العامة وتحول بينها وبين أن تكون عوناً لزوجها وشريكاً له في مواجهة الحياة.

وتمضى فصول الكتاب أو مسامراته - كما شاء على مبارك أن يسميها - كل مسامرة في موضوع يتطرق اليه الحديث ، أو يدعو اليه التنقل ، ففي سفرهم من القاهرة الى الاسكندرية بالقطار يروى على لسان الانجليزى قصة البخار واختراع القاطرة واستخدام السكك الحديدية وانتشارها في بلاد أخرى ، فاذا مروا بطنطا بدأ مسامرة جديدة عنها وعن « صاحب المقام بها سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه » ويجد في الاحتفال بمولده فرصة لمسامرة أخرى عن « الموالد والأعياد والمواسم » على كافة أنواعها ومناسباتها التاريخية في مصر . وكان عليهم أن يثووا الى فندق قبل أبحارهم من الاسكندرية فجدت مناسبة للحديث عن « الخانات واللوكاندات » والمقارنة بينها وبين ما يعرف (عندكم بالوكايل) ويقول الشيخ « سبحان الله أرى الافرنج يعنون باتقان جميع الأشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كتساهلنا في خاناتنا ووكائنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من خاناتنا ووكائنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد به ما يأكله أو يشربه أو يفرشه أو يستعمله والويل لمن يمضى عليه بها الليل لأنه يكون تحت تصرف أنواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش يبيت مسهداً ولمثل هذا منشداً .

« ثلاث باءات بلينا بها البق والبرغوث والبرغش »
« ثلاثة أوحش ما فى السورى ولست أدري أيها أوحش »

فاذا أراد الشيخ أن يكتب لزوجته تحدث عن « البوستة » ونظامها والبرق وسرعته فى الاتصال وهكذا فى الحديث عن الملاحة وعن البحر وعجائبه وعن البراكين عند مرورهم بصقلية أو (جزيرة

سيسليا) ورؤيتهم دخان بركان اتنا ، ويتطرق من تعلم اللغات الى فضل العرب على الحضارة .

ويكتب برهان الدين لأمه عما شاهده ومر به من أحداث الرحلة ويقص عليها كيف تعرف الى ملاح يعرف لغته ويروى لها ما دار بينهما من أحاديث ، وما عرف من جهله بالجغرافية والتاريخ وما قاله له من أن « سر تقهقر الملة الاسلامية وسبب ضعف أهل البلاد الشرقية هو أنها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سببا في سطوتها وعظم بطشها وتمكن قوتها » وحيث لا قوة للملة الا بقوة رجالها ولا تكمل قوة الرجال الا بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها تحت أسر غيرها فيجور عليها ويذلها » .

وتنتهى رحلة البحر في مرسيليا حيث أقاموا يومين وبعدها الى باريس وقد أصبحوا أربعة بعد أن انضم اليهم الملاح يعقوب صاحب برهان الدين ، وتطرد المسامرات كل في مناسبتها ويمضى يعقوب في تعليم برهان الدين ما يعلم ، ويقص عليهم قصته ، وكيف نجا وحده من الفرق بعد أن تحطمت سفينته فوقع في أسر جماعة من السود ، وينساق به الحديث الى شعوب أفريقية ويتشعب الى غيرها مما طاف به في حياته من عجائب وغرائب ، ويحمل حديثه الشيخ الى أشباهه من قصص العرب كقصة « الزباء وجذيمة الأبرش » الا أن عجب ما يرويه يعقوب يفوق ما عداه وكأنما نطالع قصص السندباد البحري في ألف ليلة وليلة » .

وتفتح لهم باريس ميادين لمسامرات جديدة في وصفها ووصف معالمها وأسواقها وتاريخها ويقص عليهم الانجليزى او (الخواجا) ما كان من مذبحه الهيحنوت ومكر « دى مديتشى » بهم فيقول ان

« سبب هذه الفتنة أن امرأة يقال لها (ماري دوميديس) دست على الملك أن الملك لا يلتئم وراحة رعيته لا تتم الا اذا قطع البروتستانيون عن آخرهم » ويرى علم الدين أو (الشيخ) مكرها شبيها بمكر « الباسوس » التي أوقعت بين بكر وتغلب فقامت الحرب بينهما واستمرت أربعين عاما ، فيقص عليهم قصتها .

وتتوالى المسامرات على هذا النسق من أحاديث المعرفة التي تسوقها المناسبات الى قصة يعقوب وما حوت من عجائب ، ومن المشاهد التي يجتليها الوصف من واقع الرؤيا الى أشتات من المعلومات الجغرافية والتاريخية والصناعية ومعالم الطبيعة والتاريخ الطبيعي حتى ينتهى الكتاب بالمسامرة الخامسة والعشرين بعد المائة عن الأشجار والزهور . يتركنا بعدها على مبارك ونحن لا نعلم شيئا مما صار اليه أمر هذه الجماعة وقد تركهم يجتلون جمال بستان « من الأشجار والأزهار » فى ضاحية من ضواحي باريس ، ولا ندرى اكانت هذه النهاية المبتسرة هى النهاية التى أرادها للكتاب أم كان ينوى أن يضيف اليه مسامرات جديدة تسبق النهاية الطبيعية لقصة علم الدين مع صاحبه الانجليزى وأهله فى مصر ، فان أمثال هذه الكتب الموسوعية التى لا يربط فصولها رباط يمكن أن تمضى الى أبعد ما يريد لها الكاتب أو يقتضيه جهده ، فالمعرفة الانسانية أكثر من أن يتسع لها كتاب أو يشملها مؤلف مهما تعددت صفحاته ، وعلى أية حال فقد ترك على مبارك أبطال قصته دون غاية أو مصير .

ولعله لم يرد لكتابه - وهو الأرجح - أن يكون قصة متكاملة تتسق فيها البداية والنهاية على الأقل ، ولكنه أراد كتابا للمعرفة يلتقى فيه الشرق والغرب على وفاق . فيدفع بالموجة الغربية الى بلاده من غير استعلاء أو شعور بالنقص ، فكان بعمله هذا معلما من أرفع طراز .

الخط التوفيقية :

أثره الخالد دون شك ، ولو لم يكن له غيره — كما قلنا — لكفاه به خلودا على الزمن وما أعجب أن يقوم الرجل بهذا الجهد الضخم في حياة لم تهدأ من زحمة العمل الرسمي ، ولم يتحرر فيها الا هونا من وقر الوظيفة وأعبائها الثقالة ، حتى أحاطت الشكوك بأن يقوم بهذا العمل الضخم وحده ، فضلا عن أعماله الأخرى — فقل أنه سخر معاونيه في كتابته وجمع مادته ، الا أننا نرى أسلوب الكتاب يطرد على وتيرة واحدة مما يدل على أنه قام بكتابه وحده ، فاذا كان قد استعان بمعاونيه على جمع مادته ، فان كتاب الموسوعات — وخاصة في الوقت الحاضر — يستعينون بعدد من معاونين والمترجمين ، يجمعون لهم المادة العلمية من كافة مصادرها ثم يقومون هم بترتيبها وتبويبها وصياغتها في الأسلوب العلمي بعد تحليلها والتعليق عليها .

فاذا كان على مبارك قد استعان على جمع معلومات الخط التوفيقية بمعاونيه في الإدارات والوزارات المختلفة التي تولاهها ، فان هذا لم يتعد جمع المصادر من الأضابير والمحفوظات في كل إدارة ووزارة بعد تحديدها لمعاونيه ، ولا نظن أن عملهم قد تجاوز ذلك ، ولعله قد اضطلع وحده بالرجوع الى المصادر الفرنسية ، فكثيرا ما يشير الى الموسوعة التي وضعها علماء الحملة الفرنسية في « وصف مصر » ويدعوها « خطط الفرنساوية » تارة ، وتارة أخرى « خطط مصر للفرنساوية » ولا يفوته أن يرجع الى بحوث المستشرقين وكتب الأجانب الذين زاروا مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كالرحالة « فانسلب » و « سافاري » ويسميه « سوارح السواح الفرنسي » وكتابات من عاشوا في مصر وعملوا بها من أمثال « كلوت بك » أو « قولوط بك » كما يكتب اسمه ويرجع في كتابة تاريخ مصر القديم الى « هيرودوت » و « ديودور

الصقاي» و «سترايون» من قدامى المؤرخين ، والى « ماريت »
و « شامبليون » من المحدثين .

ولا يكتفى بالمصادر الخطية والمنشورة ، بل يعود الى الأحياء
من المعاصرين فيستكتبهم سيرهم وحين يُورخ للكنيسة القبطية
ورجالها يرجع الى « أكابر القسس الشهيرة بمصر » - كما يقول -
ويفيد من الدراسات التى قام بها معاصروه كدراسة محمود الفلكى
لجدران أسوار الاسكندرية .

وصدرت الخطط - ويسمىها « الخطط التوفيقية الجديدة
لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » - فى عشرين جزءا ،
على نسق خطط المقريزى ، « وفن تأليف كتب الخطط - كما يقول
الشيال (١) - فن مصرى أصيل ، نشأ فى مصر الاسلامية وفيها
دون غيرها من الأمصار الاسلامية نما وترعرع ، وأول من ألف فيه
الكندى ، ولم يكن يمضى قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو أكثر
يكتبون فى خطط مصر ، وكان آخرهم تقى الدين المقريزى عاش فى
القرن الخامس عشر الميلادى » . وقد افرد الأجزاء الستة الأولى
لمدينة القاهرة ، والسابع للاسكندرية ، ومن الثامن حتى السابع عشر
لمدن مصر ، وخص النيل بالجزئين الثامن عشر والتاسع عشر ،
تناول فى أولهما مقاييسه وأعياده واحتفالاته منذ أقدم العصور ،
وتحدث فى الثانى عن رياحاته وترعه ومنشئاته . وأرخ فى ختام
الأجزاء للنقود المصرية فى عصور الاسلام .

وسار على مبارك على نهج المقريزى فى تدوين الخطط
التوفيقية « فلتبع - كما يقول الشناوى - مدن مصر وقراها .

(١) الدكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون ص ١٠٥ .

(٢) الدكتور عبد العزيز الشناوى : بحث عن الخطط التوفيقية المجلد الرابع

ع ١١ من تراث الانسانية .

ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن موقع المدينة أو القرية أولا ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور الى الوقت الذى اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر اذا كانت لا تزال قائمة ، ويصف ما بها من منشآت ومرافق عامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور ويثبت ما أصابها من تغير ، ويقرن هذا الوصف الطبوغرافى المسهب بترجمة لمن برز فى كل بلدة ممن ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا فى ثراها .

ويقول على مبارك فى الأسباب التى حملته على كتابة الخطط أن « مدينة القاهرة المعزية التى هى دار الحكومة الخديوية قد كثر ذكرها فى كتب الخطط والتواريخ والسير ووصف ما كان بها من المباني والبساتين وهى الآن غيرها فى تلك الأزمان لتغيرها عما كانت عليه زمن الفاطميين الذين اختطوها بتغير الدول وتقلب الأزمنة ، وكانت تارة يؤثر فيها الزيادة وتارة النقصان ، فترى أحيانا زاهرة زاهية وطورا واهنة واهية . ولم تر منا معشر أبنائها من يهديننا الى تلك التقلبات ويفقهنا أسباب هاتيك الانتقالات ، ويدلنا على ما فيها من الآثار فنجوس خلالها ولا نعرف أحوالها ونجوب اقطاعها ولا ندرى من وضعها وقد خطها العلامة المقرئ لوقته وأطال القول فيما فيها من المباني والمزارع وتكلم عن الحوادث والرجال ولكن بعده كم من أمور مرت فدمرت وغير جرت ففيرت ، حتى ذهب أكثر ما أسهب فى شرحه كليا وزال حتى صار نسيا منسيا وكم من آثار خيرية صار نفعها مندثرا مهجورا ومصانع وصنائع قد دثرت كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وكم من تلال كانت عمارات شاهقة ووهاد كانت بساتين معجبة فائقة وقبور مزوية فى جوانب الحارات ومشاهد متباعدة فى الفلوات أطلق عليها العامة أسماء كاذبة كقولهم هذا ضريح الأربعين مثلا ، وكم من مساجد نسبوها لغير من بناها ومعابد أسندوها لمن لم يكن رآها ، والحقيقة

أنها قبور ملوك عظام ، أو معابد سادات كرام أو مساجد أمراء فخام
مع أن معرفة ذلك حق علينا إذ لا يليق بنا جهل بلادنا والتهاون
بمعرفة آثار أسلافنا التي هي عبرة للمعتبر وذكرى للمذكر فهم وأن
مضوا لسبيلهم فقد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء آثارهم وأن
نصنع لوقتنا ما صنعوه لوقتهم ، وأن نجد في طرق الافادة كما
جدوا ، دعتنى نفسى لتأليف كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث
متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة وما يتبع ذلك من أخبار
أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه » .

وسار فى تأليفه على المنهج العلمى للتأريخ فى القرن التاسع عشر
وهو المنهج الذى اتبعه رفاة الطهطاوى ويقوم على حشد الأسانيد
والمصادر والوثائق قديمها وحديثها على اختلاف ألوانها فيما نسميه
بالطريقة التراكمية ، أو المنهج التراكمى ، وهى بتوخيلها للدقة
والأمانة فى النقل والرواية لا تستطيع أن تتجنب الخطأ فنراه
يذكر من الغرائب ما لا يقبله المنهج التحليلى الحديث إذ يذكر مثلاً
عن جبل سرنديب نقلاً عن ابن بطوطة أن به قدم آدم عليه السلام
وينقل عن هيرودوت أن عدد العمال الذين أقاموا الأهرام كانوا
ثلاثمائة وستين ألفاً ، أو ينقل النص كما هو دون تعديل ، فنراه
يذكر لويس التاسع قائد الحملة الصليبية على دمياط والمنصورة
بأنه « روا دفرنس » كما دعاه المقرئى من غير أن يشير إلى
اسمه ، ويسمى أبا الهول « الصنم » كما سماه المقرئى من قبل .

إلا أن الطريقة التراكمية على ما فيها من عيوب ، إقد أصبحت
الأساس لعملية التجميع التاريخى الذى يسبق الفحص والتمحيص
بما تحشده من مصادر أمام المؤرخ ، وكان على مبارك جماعاً ما هرا
وذاكرة تعى الجزئيات كما تعى الكليات ، فأفاد من الكتب القديمة
والحديثة على السواء ورجع إلى الوثائق والمحفوظات وحجج
الأوقاف وكافة المصادر الأخرى وأضاف إلى تاريخ مصر القديم

ما كشفت عنه آخر البحوث الأثرية . ويشير الى ذلك، فيقول :
« ان أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابي وغيرها مما بقى من أعمال
الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها الا كونها
من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطبرية المعروفة بالهيريوجليفية
لم تتكشف حقيقتها الا في هذا القرن فقد وقف الافرنج على
حقائقها من الكتابات الباقية على جدران الآثار المصرية والمباني
الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم في توسيع دائرة علمها ، فالتزمت
أن أطالع ما كتب بخصوص تلك الآثار والخص ما فيه الفائدة من
غير اطالة ولا اكثار » .

واستغرق تأليف الخطط بضعة عشر عاما فقد ظهرت
عام ١٨٨٨ ، وكان حينذاك وزيرا للمعارف في وزارة رياض الثانية
بينما تشير أحداث الخطط الى وقائع انتهى بها الى سنة ١٨٧٤
وأخرى الى سنة ١٨٧٦ مما يدل على أنه فرغ من كتابة تلك الوقائع
في تلك السنوات ، وانتقل الى غيرها في السنوات التالية حتى انتهى
من كتابتها ونشرها في التاريخ المذكور .

والخطط التوفيقية أضخم عمل في تاريخ مصر في القرن الأخير
وقد ينتهي القرن العشرون دون أن يظهر ما ينازعها هذه المكانة .

من عهد الى عهد

لحق

عصر محمد على ونشأ في مدارسہ ، فكان ربيب دولته ،
وثمررة غرسہ ، رافق بعثة الأنجال الى فرنسا
سنة ١٨٤٤ ، أفنديا من الأفندية ، اذ كان الأمراء فيها
هم أصحاب السعادة البکوات ، وأبناء الذوات

هم الذوات ، وغيرهم الأفندية ، ومن هؤلاء الأمراء - أصحاب
السعادة البکوات - كان الخديو اسماعيل ومن أبناء الذوات
- البکوات - محمد شريف باشا ناظر النظار ومن الأفندية
أمثال على مبارك كان نوبار باشا ناظر النظار أيضا ثم حماد باشا
عبد العاطي وعلى باشا ابراهيم .

وفي المدرسة المصرية التي أنشئت لهم بباريس كان لكل أمير
فراش ، وللبکوات جميعا فراش واحد ، ولالأفندية فراشان ،
ومائدة الأمراء مشتركة بينهم وبين البکوات ، ولكل من الأمراء
« غرفة للنوم وبهو وغرفة مكتب ، وكل من البکوات له غرفة نوم
ولهم جميعا بهو خاص يجتمعون فيه ، والأفندية لكل جماعة منهم
غرفة نوم واسعة غير مزينة ولكنها مفروشة فرشاً لاثقا » (١) .

وعاد على مبارك من البعثة مع رفيقيه حماد عبد العاطي ، وعلى
ابراهيم أوائل حكم عباس ، وكان من أمره وأمر رفيقيه ما عرفنا ،
ومضت الحياة بهم يتلاقون ويفترقون في خدمة مصر وخدمة
الخديوين عباس وسعيد واسماعيل وتوفيق وشهدوا مرحلة التحول

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية ص ١٨٤ .

الخطر في تكوين المجتمع المصري وفي أفكار المصريين في تلك الآونة ، وكانوا هم أنفسهم من معالمها البارزة . حين قفزوا من صفوف الغمار الى صفوف السادة من الحكام ، فكانوا ومن شابههم نواة طبقة مصرية أخذت تبرز وتشارك الطبقة التركية الثراء والجاه بما نالته من وظائف الدولة ولكنها تلوذ بالخدويين ولا ترى للأتراك منة عليها فهي ربيبة البيت العلوي وصنيعته لا يفضلها الأتراك في هذا ، فبرهم جميعا من بر ولى النعم وخيرهم من خيره وان كانت ترى نفسها - لقدرتها وكفايتها - أولى من الأتراك بمناصب الدولة ووظائفها الكبرى ، وان بقيت تدين بالولاء للخدو وللنظام القائم دون الطبقة التركية ذاتها كطبقة ، وبجانبها نشأت طبقة من أعيان الريف كان العمدة والمشايخ نواتها الأصيلة ، قدر لها أن تبرز وتظهر بقيام مجلس شورى النواب حيث قضت لائحته الأساسية أن « يتألف من عدد لا يزيد عن خمسة وسبعين عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ، ويتولى انتخابهم عمدة البلاد ومشايخها في المديرية ، وجماعة الأعيان في القاهرة والاسكندرية ودمياط » (١) فجاء ممثلا بطبقة مصرية صميمة لعبت دورا هاما في أحداث السنوات التالية ، وغدت أساسا لطائفة مميزة من كبار الملاك المصريين .

وبقدر ما كانت طبقة الموظفين المصريين ممن نشأوا في مدارس محمد على تدين بولائها الحقيقي للخدو وللنظام القائم ، كان ولاء هذه الطبقة الناشئة من الأعيان يتجه الى ذاتها ومصالحها فهي لا تدين بالولاء للخدو الا بقدر ما يعود به الولاء عليها من مكاسب ، وهي أقدر بدهائها الطبيعي على مصانعة الخديو ، بل ومصانعة كل صاحب نفوذ في سبيل مكاسبها ، مما يفسر موقفها المتقلب من الثورة العربية ومن الاحتلال البريطاني والخدوية بعد ذلك .

(١) الرافعي : عصر اسماعيل ج ٢ ص ٦٣ .

وبينما كانت الطبقة التركية تشعر بالنقص ممزوجة بالتمتع بالبرزخ
أمام البارزين من رجال الدولة المصريين وأغلبهم ممن نالوا تعليما
عاليا وثقافة رفيعة في الخارج ، كانت لا تلقى بالا الى تلك الطبقة
المحدثة من أعيان الريف التي تتمسح بها وتتقرب اليها وتحاول أن
تحاكيها في حياتها وفي سلوكها وفي « أبهة الذوات » التي تميزها ،
وكان الأعيان يقابلون انكار الأتراك لهم بالتغابي والتجاهل دون أن
يشيروا حفيظتها ، وما كانوا يملكون غير هذا ما دام الحكام وأصحاب
النفوذ منهم وان ظلوا يحملون لهم كل مقت وكراهية .

كانت تلك هي الصورة التي انتهى اليها البناء الاجتماعي في تلك
الآونة من عصر اسماعيل نفعل منها السواد الأعظم من الغمار فقد
ظلوا بعيدين عن التأثير في سير الأحداث ، وما كان يعنيه غير الأمن
والقوت وسلامة عوائدهم ومأثوراتهم من الزيغ والزلل ، فما نالهم
خير من قبل وما زالوا يعيشون في عصر اسماعيل كما كان يعيش
أجدادهم في عصر محمد علي وفي ظل احتكاره ، وقبل عصره حين
كانوا خاضعين لنظام الالتزام وبطش السناجق .

وشهد على مبارك هذا التغيير في البناء الاجتماعي وكان يعتقد
أنه سيمضي قدما حتى « نحل محل هؤلاء الشراكسة » اذا ما انتشر
التعليم بين المصريين ، ولم يكن يتعجل هذا التغيير ، اذ يراه أمرا
مقضيا لا يعوزه غير الصبر والأناة فيحذر الضباط من العنف
والثورة مخافة أن ينتهي العنف الى غير ما يأمل .

وبقدر ما كانت عوامل التغيير في البناء الاجتماعي هيئة لينة ،
يقدر ما كانت عنيفة عارمة في التحول الفكري ، ثم « توالى الأحداث
فزادتها عرامة وعنفا ، ولعل الحساسية من هذا التحول الفكري
الجديد هي أول ما كشف عن يواده ، فحين غضب عباس على
رفاعة الطهطاوي مما رآه في كتابه « تخليص الأبريز » من آراء
لا تعجب الحاكم المستبد ، وحين ظن على مبارك أن عزله عن مناصبه

كان بسبب ما ألقاه الواشون « كاسماعيل صديق وأضرابه » الى الخديو اسماعيل من « أن كتابنا نخبة الفكر الذى أمرنى بتأليفه فيما يتعاقى بأمر النيل مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها » كان هذا ارهاصا بما يمكن أن تثمره هذه الأفكار الجديدة أو تصير اليه وان لم يكن منها خشية في حينها فما نظن محمد على قد همه ما جاء في « تخليص الأبريز » من حديث عن الدستور الفرنسى وثورة الفرنسيين على شارل العاشر ، ولا نظنه رأى فيه مأخذا يؤخذ به صاحبه ، فقد لقي بعضا من حفاوته وحاز إعجابه فأمر بطبعه وتعميم « قراءته في قصوره وتوزيعه على الدواوين والمواظبة على تلاوته والانتفاع به في المدارس المصرية » (١) وما نظن « عباس » حين أبعد رفاعة الطهطاوى الى الخرطوم قد فكر في « تخليص الأبريز » أو استمع لواش في حقه وانما كان يجرى جريه ويمضى في السياسة التى رآها أصلح لحكمه (٢) ولا نعتقد أن اسماعيل قد ظن سوءا بعلى مبارك أو صدق ما قيل عنه على لسان اسماعيل صديق وأضرابه ، والا لبطش به - فما كان على مبارك أعز عليه من اسماعيل صديق الذى لقي أبشع مصير على يديه وهو رفيق عمره وتوأم رضاعه - ولعل اسماعيل حين خلع على مبارك من مناصبه كان يقصد ارضاء اسماعيل صديق وكانت له حينذاك أعلى منزلة لديه فلم يمض وقت قصير حتى أعاده الى كل مناصبه ولعل اسماعيل صديق الذى يكره على مبارك قد اكتفى بما ناله أو لعل ثورة غضبه انفثأت بذلك .

فما كان عباس يظن سوءا في رفاعة الطهطاوى وما كان اسماعيل يرى دخلا في نفس على مبارك وما كانا يريان في كتاباتهما خطرا على

(١) المؤلف : رفاعة الطهطاوى ص ٩٢ - ٩٣ (حلية الزمن ص ٦١) .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

الحكم ولم يكن فيها حقيقة ما يسىء الى الحكم أو يقبح عملا من أعمال الخديوين وما كان ولاؤهما للأسرة الحاكمة موضع شك فقد نشأ في رحابها وتفيًا ظلالها ونالا ما نالاه بفضلها وما عن لهما أن ينقدا أو يتوجها بنقد الى الحاكم وما كانا بغافلين عن بطشه وقسوته وأنهما ليعرفان كما يعرف غيرهما غدر الخديوين وطغيانهم ولعل جزع على مبارك من الخديو اسماعيل كان فوق المألوف ، أو لعل اسماعيل نفسه كان قاسيا الى درجة تثير الفزع مما لا يفوت « يعقوب صروف » أن يذكره في ترجمته لعل مبارك (١) فيقول : « ولم نسمع أن وزيرا من الوزراء كان يجزع من ملكه كما جزع صاحب الترجمة من الخديو الأسبق ولم يكن هذا الجزع خاصا به ، بل كان شاملا كل حاشية الخديو » وكان ما نسب اليهما لونا من حساسية الجزع عند السادة قبل الغمار ، فاذا أراد انسان كيدا لكاتب أو مفكر فما نظنه يضنى في العثور على ما يثير الشك أو الظنة فيما كتب أو قال . واذا أصاب انسان ضرا فسيبه غضب الأمير ، ولا يفضب الأمير الا لسوء أو مظنة سوء تناله أو تنال حكمه .

فاذا كان الرجلان - شأن غيرهما من رجال الدولة - على هذا القدر من حساسية الجزع فكيف أتيح لهما أن يمهدا الأرض للتحول الفكرى وكيف نجحا في تغيير التربة التى استقبلت عنف التحول وأنبتت سورة الغضب ؟

لقد اهتديا الى الأساس الذى يقوم عليه بعث مصر ونهضتها الحديثة ، فاستقامت حركة تجديد الفكر المصرى على يد رفاعة ، كما استقامت حركة التعليم على يد مبارك ، وكان رفاعة يدرك تماما أن جهده وعمله متعلقان برضاء الوالى ، ويعرف أن دعوته

(١) أعلام المقتطف ص ١٥٥ - ١٥٦ .

١
للعمران والتقدم والنهضة لا يمكن أن تسير دون عائق مالم يحذر
الوالى ويتروضاه حتى يضمن لدعوته حرية الحركة والانتشار
فما كانت المدارس تفتح الا بأمره ، وما كانت الكتب تطبع وتنشر
الا بإرادته (١) وهو ما أدركه أيضا على مبارك حين عمل على مصانعة
عباس والسير في تياره لينقذ البقية الباقية من المدارس ، التى
يتهددها عباس بالاغلاق ، كما استثمر غرور اسماعيل وطموحه
فى اصلاح التعليم والتوسع فيه وتهيئة وسائل الثقافة لمن ينشدها
من الناس وتيسير سبل المعرفة لمن يبتغيها منهم ، وجاء كل منهما
مكملا للآخر ، فاذا كان رفاعة قد سوى الأرض للتجديد والتقدم ،
فاستيقظت النفوس على الرغبة فى التجديد والتقدم ، فان على
مبارك قد تعهد بها ونماها باصلاح التعليم ونشره حين صدر فى
نظامه التعليمى عن رغبة أعضاء مجلس الشورى ، وطموح اسماعيل
لمحاكاة الغرب وهما فى غير هذا لم يكن لهما شأن بما يفضب الحاكم
من مسائل السياسة أو غيرها .

وفى تلك الفترة ما بين رفاعة وعلى مبارك ، كانت الموجة الغربية
بدورها تصفع عقول الناس بما لا يدع سبيلا للتعلق بالماضى أو الحذر
من المستقبل ، فلم يعد هناك من ينكر ما جاء فى « تخليص الابريز »
بعد أن رأى الناس امتداد الخطوط الحديدية بين البلاد واضاءة
الشوارع بغاز الاستصباح واقامة الجسور والقناطر وفقا لأحدث
المنشآت الهندسية ، وتعميم مياه الشرب النقية فى القاهرة
والاسكندرية ، وتطهير الترع والرياحات بالكراكات ، واستخدام
الآلات البخارية فى رفع مياه الري ، وبعد أن رأوا أنماط الحياة
الغربية مستخفية حينا ، وسافرة أحيانا تنتشر بين المصريين
يحببها اليهم من تلقوا علومهم بالغرب أو ارتحلوا اليه ، أو من نزح
الى بلادهم من الغرب للاقامة أو العمل ، فأخذوا يحاكون الأوربيين

(١) المؤلف : رفاعة الطهطاوى ص ١٥٦ .

في أزيائهم ومساكنهم ومأكلهم ، ويقبلون على التعليم الحديث ،
ويؤمنون الندوات العلمية ، ويقتنون الكتب ويفشون المنازه في
الجيزة والجزيرة ، ودور الغناء والتمثيل ، وانتشرت الصحف
الأدبية والسياسية تخوض في شتى المسائل وتفتح مغاليق القلوب
على أشياء جديدة لم يكن للناس بها عهد من قبل .

هذه الموجة الغربية التي امتدت الى عقول المصريين واستوت
في أذهانهم هادئة لينة بعد أن اطمأنوا اليها ، ما لبثت أن أصابها
من العنف والتوتر ما أصاب الحركتين الفكرية والاجتماعية أيضا ،
فكان التحول الذي شهده على مبارك وإن لم يشهده رفاعة ، وإن
قدر لتلاميذه أن يشاركوا فيه بمقدار .

سنوات التحول :

وقد نرد القوى التي أثمرت التحول الى عصر محمد على أو الى
ما قبل عصره بقليل ، حين رأى المصريون فيما جاء به الفرنسيون
في حملتهم على مصر وفي احتلالهم ثلاث سنوات حافلة ، أشياء
جديدة لا عهد لهم بها واستمعوا الى افكار أتكروها في البداية ثم
أخذوا يتمعنون فيها فتقبلها عقولهم ، وينكرها وجدانهم ، ثم جاء
محمد على فعاق الموجة الغربية عن الامتداد في بعض النواحي التي
يخشى منها على كيانه وملكه ، ومهد لها في نواح أخرى لا يرى فيها
خطرا عليه ، فحول جهاز الدولة عن النظام المملوكى العثمانى القديم
الى نظام أوربى حديث دون أن يخل بالأوضاع العثمانية للحكم
والادارة فبقى الحاكم السيد المطاع الماكر الداهية المستبد الذى
لا يستنكف وسيلة من الوسائل في سبيل أغراضه ، ولا يطيق الى
جوار ارادته ارادة أخرى وكان هذا شر ما ورثه بنيه .

الا أن موجة التقدم — كما قلنا — أخذت تمتد لا تعوقها قيود
الحكم ولا ما تردت فيه البلاد من فقر بعد أن أرهقها محمد على

بطموحه وآماله العراض ، فلم يكن غريبا أن يتقدم أعضاء مجلس شورى النواب في دورته الأولى عام ١٨٦٦ باقتراح تعميم التعليم الابتدائي لا لأن لائحة المجلس تقضى بأن يلم عضو المجلس - بعد ثمانية عشر عاما - بالقراءة والكتابة وأن يكون الناخب أيضا من الملمين بهما بعد ثلاثين سنة ، ولكن لأن الناس قد أخذوا يدركون أهمية التعليم وضرورته للتقدم ، هذا الإدراك الذى لمع به ذهن على مبارك فزوده بالعزيمة والاصرار على الالتحاق بالمدارس حتى يكون مثل « عنبر أفندى » الذى وصل الى ما وصل اليه بالتعليم ، وهو الإدراك الذى بقى يصفع عقله بالعزيمة والاصرار على نشر التعليم والمعرفة بين المصريين حتى ينالوا ما ناله الأتراك بالعصبية والتسلط ، وليحلوا محلهم في يوم من الأيام ، فكان الاقبال على التعليم أول مظاهر التقدم الفكرى ، وأثرا من آثار الرخاء المادى الذى شمل البلاد أوائل عهد اسماعيل نتيجة لارتفاع أسعار القطن المصرى ونتيجة لظهور طبقة وسطى مصرية ، كان محمد على قد قضى عليها ، ولكنها أخذت تعاود الظهور في أيام سعيد ، بعد أن أصدر اللائحة السعيدية فأباح للمصريين ملكية الأرض ، وبعد أن أفسح لهم المجال في بعض المناصب الإدارية ، وفتح لهم مجال الترقى الى الرتب العليا في صفوف الجيش وأثبتت هذه الطبقة الناشئة وجودها بانشاء مجلس شورى النواب وأخذت بكل ما لديها من طموح وتطلع الى الحياة والسيادة وقدرة على اثبات الذات تزحم الطبقة التركية ، وان ظلت عاجزة عن أن تزيحها عن مكانها ، ولم يستطع اسماعيل بالرغم من تركيته أن يعوق نمو هذه الطبقة الجديدة ، فقد اضطره طموحه واضطرته ظروفه أن يستعين بها .

ولم يفكر اسماعيل حين أنشأ مجلس شورى النواب في أن يشرك المصريين في الحكم ولم يكن يرمى الى تطبيق الحكم الدستورى في مصر ، ولعله « لم يخطر بباله أن مثل هذا العمل قد يؤدى الى

اظهار طبقة ظلت بعيدة عن المشاركة في شئون البلاد أو يقودها الى التقدم والبروز في ميدان الحياة العامة» (١) ولكن الأحداث جرت به وبها الى غير ما كان يقدر والى غير ما كانت تظن هي نفسها ، وكانت أحداثا طارئة لأنها لم تجر وفقا للتطور الرتيب للأحداث التاريخية فقد حكمتها علل وأسباب كان من اليسير تحاشيها وتجنب مواجهتها لو لقيت شيئا من الحكمة وحسن التقدير ساقتها بالتحدي تارة وبلاستجابة تارة أخرى الى المجرى الذى سارت فيه على غير ما يأمل اسماعيل ، وعلى غير ما كان يرجو المصريون ، فأما اسماعيل فما نعتقد أنه ظن مسألة الدين يمكن أن تنتهى به الى هذا المصير ، وأما المصريون فمن المؤكد أنهم لم يرجوا لبلادهم هذا المصير وان لم يكن لهم يد فيه تشعرهم بثقل الضمير أو تلقى عليهم نوعا من المسؤولية وان غدا عليهم أن يشاركوا فى الأحداث بقدر ما تجذبهم الأحداث اليها ، وبقدر ما يتاح لهم فيها ، فكان التحول الذى لم يخطر على بال اسماعيل أو بال المصريين ، وكانت سنواته القصار الحافلة التى لم تشهد مصر فى تاريخها الحديث أحفل منها بالأحداث ، ولم تقدر أبدا ما يمكن أن تنتهى اليه تلك الأحداث .

وكان الحدث الكبير الطارئ الذى لم يجر على سنة من التقدير السليم للعواقب ، أو تخطه الضرورة الملحة ، أو الإرادة العامة للمصريين ، وانما كان نزوة من نزوات الفرد الحاكم ما كان للبلاد أن تقع فيها لو جرى التاريخ جريه السليم هو مسألة الدين .

ولعل التدخل الأجنبى كان بدوره - كالدين - طارئاً هو الآخر فاذا افترضنا أن ديون اسماعيل كان من الممكن ألا تتم لو قدر لغيره أن يحكم » وان كنا فى التاريخ لا ننساق وراء الفروض ، ونغفل من الأحداث ما لم يقع حقيقة ، ولكننا نميز بين حدث تحكمه

(١) المؤلف : أحمد لطفى السيد ص ٣٦ .

الحتمية التاريخية وحدث تحكمه ظروف طارئة وان كنا لا ندين بالحتمية التاريخية أيضا ، كما لا ندين بالعلل الطارئة ، وكل ماندين به هو الواقعة أو الحدث التاريخي ومدى الحقيقة فيها . وقد جرى التاريخ في تلك السنوات مجراه الذي انتهى اليه ولا يمكن تغييره ، ولكن اذا كانت ديون اسماعيل حدثا طارئا لم تكن ثمة ضرورة لوقوعه ، فمن الممكن أن نفترض أن التدخل الأجنبي وان جاء نتيجة حتمية لتراكم الديون الا أن ما حدث هو أن اسماعيل هو الذي القى لأوروبا - كما يرى هيكل - بأول فكرة للتدخل في شؤونه وشئون مصر تدخلا ينتهي في أمره هو الى الخلع وفي أمر مصر الى الخضوع لنير أوروبا أولا وانكلترا أخيرا » (١) فقد أراد أن يصطنع جوا من الثقة يمكن له في قرض جديد ، ولم تعد صديقه فرنسا بعد هزيمتها عام ١٨٧٠ قادرة على اصفاء هذه الثقة عليه ، فولى وجهه صوب انكلترا ، وانتهاز فرصة مرور ولى عهدا بمصر وطلب اليه تعيين انجليزى مستشارا للمالية المصرية ، وأجابه ولى العهد بأن ذلك من شأن القنصل الانجليزى ، وبالرغم مما فى رد ولى العهد من التقريع ، فان اسماعيل اتصل بالقنصل ، وكتب هذا الى حكومته بطلب خديو مصر ، ولكن انكلترا أهملت الطلب ثم عادت تذكره بعد أن ابتاعت أسهم القناة فأوفدت الى مصر بعثة على رأسها « مستر ستيفن كيف لفحص شئونها المالية » وكانت البداية التى انتهت بإنشاء صندوق الدين وفرض الرقابة الثنائية وقيام الوزارة المختلطة ، وكانت سنوات التحول الفكرى العنيف بكل متناقضاته وبكل ما فيه من عرامة حملت الأحداث معها الى العنف والثورة التى انتهت اليهما ، وهى السنوات التى تبدأ بالتدخل الأجنبي عام ١٨٧٦ وتنتهى بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، فكانت ست سنوات لم تشهد لها مصر مثيلا فى تاريخها الحديث .

(١) تراجيم مصرية وعربية ص ٦٣ .

معالم التحول :

ولم يكن غريبا أن تكون الحملة على اسماعيل ونقده أبرز معالم هذا التحول ، فلم يعتد المصريون نقد الحاكم ، فحتى ذلك الوقت « كانوا يرون - كما يقول الشيخ محمد عبده (١) - شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب ارادته ويعتقدون أن سعادتهم وشقائهم موكولان الى أمانته وعدله ، أو خيانتته وظلمه ولا يرى أحد منهم نفسه رأيا يحق له أن يبدية في إدارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به . وتضربه عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت اسلامية أو أوربية ، ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير الى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم الى ما جاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد على باشا الكبير وابراهيم باشا ، لم يشعر الأهالي بشمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف ، ومع أن اسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأيا يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل الهيئة الشورية لأن مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل ، ولو حدث انسانا فكره السليم بأن هناك وجهة غير التي يوجهها الحاكم ، لما أمكنه ذلك ، فان بجانب كل لفظ نفيا عن الوطن أو ازهاقا للروح أو تجريدا من المال » .

وما كان الشعب ذاته في نظر اسماعيل شيئا يخشاه أو يقيم

(١) زعماء الاصلاح ص ٦٢ .

له حسابا فما هو الا كما يريد « العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر
والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لاقامة الميزانية ، ولم تكن
للحكومة ميزانية معروفة ، وانما كانت ميزانيتها ما تتطلبه شهوات
عاهلها الذكى القاسى ، ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان
يكفى أن يقول اسماعيل (أريد) لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ
ارادته .. وكل موظف فى الحكومة كاسماعيل شهوة وقسوة ،
وكان ما يطلبه اسماعيل يجبى من الناس أضعافا مضاعفة ، سدا
لشهواته وشهوات هؤلاء الجبابة الجناة ، والناس يجب أن يدفعوا ،
أو يلقى بهم فى غيابات السجون يذوقون فيها أشد العذاب ..
وأى عذاب .. كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلا
فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى
تحرك فى نفوسهم بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمة
أو الانسانية بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين
وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد على عقولهم أقفالها لا يعصون
اسماعيل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (١) .

فاذا كان الأمر لاسماعيل ولبطانته من أوشاب الأجانب الذين
نشأوا فى رحاب محمد على وفى دولته ، واذا كانت دنيا مصر على
رخائها له ولهم وليس منها للمصريين شىء الا الفقر والعذاب
والسخرة والجلد بالسياط لا ينجو منه كبير أو صغير حتى يخشاه
وزرائه ويجزع من قسوته أقرب المقربين اليه ، فقد كان فيه
« من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه
وقسوة لا يتسرب اليها أمل فى رحمة » (٢) ، فلم يحبه المصريون
ولم يحبوا أحدا من آلهم حكم أو ظل بعيدا عن الحكم ، فقد سامهم
البعيد عن الحكم من الازدراء والتحقير بل والقسوة والتعذيب

(١) تراجم مصرية وغربية ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

والبطش اذا عصوا له أمرا ما كان يسومهم الحاكم بطشا وقسوة وتنكيلا .

لذلك لا يتحرك المصريون للتدخل الأجنبي ولما يتحركون وليس لهم من الأمر شيء ، اليسوا أغرابا عنهم كمن تدخلوا في الحكم سواء بسواء ؟ وأكثر من هذا لم يترك حكامهم لهم شيئا يفضبون له أو من أجله .

فاذا كان لهم أن يفضبوا فمن اسماعيل وبطانته ورجال دولته الذين ساقوهم هذا المساق وساموهم الخسف والعذاب قبل أن تقع ببلادهم هذه الكارثة ، واذا كان اسماعيل قد زايسته صولته ، وقلم التدخل الأجنبي أظفاره ، فان في نقد حكمه والتنديد بمساوئ الماضي تنفيسا عن كبت يرهق وجدانهم ويضنى أفكارهم ، فكان التحول من خشيته والخوف منه الى الجرأة عليه والتنديد بمساوئ حكمه ، وأوزار بطانته - ولم يكن لهم عهد بالجرأة عليه أو التطاول على بطانته - سمة هذا التحول الجديد .

وظهر هذا التحول على صفحات الجرائد أولا وفي مناقشات مجلس شورى النواب ثانيا ولم تكن الصحف قبل التدخل الأجنبي وقيام الوزارة المختلطة تعرض للحكم أو تجرؤ على نقده أو حتى على تناول موضوعات أو إثارة أفكار لا يرضى عنها الحاكم لأنها تنبه المصريين الى حالهم وحقوقهم فحين أصدر ابراهيم المويلحي وعثمان جلال صحيفتهما « نزهة الأفكار » عام ١٨٦٩ وغرتهما مظاهر التجديد الذي أخذ يدب في الحياة المصرية ، فظنا أن لقلميهما حرية الكتابة على ما يهويان ، فعرضا في العدد الثاني من مجلتهما بالنقد للجيش وشؤنه (١) لم يطق اسماعيل هذا الاتجاه فأصدر أمره باغلاقها .

(١) أعلام الصحافة العربية ص ١٠٤ .

فلما تألفت الوزارة المختلطة برئاسة نوبار ومن أعضائها وزيران
أجنيبان هما : « سير ديفرس ويلسون » الانجليزى للمالية
و « مسيو دوبلنير » الفرنسى للأشغال استفتحت أعمالها بأخطار
رسمى لجميع الصحف « التى تتضمن الاعتراض بحالة خارجة
عن حدود وظائفهم على مسلك الهيئة الحاضرة » (١) ولم تكن
الصحف قد اعترضت على « الهيئة الحاضرة » بل ان « الوطن »
وهى « صحيفة حرة ترحب بها ، وتثنى عليها ، فهى وزارة مسئولة
لا تظلم ولا تقضى بغير ما يوحى به القانون وخاصة المسائل التى
تتصل بالمال وجباية الضرائب » (٢) . ولا يخفى ما فى ترحيبها
بالهيئة الحاضرة من تعريض بحكم اسماعيل .

وبالرغم من أن تعيين وزيرين أجنيين فى الوزارة النوبارية كان
قمينا بأن يثير الرأى العام والصحافة الوطنية ، الا أن الرأى العام
ظل ساكتا لا يحرك ساكنا وكأن الأمر لا يعنيه ، وراحت الصحافة
الوطنية ترحب بالوزيرين الأجنيين وتدافع عن تعيينهما ، لا حبا
فى الهيئة الجديدة ولكن أملا فى أن تصلح ما أفسده الحكم القديم ،
وغدا ما كان يمكن أن يكون نوعا من التناقض الفكرى تفكيرا سويا ،
فلم يكن اسماعيل ولا حكومته أفضل من هذه الحكومة الجديدة التى
يسيرها فى الواقع وزيران أجنيبان .

ووجدت الصحافة الوطنية فى التغير الجديد تنفيسا عما كانت
تحجم عن قوله مخافة بطش اسماعيل ، فراحت تندد بالعهد القديم
وتذيع مساوئه ، ولكنها لا تسكت على ما أخذ الوزارة فتحمل على
تعيين الأجانب وتذكر التجارة « أن حرمان المصريين حقهم فى
الوظائف بريرية أوربية لا يجوز السكوت عليها لأن القوم نازعوننا
الأرض المجبولة بدم آبائنا ، وأصبحوا أمراء فى بلادنا ، وهى اماره

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٨١ ، وصحيفة التجارة فى ٨ يناير ١٨٧٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١ .

الاجير وملكية المستعير وتأصل الدخيل ، ولا لوم عليهم في ذلك ولا تثريب ، فإن من لا يصون ماله يعلم الناس سرقة « وتهاجم الصحف الأجنبية « المطبوعة تحت سمائنا » لأنها لامت الوزير الفرنسي على تعيين مصريين للأعمال الهندسية ، وتذكرها بأن « عهد الاستبداد وتقييد حرية الكتابة قد انتهى وان الآراء الحرة والفكرة الناضجة ليست وقفا على الفرنجة دون المصريين » (١) . ولا تقتصر الحملة على العهد القديم والتنديد بمساوئه على الصحف وحدها ، فنرى الفلاحين والسراة والتجار والأجانب يكتبون العرائض ويذيعون المنشورات في مظالم العهد القديم فتنتشر التجارة عريضة عمد بنى سويف عما فيه الناس من ظلم (٢) ويتقدم التجار الأجانب في الاسكندرية بمذكرة الى قناصل الدول منددين بمساوئ العهد السابق ومفاسده ، وان كنا نلمس يد الحكومة في التحريض عليها ، الا أنها قضت على التقليد السائد بعدم نقد الحكومة أو التعريض بها ، فلم يمض غير وقت قليل حتى رأينا من شكوا من مساوئ العهد القديم يشكون من مساوئ العهد الجديد ويحملون عليه كما حملوا على سابقه ، وتحطمت اسطورة الولاء المطلق للحكومة والحاكم .

أما مجلس شورى النواب وقد عاش في الاطار الذى رسمه اسماعيل له لا يخرج عنه حتى كان الارتباك المالى ، فدعت الحكومة الى اجتماع غير عادى في ٧ أغسطس ١٨٧٦ بمدينة طنطا للنظر في قانون المقابلة (٣) وبدأ أنها تعتزم الأخذ برأيه في المقابلة ، وقد

(١) المصدر السابق ص ٨٣ ، والتجارة في ١٠ أبريل ١٨٧٨ .

(٢) التجارة في ٢ يناير ١٨٧٩ .

(٣) صدر هذا القانون في ٣٠ أغسطس ١٨٧١ ويقضى بأن من يدفع ضريبة أرضه ست سنوات مقدما يعفى على الدوام من نصف المربوط على أرضه ، وأوقف العمل به بتوحيد الدين (٧ مايو ١٨٧٦) ثم عادت الحكومة اليه (١٨ نوفمبر ١٨٧٦) مع احتساب حصيلته في إيراداتها وخصصتها لاستهلاك الدين العام .

رأى المجلس الإبقاء عليها . وأشار الخديو في خطابه الافتتاحي لدور الانعقاد العادي في ١٣ نوفمبر ١٨٧٦ الى نزول الحكومة على قرار النواب في شأن المقابلة (١) ، وبدا للنواب في هذا الاجتماع ان الحكومة تشركهم في المسؤولية .

الا أن المجلس بقي بعيدا عن المشاركة الفعلية في أحداث البلاد حتى قامت الوزارة المختلطة في أغسطس ١٨٧٨ ، وعقد المجلس دورته الثالثة والأخيرة في تاريخه (يناير - يولية ١٨٧٩) وقد بلغ التدخل الأجنبي في شئون مصر المالية أقصى مداه ، وغدا على الوزارة أن تواجه المجلس في اجتماعه هذا ، وأخذت الصحف تحت أعضائه على ممارسة حقوقهم في النيابة عن الأمة فان « من أعضائه رجالا لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، مع العلم بواجباتهم وحقوق الأمة وما ألم بها من الآلام . وبودهم لو افتدوا الإصلاح بدمائهم . فبشروا أهل مصر بعصر جديد يغنى به طارف المجد عن التليد » (٢) .

ويتصدى المجلس للوزارة يسائلها فلا تستجيب ويتعجلها فتتلأ ، ويماطل ريفرس ويلسون وزير المالية في موافاته بمشروعات وزارته ، ولا ينتظر الأعضاء حضور وزير المالية فيستقر رأيهم على مناقشة خفض الضرائب والغاء بعضها في غيبته ، ويعترض بعض أعضائه على اغفال المجلس في المرسوم الصادر في ٦ يناير ١٨٧٩ ويقضى بتقرير القوانين المالية في مجلس الوزراء وتصديق الخديو عليها ، فمن حقه وحده أن يقرر كل ما يتصل بالأهالي ، وتؤيد الصحافة المجلس في موقفه وتقول التجارة تعليقا على موقفه « أن في السويداء رجالا سودتهم نفوسهم فلا تسام خسفا ولا تضام خسفا » (٣) .

(١) الرافعي عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) التجارة ١٣ ديسمبر ١٨٧٨ .

(٣) التجارة في ٣ فبراير ١٨٧٩ .

وننقأب الصأف اللى رآب بقىام الوزارة المأأطلة علفها
وكانأ تأمل من قفامها اصلاأ سوءأ الماضف فما ازأاأأ الا سوءا ،
فنأأر مساوىء البأانة الأأفوىة وآأمل على الوزارة المأأطلة
وآهاأم الأأانب والوزفرن الأأنبفن وآأأأ موقف النواب وآؤفأهم
وآناقش كأرا من المسائل الفأهفة كأق المألس فف أنآأاب رؤفسه ،
وأقه فف فرض الضرائب والمسؤولفة الوزارفة وآأالاب بفرض الضرائب
على الأأانب « وآاصة الوزفرن اللأفن فآأاضفان سآة آلاف أنفه
فف السنة من شعب فآأأقون بأفلاسه » (١) .

وآأأمل فف هأا الاأار أبرز معالم الآول الأأفأ ، فلم فعد
الناس « فرون شؤنفهم العامة وبل والآاصة ملكا لأأكمهم الأعلى »
— على أأ آعبفر الشفأ مأمأ عبأه — بل فرونها ملكا لأهم وآأهم
من أقمهم أن فقرروها بأنفسهم ، ولم آعد أاأ الأأكم مقأسة
مصونة — فمانا أو رهبا — وانما هو انسان فأرى علفه من النقأ
ما فأرى على ففره ، بل والقأأ اذا أأأ أو آنكب الهأف والآفر .

قوى الآول :

كان الارآباك المالى وفرض الوزارة المأأطلة سببا مباشرا فف
آأول الرأف العام من أأشفة الأأومة والآوف من نقأها والآفرض
بها ، الى الأملة علفها ونقأها والآشفر بأأأائها ومساوئها ، وكانأ
الأملة على البأانة الأأفوىة فف الأقفقة أملة على اسماعفل
ومساوىء أكمه ومأالمه وقأ أفسأأ الوزارة النوبارفة « المأأطلة »
من صأرها للصحف فف نقأ العهد القأفم والآشفر به لآصرف الانأار
عن الآأأل الأأنبف وآسكأ عنها آفن آأمل على رففرس وفلسون
وآأهمه بالأهل فف الأمور المالففة ، ظنا منها أن آنففس الصحف
عما بنفسها « هو أافة ما آصبو الفه » (٢) ، ولكن الوزارة النوبارفة

(١) أأور الصأافه المرففة ص ٨٦ . (٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

تنشل في مهمتها وتمضى الصحف في الحملة عليها وعلى مساوئها التي فاقت مساوئ العهد القديم ، ولم يعد يعنيه أن تذكر العهد القديم بجانب ما انتهت اليه البلاد من سوء في ظل العهد الجديد .

ورأى اسماعيل أن الفرصة تواتيه لاستعادة سلطاته التي جردته منها الوزارة المختلطة ولم تكن نزعتة الى الحكم المطلق قد فارقت لحظة ، فكان مسلكه الجديد بداية أحداث تدفع قوى التحول الى المدى الذي انتهت اليه بخلعه وتولية توفيق وقيام الثورة العربية فانتهاز فرصة هياج الضباط وثورتهم على الوزارة النوبارية لاحتلهم الى التقاعد دون أن تدفع لهم متأخرات رواتبهم عشرين شهرا للتخلص من نوبار ووزارته واستعادة سلطاته . وكانت الخزانة قد عجزت عن الوفاء بمرتبات الموظفين والضباط ، ورأت من باب الاقتصاد احالة ٢٥٠٠ ضابط الى التقاعد ، فتحركت نفوسهم ضدها واجتمع منهم نحو ستمائة ضابط بزعامة البكباشي (المقدم) لطيف بك سليم ، وساروا بجمعهم يتبعهم بعض طلبة المدرسة الحربية والفا جندي قاصدين وزارة المالية ، وحين مرورهم بديوان وزارة الخارجية لمحوا نوبار خارجا منها في عربته فأحاطوا به ، ولكنه لم يلق اليهم بالا وأمر سائقه بالمسير ، واستاء الضباط من لقائه ، فأمسكوا به وطرحوه أرضا وانهالوا عليه بالضرب . وراهم ويلسون وهم يعتدون على نوبار فتقدم منهم يضربهم بعصاه فانشنوا اليه وشدوه من لحيته ، فلما نمت الخبر الى اسماعيل جاء بنفسه وأمر الضباط بالانصراف ، فانصرفوا طائعين مما حمل على الظن بأن له يدا في تحريكهم وأن نفى الرافعي ذلك مستشهدا بما رواه كرومر عن الحادث - وهو شاهد عيان - في كتابه « مصر الحديثة » (١) .

ونجح في التخلص من نوبار ولكنه لم يستعد سلطاته ولم

(١) تراجم مصرية وغربية ص ٦٨ ، وعصر اسماعيل للرافعي ج ٢ ص ٢٠٤ .

يتخلص من الوزيرين الأجبيين اللذين أصبح لهما حق الاعتراض « الفيتو » على قرارات مجلس النظار ، فزادت قوتهما في الوزارة الجديدة التى تألفت برياسة ولى عهده توفيق ، كما حيل بينه وبين حضور جلسات النظار ، وخسر ما أمل .

ولكن مظاهره الضباط - سواء كانت بايعاز اسماعيل أو من أنفسهم - تغدو بدورها ذات أثر بعيد فى التحول الذى تجتازه البلاد وان لم يبد منها حينذاك ما يوحى بأن يكون لها من القوة على فرض التحول ما بدأ جليا فى الثورة العرابية ، فقد كانت البذرة التى أنبتت ثورة الجيش بزعامة أحمد عرابى - وكان أحد المتظاهرين - حين غدتهم بالجرأة على مواجهة الحاكم وحطمت الحواجز التى تقوم بين الجيش والعمل السياسى .

ولا يرضى اسماعيل بالوزارة الجديدة ولا بازدياد نفوذ الوزيرين الأجبيين ولا ببقاء رياض ضمن أعضائها ، فكان لموقفه منها ، ولموقف الوزارة نفسها من مجلس شورى النواب ، ثم لموقف شورى النواب من الوزارة ومن التدخل الأجنبى ممثلا فى وزيريه ما دفع الأحداث الى المدى الذى بلغته بخلع اسماعيل والفكر الى ذروته من التحول بالاصرار على الدستور وحق الأمة كاملا فى الحكم .

ويتربق اسماعيل الأحداث عله يجد فيها منفذا لاستعادة هيئته وسلطته ، فتواتيه بالخلاف بين الوزارة ومجلس الشورى ، حين ترى الوزارة التخلص من المجلس وتعلنه بفض دورته فيأبى الرفض والرفض ، ويواجهه رياض الذى جاء يحمل اليه مرسوم فض الدورة بالرفض ، وكان ريفرس ويلسون قد تقدم بتسوية للارتباك المالى تعلن فيها الحكومة افلاس مصر كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها ، فهاجت الخواطر ، واجتمع الأعيان والنواب

والتجار والموظفون ورجال الدين وقدموا الى الخديو تسوية مالية يعارضون بها مشروع ويلسون ، وأبدوا استيائهم من الوزارة ومن الوزيرين الأجبيين ، وطلبوا « أن تمنح الحضرة الخديوية شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق في كافة الأمور المالية والداخلية كما هو جار في بلاد أوربا » وأن يكون انتخاب أعضائه « بكيفية انتخاب النواب المماثلة له في أوربا » (١) وأن يتقرر مبدأ المسؤولية الوزارية أمام المجلس .

وما أن أبلغ الخديو مشروع اللائحة الوطنية حتى عزل الوزارة وعهد الى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة ، فبدأت بوضع قانون الانتخاب ، وما لبثت بعد شهرين وأربعة أيام من تأليفها أن نشرت في ٤ يونية اللائحة الأساسية لمجلس الشورى ، وقد نصت على عدد النواب وحصانتهم البرلمانية كما نصت على المسؤولية الوزارية ، وكانت قد أصدرت في ٢٢ أبريل دكريتو يكفل حقوق الدائنين ، ويبقى على المراقبة الشائبة وصندوق الدين ، لم تقبله الدول ، واحتجت عليه ألمانيا والنمسا ، وحذت حدوهما إنجلترا وفرنسا .

وشعرت أوربا بالقوى الجديدة التى تلعب دورها في مصر ، وبغنف التحول الفكرى الذى يغذى المصريين بالحركة ويمنحهم القدرة على التحدى ، فتكالبت عليها ورأت الدول الأوربية في عزل اسماعيل ما يعوق الحركة المصرية عن التقدم والنهوض ، ولجأت الى السلطان تستعديه على عزله بعد أن فشلت في أن تحمله على التنازل عن العرش ووصلت برقية من الباب العالى بخلعه في ٢٦ يونية ١٨٧٩ ، وبرقية أخرى في نفس اليوم باسناد منصب الخديوية الى توفيق .

(١) من نص اللائحة الوطنية التى قدمها النواب والوطنيون الى الخديو والمحرة في ٢ أبريل ١٨٧٩ .

وبعزل اسماعيل امتحنت القوى الطارئة التى غدت الأحداث بالحركة طوال السنوات الماضية بقوى أخرى مضادة ، كانت بدورها طارئة ، ولكنها تحكم الأحداث وتوجهها الوجهة التى انتهت إليها فيما بعد ، فلم يفكر الناس فى أن تنتهى الأحداث هذه النهاية الأليمة وان لم تهمهم هذه النهاية كما أهتم اسماعيل ، فلم يكن اسماعيل أثيرا لديهم وأن تشبع لهم ونزل على مطالبهم فى أواخر عهده فلاستعادة سلطانه التى اغتصبها الأجانب ، وقد جمع بينه وبينهم معاناة التدخل الأجنبى ، وانما الذى أهتمهم أن يصل التدخل الأجنبى الى هذا الحد من القوة بعزل خديو البلاد ، ولكنهم يرجون الخير على يد خلفه ، فان ماضيه يشفع لهم بحسن الظن فيه .

لذلك لم يحرك المصريون ساكنا لعزل اسماعيل ، بعد أن أبقى توفيق على الوزارة الشريفة وظهر أنه يعطف على مطالب المصريين ويميل الى جانبهم ، ولكن توفيق وقد وقفت فرنسا وانجلترا تؤيدانه ضد الباب العالى عندما أراد الانتقاص من الحقوق التى نالها الخديو فى فرمان سنة ١٨٧٣ ، عرف لهما جميلهما ، وعرف أكثر من ذلك الا يعول على المصريين الذين تخلوا عن أبيه ولا يعول على الباب العالى الذى يريد الانتقاص من حقوقه فلا يسكت عنه الا بعد أن تهدد الدولتان بتأييد استقلال مصر وانفصالها عن تركيا ، وكان توفيق رغم ما بدا من تقربه للأحرار قبل توليته ميالا - كآبيه وآله - الى الحكم المطلق فما ان وصل فرمان بتثبيته حتى كشف عن ميوله وأقال وزارة شريف ، وألف وزارة برياسته ، وأرسل يستدعى رياض - وكان مع نوبار شبه مبعدين فى أوروبا منذ أحسا جفوة اسماعيل منهما - وكلفه بتشكيل وزارة جديدة فكانت البداية التى أدت الى الثورة العربية ، وان لم يخطر ببال أحد أنها يمكن أن تؤدى الى هذه النهاية ، فحتى ذلك الوقت لم يكن للجيش أثر فى سير الأحداث ، ولا نستطيع أن ندعى لمظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ مثل هذا الأثر وان استغلها اسماعيل لأغراضه

وان عدت في ذاتها سابقة خطيرة يمكن أن تتكرر في المستقبل
الا أنها لم تقم الا لمطلب خاص لا يتصل بأسباب الأزمة القائمة
ودوافعها .

ولم يكن غريبا أن يسكت أقطاب اللائحة الوطنية من النواب
والأعيان على عزل اسماعيل وعلى اقالة توفيق للوزارة الشريفة
وتكليف رياض بتأليف الوزارة الجديدة على ما كان بينه وبينهم
من قبل وما عرف عنه من ميل للحكم المطلق واستسلام للأجانب ،
وأن يمتد السكوت بعد ذلك فلا يحرك المصريون ساكنا لتأليف لجنة
تصفية الدين المصرى من الأجانب وصدور قانون التصفية بعد
ذلك في يولية ١٨٨٠ فقد صدمهم عزل اسماعيل ، ولكنهم أملوا في
خليفته خيرا ، فلما ظهرت نواياه ، غدا السكوت وهو ينطوى على
كثير من النذر ، حال بطش رياض بينها وبين الانفجار الى حين ،
فلم يتخرج في بطشه من تجريد الفريق شاهين باشا كنج وزير
الحربية السابق من رتبة والقباه لاتصاله بالحزب الوطنى ، ومحاكمة
السيد حسن موسى العقاد ونفيه الى السودان لاعتراضه على
الفاء قانون المقابلة ، والغاء الصحف المعارضة وتعطيلها وانذارها .

الا أن بطش رياض وان عاق الانفجار ، لم يحل بين الناقمين
وبين التعبير عما في صدورهم فعمدوا الى العمل السرى ، ونشروا
في نوفمبر أول بيان سياسى طبعوا منه عشرين ألف نسخة نددوا
فيه بالخديو وحملوا على رياض ومضوا - بعد أن فشل رياض
في تعقبهم - يعملون على اسقاطه فبعثوا « بأديب اسحق » الى
باريس حيث أصدر جريدة القاهرة ، فكانت أعنف الصحف التى
حملت على رياض وعلى سياسته ، وقاموا بتوزيعها في مصر بالرغم
من سلطان رياض وعيون رجاله كما يذكر « نينيه » (١) .

وهيأت كل هذه القوى مجتمعة لزعامة أحمد عرابي ، والدور الذي ينتظره ، ولم يكن عرابي بعيدا عن الأحداث منذ البداية ، ولا عما يعتمل في نفوس المصريين من مشاعر متناقضة ، ولكنها تأتلف على السخط مما انتهت اليه الأمور ، فالخاصة من الأعيان والتجار والموظفين يشكون من استبداد الحكومة وانصرافها عن الدستور ، وقد كان لموقف اسماعيل من هذه الطبقة في أواخر حكمه ما يشجعها على الوقوف في وجه الحكومة والتقدم بمطالبها الدستورية ، والعامية تشكو ضيق العيش وفدح الضرائب ووقر السخرة ولكنها تستسلم راغبة لمصير لا ترى فيه بارقة أمل ، والضباط يخشون التسريح والاحالة الى التقاعد ، ولكنهم جميعا ينفعلون بالأحداث ، وكانت أحداثا طارئة غير مبيتة تسوقها الظروف التي تبعثها وتبرزها - ويتفاعلون معها بالتحدي والاستجابة للمواقف الطارئة .

وكانت الثورة العرابية قمة الانفعال بالأحداث والتفاعل معها وجاء تعيين عثمان رفقي على ما عرف عنه من تعصب لأبناء جنسه من الجركس والترك - ليكون وزيرا للحربية في مثل هذا الوقت ليصل بالانفعال الى ذروته ولعل اختيار عثمان رفقي لوزارة الحربية ما كان يعنى الاتجاه في مثل هذه الظروف الى اضطهاد المصريين في الجيش ولم يكن توفيق على تعصبه هو الآخر للترك ولا رياض على ما عرف عنه من تنكر وازدراء لأبناء جنسه من المصريين في حاجة الى خلق مشاكل جديدة في الوقت الذي تنوشهما فيه المشاكل من كل جانب ، ولعل المصادفة وحدها هي التي جعلت لقصر النظر مكانا في دفع الأحداث وتسييرها ، فما كانت البلاد في حاجة حينذاك الى قانون جديد للقرعة العسكرية يراه المصريون في الجيش ضارا بهم ، وما كانت الحاجة ماسة الى اجراء تنقلات بين قادة الأليات تضع الشراكسة مكان المصريين ، فقد كان اصدار قانون القرعة العسكرية في ٣١ يولييه ١٨٨٠ ، ونقل الأميرالاي (العميد) عبد العال

حلمى قائد الآلاى السودانى الى ديوان الجهادية وفصل أحمد عبد الغفار قائمقام الآلاى الفرسان وتعيين ضابطين من الجراكسة بدلا منهما الشرارة التى ألهبت وقود الثورة وحملت عرابى الى قيادتها حين اختاره الضباط المصريون لزعامتهم .

وكان موقف عرابى وصحبه رد فعل طبيعيا للانفعال بموقف عثمان رفقى ونواياه فأجمعوا على التخلص منه وتقدموا الى رياض بعزله ، وكان من اليسير أن ينتهى الموقف عند هذا الحد لولا أن رياض أرغى وأزبد وأنذر وهدد فلم يزدادوا الا ثباتا واثلافا ليحموا أنفسهم مما يراد بهم ، فلما اعتقلوا فى ديوان الجهادية بقصر النيل لمحاكمتهم كانوا قد أعدوا العدة لمثل هذا الموقف ، فما لبث رفاقهم أن علموا باحتجازهم حتى أسرع الآلاى الحرس من عابدين بقيادة البكباشى (المقدم) محمد عبيد الى قصر النيل فاقطحه وفك اعتقال عرابى وزميلييه ، وسار الجميع الى ميدان عابدين حيث وافاهم الآلاى طره بقيادة البكباشى خضر ، ونزل الخديو على مطلبهم وعزل عثمان رفقى ، وعين محمود سامى البارودى صديق العربيين وزيرا للحربية . وحقق عرابى اول انتصار له ، وارتفعت مكانته بين الجنود والضباط المصريين .

وكان من اليسير ألا تتفاقم حركة عرابى لو أن الخديو أحسن علاج الموقف ، الا أن توفيق بتردده وعجزه وقصر نظره دفعها الى التفاقم حين عزل البارودى عن نظارة الحربية وعين بدله صهره داود باشا يكن عساه ينجح فى القضاء على قوة العسكريين النامية ، وأمر الوزير الجديد بمنع اجتماعات الضباط ، وقام باجراء تنقلات بينهم شعر معها عرابى وصحبه بما يببته الخديو من شر لهم ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو رغبة الجيش فى التحرك الى عابدين للتقدم بمطالبه اليه .

وكان عرابى قد أصبح شخصية مرموقة لا فى الجيش وحده

ولكن في كل أنحاء البلاد وعند كل المصريين ، فانه وحده دون الزعماء الوطنيين ، هو الذى تصدى للخديو ولحكومته المستبدة وأجبرها على تنفيذ مطالبه ، واعتقد الناس أن عرابى بما يملك من قوة الجيش وحده القادر على تحقيق آمال الأمة في الحكم الدستورى ، ووعى عرابى هذا الاتجاه وتفاعل معه واستجاب اليه ، فكانت مطالبه التى أعلنها للخديو في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش وعزل شيخ الاسلام والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وفيها قال عرابى في حوار مع الخديو عبارته المشهورة « لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم » (١) .

ويفترض « هيكल » أن قانون العسكرية كان أهم مطلب للجند « وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً اليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب » (٢) وان كنا نستبعد هذا الفرض ونرى أن عرابى كان قد وعى الموقف تماماً وتفاعل معه وأدرك أن زعامة الأمة مهياة له وقد أصبح في الواقع أقوى شخصية في البلاد فتقدم وما كان يدور بخلده أن يكتفى بمطالب الجند أو ينكص راضياً بما يعد توفيق ، ولعل الفكر راوده بعزل توفيق وإعلان الجمهورية على نحو ما كان يدور برأسه ورأس صحبه (٣) وهو ما نعتقد أن عرابى كان ينتويه لو سارت الأحداث على هواه ، فما كان لأسرة محمد على مكان في نفوس المصريين وما أحبوها

(١) كانت تلك عبارة عرابى كما ذكرها بلنت في « التاريخ السرى للاحتلال » نقلاً عن عرابى الا أن عرابى دونها في مذكراته على الصورة التالية ، قال الخديو : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا » ورد عرابى « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا ترانا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو أننا سوف لا نورث بعد اليوم » .

(٢) تراجم مصرية وغربية ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٨٦ .

فى يوم من الأيام ، وما كان يربطهم بها غير الخوف والطمع ، الخوف من بطشها والطمع المستخذى فى نوالها .

ومضت الثورة العرابية فى طريقها ، فوصلت بالأحداث الى ذروتها من العنف وبالفكر الى غايته من التحول ، وعركت الأحداث القوى الجديدة بما ندت عنها من اتجاهات كان أبلغها ظهور طبقة مصرية صميمة أخذت تزحم الطبقة التركية وتزيحها عن مكانها سواء فى الوظائف المدنية أو فى صفوف الجيش ، ثم امتداد الموجة الغربية فى لين انقلب عنفا ، ووداعة أصبحت تنمرا حتى أسفرت فى النهاية عن عدوان طاغ ، أعاد الى الأذهان عدوان الغرب على الشرق ، ثم هذا التحول الفكرى الذى تمتد جذوره الى أيام الحملة الفرنسية ، وأينع على يد رفاعة حتى بلغ مداه وأثمر على يد الأفغانى ، وكان هذا التحول الفكرى هو الذى زود الأحداث بالقدرة على الحركة والاندفاع ، وفيه اكتملت قوى التحول على يد جمال الدين الأفغانى حين جاء فوجد التربة وقد مهدها رفاعة وعلى مبارك لبذره وغرسه .

الأفغانى :

وأعظم القوى فى هذا التحول - دون شك - كان جمال الدين الأفغانى ، لا يفوقه فيها غير قوة الأحداث التى دفعت الى التحول وأدت اليه ، الا أن الأحداث كانت شيئا عارضا وجاءت مرتبطة بآثارها ، يؤدى كل منها الى الآخر وانتهت آثارها بما انتهت اليه الثورة العرابية ، أما القوة الباقية التى ظلت تغذى النفوس بفيض من الأفكار وفيض من الالهام ، وتطبع العصر بطابعها الغلاب فهى القوة التى خلفها جمال الدين الأفغانى وأودعها ضمير مصر وأمة العرب والاسلام فحين وقفت القوى التى أدت الى الثورة العرابية عند حدود مصر لا تتعداها الى البلاد المجاورة ، امتدت دعوة الأفغانى فشملت بلاد العرب والمسلمين وان أثمرت فى مصر أكثر

مما أثمرت في غيرها فلأن التربة كانت مهيئة لغرسه أكثر مما كانت في أي بلد آخر ، فقد خرجت مصر من غمار العصور الوسطى قبل غيرها وامتدت إليها الموجة الغربية فلطمتها باليقظة قبل أن تلطم بها غيرها من بلاد الدولة العثمانية ، وجاء رفاعة الطهطاوي فبشر بها ، وكان على مبارك ثمرة من ثمارها في حفاوته بالتعليم ونشر المعارف الحديثة بين المصريين .

وكانت إقامة الأفغانى بمصر نزوة من نزوات اسماعيل تدفعها المباهاة ويحفزها التفاخر ، فإذا كانت الآستانة قد ضاقت بالأفغانى ، فإن القاهرة لا تضيق به أو بأمثاله وإذا كانت السلطنة لا تحتمله ، فإن الخديوية تحتمله وتحتمل غيره ، فما الخديو بأقل من السلطان وما القاهرة الخديوية بأدنى من آستانة السلطنة ، ان لم تفقها في التحضر والارتقاء . وقد ظل اسماعيل طوال حكمه يرنو بعينييه الى الاستقلال عن الدولة العثمانية ويحاول أن يبدو وكأنه ند للسلطان ، وانه أولى منه بتقدير الدول الأوربية .

فلما أخرج الأفغانى من الآستانة ، وجاء الى مصر زائرا ، رغب اليه رياض باشا البقاء في مصر ، وأجرت عليه الحكومة عشرة جنيهات شهريا ، وما كان رياض من أنصار الحرية ولا نظنه ممن كانت تستهويهم أفكار الأفغانى واتجاهاته ، ولا نشك في أنه حين طلب اليه البقاء في مصر كان ينفذ ارادة اسماعيل ، وما كان اسماعيل هو الآخر من رواد الأفغانى أو المتشيعين له على ما عرف من نزعته الى الاستبداد والحكم المطلق ، ولكنه يحب أن يبدو حاكما مستنيرا تتسع بلاده لكل ما تضيق به الدولة العثمانية ، وما دام قادرا على الحكم المطلق ، واثقا من سلطانه على الناس ، فليس هناك ما يخشاه من تحرر الأفغانى أو دعوته الى الحرية ، وكان اسماعيل قد بلغ حينذاك قمة مجده ، وظن في غروره بعد حفل افتتاح قناة السويس أنه أصبح ندا للسلطان .

ولم يكن الأفغانى قد عاود نشاطه السياسى بعد رحيله عن الأفغان عام ١٨٦٩ ، ولكنه ظل يخاطب العقول والأفهام دارسا أو محدثا فى كل مكان يحل فيه سواء فى القاهرة أو فى الآستانة ، وكانت تلك قدرته التى انفرد بها ، فما كانت الكتب التى قرأها على طلابه فى المنطق أو التصوف أو الفلسفة شيئا جديدا عليهم ، فكم استمعوا اليها من غيره ، ولكنها منه تغدوا شيئا جديدا يضى عليها من ثقافته الواسعة ومن ادراكه الناضج ما يحرر عقولهم من وقر الجمود ومن عبودية المسلمات القديمة ، فأحيا التفكير العقلى ووضع أسس النظرة العلمية الحديثة فى الفكر العربى .

وكان شامخ النفس يدين بحرية الانسان وكرامته فأخذ يحرر الفكر من نوازع الضعف والاستخذاء والنفس من خوف الضيم وذل الاستعباد ، ويكشف للناس عن « سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم » (١) فاستقاموا على ابتغاء الحرية ونبد الاستكانة ، فلما جذبتة الأحداث الى ميدان السياسة حركت فى نفسه ما انطوت عليه من ثورة على الاستبداد وثورة على الاستعمار فأوغل فيها بروحه ووجدانه وارادته وحملها على دربها الذى طرقته فى السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل الى قيام الثورة العراقية فى أوائل حكم توفيق .

علم الأفغانى الناس كيف يفكرون ، وكانت الموجة الغربية قد لطمتهم بأفكار ومثل ظلوا حيالها فى تعلقهم بالقديم حيارى لا يقفون منها موقفا بينا حتى هداهم الى العقل يستوحونه اليقين والى المنطق يجتلونه البرهان فكان رائد الحركة العقلية فى الفكر ، كما كان رائد حركة فى اللغة والأدب وفن الحديث والسمر اتسمت بالانطلاق والتجديد ، فحرر الأدب من خدمة الأرستقراطية

(١) زعماء الإصلاح ص ٦٨ .

الحاكمة الى خدمة الشعب « يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلم عنه ويهاجم من اعتدى عليه . . ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته الا بهم ولا غناه الا منهم ، وأن يلحوا في طلب حقوقهم المفصوبة وسعادتهم المسلوقة وأوحى الى الكتاب بالمعانى الجديدة التى يكتبونها وشجعهم على انشاء الجرائد يكتب فيها ويستكتب منهم من توسم فيه المقدرة » (١) وحرر اللغة من أساليبها المسجوعة ، ويصف الشيخ محمد عبده هذا الأثر فيقول : « كان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكرى وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه ، ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، واما مصنفون فى بعض الفنون العربية او الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات نرى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به » (٢) ، وأقام من أدب الحديث والسمر فنا رفيعا تجلى فيه خاصة من المثقفين « تحسن السمر والحديث وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد وتأخذ على السامع لبه من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، والهلباوى ، ولطفى السيد وكلهم من تلاميذه فى هذا الباب » (٣) .

وعلمهم كيف ينكرون الاستبداد ويثورون عليه ، وكان يرى أن صلاح الحاكم من صلاح الرعية ، ويقول : « ان القوة النيابية لاي أمة لا يكون لها قيمة حقيقية الا اذا نبعت من نفس الأمة ، واى

(١) زعماء الاصلاح ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) الرافعى عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) زعماء الاصلاح : ص ٧١ .

مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محررة له ،
فهو مجلس موهوم موقوف على ارادة من أحدثه « فاذا اقتنعت
الأمة بحقها فى الحكم ، طالبت بالمجلس النيابى وكانت قمينة
بالمحافظة عليه والدفاع عنه . وكان مجلس شورى النواب منحة
من اسماعيل لا رأى له ولا ارادة ، فأنكر أن تكون له قيمة أو أن
يكون لأعضائه قوة على اثبات حقهم « على ما هم عليه من إقالة
التنبيه ، وضعف اليقظة وقلة الشجاعة » (١) . فلما رأى أعضاءه
يتحركون ويتصدرون للتدخل الأجنبى ويقفون فى وجه الوزارة
المختلطة ، أيقن أن البلاد قد نضجت للحكم النيابى وان حقها فيه
لا ينكر ، فنراه يقول للخديو توفيق : « ليسمح لى سمو أمير
البلاد أن أقول بحرية وإخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب
لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم
من وجود العالم والعامل فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب
المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصيح هذا المخلص وأسرعتم فى
إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء
انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم ،
يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » وكان توفيق قد
استدعاه الى قصر عابدين وقال له : « انى أحب كل خير للمصريين ،
ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ،
ولكن مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقى
عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم
والبلاد فى تهلكة » . وخرج الأفغانى من عنده يخطب فى هذا
الموضوع ويستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه فى حماسة
وقوة (٢) .

(١) زعماء الإصلاح : ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ .

وحين شدة التدخل الأجنبي الى ميدان السياسة من جديد أوغل فيها وقد نقم على اسماعيل استبداده وسياسته التي أدت الى تدخل الأجانب في شئون مصر كما نقم على المصريين استسلامهم لاستبداده وتقاعسهم عن مقاومته ، وكان يكره الاستبداد بطبيعته ، كما يكره الاستعمار وقد بلاه وابتلى بشره في بلاده الأفغان وفي الهند ، وها هو يعانيه في مصر ويراه وقد تكالب على بلاد الشرق والاسلام يلتهم أطرافها ويتغلغل في داخلها ويدل عليها بقوته وجبروته ، وبينما هو ينعى على المصريين استسلامهم وتقاعسهم ، ويذكرهم بمنعة آبائهم وأجدادهم اذ به يناشدهم « أن هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء » وبينما هو ينقد اسماعيل ويحمل على سياسته في كل محفل اذ به يحمل رواده وتلاميذه من الكتاب والصحفيين على نقده وتبصير الناس بمساوئه فاكتملت على يديه مرحلة التحول الفكرى العنيف في تلك السنوات القلائل التي عاشها في مصر ، وقبل أن يغادرها منفيًا عام ١٨٧٩ كان قد وضع بذرة الثورة العرابية .

على مبارك وسنوات التحول :

وعاش على مبارك هذه السنوات ، وعاش أحداثها الحوافل ، دون أن يشارك فيها أو تكون له يد في سيرها ، ولعله لم يكن راضيا عنها ، وإن كان قد مهد الأرض لها وسواها لغرسها حين أبقي على تلك القلة من المدارس التي أنشأها محمد على وأنقذها من شر عباس ، وحين قام على اصلاح النظام التعليمى في عصر اسماعيل ومهد للناس وسائل الثقافة والمعرفة بإنشاء دار الكتب وقاعة المحاضرات ومجلة « روضة المدارس » لنشر المعارف الحديثة ، وقد حشد لها أبرز علماء العصر ومفكريه ، وما منهم الا وهو صاحب فضل على النهضة العلمية والفكرية في البلاد وجعل على

رأسها رفاعة الطهطاوى ، وهو البشير الأول بحركة التجديد والبعث الحديثة .

وقد بدأت موجة التحول كما قلنا سنة ١٨٧٦ ، وهى السنة التى اختارها على مبارك لبدايتها وهو يؤرخ لها فيقول فى سرد أحداثها : « وبقيت على هذه الحال الى أن ظهر فى سنة ١٨٧٦ ميلادية قصور الحكومة عن أداء ما عليها لكثرة ما أصدرته من البونات ، وما أثقل كاهلها من الديون ذات الأرباح الكثيرة ، حتى أدى ذلك الى الحجز على أغلب أملاكها والى تداخل الدول الأجنبية فى أمورها ، وآل الأمر الى تعيين لجنة من معتمدى الأجانب ذوى خبرة للنظر فى المالية وفروعها ، وجعل فى هذه اللجنة دولتو رياض باشا نائبا من طرف الحكومة المصرية ، فكان هو الذى عليه المعول فى معرفة الحقائق ، وتم الأمر بتقرير هيئة للحكومة على أسلوب جديد ، فترتبت فى سنة ١٨٧٧ ميلادية هيئة نظارة يرأسها دولتو نوبار باشا فكنت من رجالها على ديوانى الأوقاف والمعارف ، وصدر الدكرى من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه أنى أريد عوضا عن الانفراد المتخذ الآن طريقا فى الحكومة المصرية ، أن يكون لهذه الهيئة ادارة عامة على المصالح ، بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا بالاستعانة بمجلس النظار والاشتراك معهم فى تسيير المصالح ، وأن يكون أعضاء مجلس النظار كل منهم كفلا بالآخر يتفاوضون فى جميع المهمات ويتداولون الرأى فيها ويقررون ما تستقر عليه أغلبية الآراء ، وتصدر قرارات المجلس على حسب الأغلبية وأقررها بالتصديق عليها ثم ينفذها النظار ، فجرى العمل بذلك ، وأخذت هيئة النظارة فى ادارة المصالح على هذا النمط ، وشرعت فى تسديد الديون من إيراد البلاد ومن قرضة استندتها من بنك روتشلد بلوندره وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الانجليزى ،

ورهننت في ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم عنها للحكومة ، وكان مبلغ إيرادها سنويا أربعمائة ألف وستة وعشرين ألف جنيه انجليزي وجعلت لادارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين .

وفي تلك السنوات كان على مبارك مستشارا لديوان الأشغال ، ثم اختير ناظرا للمعارف والأوقاف في وزارة نوبار الأولى - الوزارة المختلطة - عام ١٨٧٨ وبقي بها حتى استقالت في فبراير ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق لفترة قصيرة فبقى فيها ناظرا للمعارف والأوقاف كما كان في الوزارة السابقة ، فلما سقطت وألف شريف الوزارة في أبريل ١٨٧٩ لم يكن ممن اختارهم للعمل معه ، ولكنه عاد ناظرا للأشغال في وزارة رياض التي تألفت في سبتمبر ١٨٧٩ بعد أن تولى توفيق أريكة الخديوية ، وبقيت في الحكم حتى طوحت بها ثورة الضباط في سبتمبر ١٨٨١ فلم يعد الى الوزارة الا بعد أن انتهت الثورة العربية واختاره شريف ناظرا للأشغال في وزارته الرابعة عام ١٨٨٢ .

ولا ترى له خلال تلك السنوات العاصفة أثرا في الأحداث أو رأيا فيها ، ولعله آثر أن ينأى بنفسه عن التيارات التي تحكمها وتوجهها سافرة كانت أو خفية ، فما كان لمثله وقد عرف بالفضل والأصالة ، الا يستشار فيها ، ولعل الثائرين قد سبروا غوره فما وجدوا منه تشجيعا ، فأهملوه وان لم ينكروه ، فقد آثر من ناحية أخرى ، كما توحى الأحداث ألا يقف من الوطنيين موقفا اذا كما وقف رياض منهم ، وبقي على حياده يرقب الأحداث دون أن يشارك فيها أو يدلي فيها برأى ، فقد كان أميل - كما قلنا - لأن تجري الأمور جريها الطبيعي بعيدا عن العنف والثورة . ولعله كان يرجو أن يحل الوفاق محل الخلاف بين الخديو والثائرين وقد عرفنا موقفه ممن قصده من ضباطهم يستشيرونه

فى أمرهم وفى موقف الترك والجر كس منهم ، ولعلمهم حين قصدوه كانوا يسبرون غوره ليعرفوا موقفه منهم اذا قاموا بحركة ضد الخديو ، فما من شك فى أن حركة عرابى قد سبقها تنظيم لصفوف الضباط المصريين فى الجيش ، وما من شك فى أنهم كانوا يتلمسون موقف البارزين من المصريين من نواياهم وما يضمرونه ، وكان على مبارك على قمة هؤلاء البارزين ، وما كان على اعتزازه بمصريته مطمئن بخلاف رياض باشا واسماعيل صديق وأضرابهما من المصريين الذين برزوا فى مضمار الحياة العامة وأصبحوا من « الذوات » كما كان يطلق عليهم فقد آثروا أن يلوذوا بالطبقة التركية ويصهروا اليها ويتشبهوا بها فى سلوكهم وفى حياتهم الخاصة متنكرين لأصولهم ولأرومتهم ، بل أن منهم من قطع كل صلة له بأهله وعشيرته حتى لا يلحق به ما كان يلحق بالمصريين من ازدراء الأتراك وتعاليلهم . ولكن على مبارك وإن أصبح من « الذوات » إلا أنه ظل حفيا بأهله وعشيرته معتزا بانتمائه اليهم ، وكان فى كل ما يعمل - كما عرفنا - يبنى خير المصريين وتقدمهم . وعرف عنه الثوار هذا فأملوا أن ينحاز اليهم ، ولكنه على الأغلب لم يكن مؤمنا بنجاحهم ، وفى الوقت ذاته لم يكن يؤثر العنف ، فابتعد عنهم ولم يعادهم ولم يحمل عليهم . وانكب على عمله فى نظارة الأشغال لا يفرغ منه لتلك الأمور على خطرهما ، وإن ذكر الرافعى ، أنه كان ينصح العرابيين بالحكمة والهوادة (١) . فلما استقالت وزارة رياض ، وكان من أعضائها كما ذكرنا ، أثر الابتعاد التى دعا اليها الثوار فى ١٧ يولييه ١٨٨٢ ، وكانت الأزمة بينهم الى قرينه ، كما نعرف من سياق حديثه عن الجمعية العمومية وبين الخديو اقد بلغت ذروتها ، وبدأ العدوان الانجليزى على البلاد وانحاز الخديو اليهم اذ يقول : « وفى خلال تلك الأحوال كان قد

(١) عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٥٢ .

تشكل بالقاهرة مجلس عرفى بأمر العرابى للنظر فى المصالح ، وكثيرا ما عقدوا مجالس للنظر فى مسائل تعرض من طرف العرابى وحزبه وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ندب اليه كثير من الأمراء والعلماء الروحانيين وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصالح فكنت ممن ندب اليه « ويعنى هذا أنه لم يؤثر الابتعاد فحسب ، بل أثر أن يقف موقف الحياد من الثوار والخديو على السواء ، فلا نعرف أنه كان يتردد على بلده من قبل ، بل أنه ليزكر حين استدعاه رياض سنة ١٨٨٨ ليتولى معه نظارة المعارف أنه كان فى بلده « مشغولا بزراعة بعض أرض لى هناك ، كان قد مضى على نحو من ثلاثين سنة لم أتوجه اليها بسبب كثرة أشغالى بمصالح الحكومة » . ولا نرى فى روايته الأخيرة ما ينقض روايته الأولى ، ولعلها تؤكد ، فما قصد بلده فى المرة الأولى الا ليبتعد بنفسه عن الأحداث وحين قصدها فى المرة الأخيرة كان يبغى العناية بأرضه بعد أن هجرها طوال تلك المدة ، ولو كان يتردد على بلده لما آلت الى التلف وصار أغلبها سباخا » كما يقول .

ولكن على مبارك وقد اختار هذا الموقف فى البداية ، رجع فاتخذ جانب الخديو فى النهاية وانحاز اليه كما يقول الرافعى (١) فى ترجمة حياته وان لم يشر الى هذا الانحياز فى تأريخه للثورة العرابية واكتفى بالقول بأن على باشا مبارك وأحمد بك السيوفى بقيا « بالاسكندرية ورجع الباقون الى العاصمة وأخبروا المجلس بأن الخديو أسير عند الانجليز ولا يمكنه الرجوع الى مصر » (٢) .

ولم يشر على مبارك الى موقفه هذا ، ولم يذكر أنه بقى بالاسكندرية اذ نراه يمضى فى روايته فيقول : « فعينت سفيرا

(١) عصر اسماعيل - ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) الثورة العرابية ص ٣٩٨ .

الى الاسكندرية مع جماعة من الوطنيين ، فلما وصلنا الى الاسكندرية تكلمت في عمل طريقة لما يوجب خمود نيران هذه الفتنة فأجاب الجناب الخديو وصارت المكالمة في هذا الشأن مع رؤساء الانجليز لكن لم تنجح ، ذلك لمزيد نفرة العسكرية .

وكان ما حدث أن الجمعية العمومية التي عقدت من أربعمائة من الأمراء ورجال الدين والنواب ووكلاء الدواوين والمديرين و«القضاة والتجار والأعيان في ١٧ يولييه ١٨٨٢ ، بعد ضرب الاسكندرية في ١١ يولية» اختارت وفدا « من ستة مندوبين من طرف المجلس ليتوجهوا الى الاسكندرية ويلفوا حضرات النظار قرار المجلس ثم يدعونهم للحضور الى العاصمة وقد انتخب المجلس أعضاء لهذه «اللجنة سعادة على مبارك باشا ، وسعادة محمد رءوف باشا من الدوات ، وحضرة أحمد بك السيوفى ، والشيخ سعيد بك الشماخى (وكيل دولة مراکش في مصر) من اعيان التجار ، والشيخ على نايل ، والشيخ أحمد كيوه من العلماء » (١) .

الا أن على مبارك استمر في سفارته بالاسكندرية ، فقد أبرق الى عرابى يقترح تأليف لجنة ممن ينسبهم من رجال الجيش تتقابل مع لجنة أخرى من الدوات ومعهم على مبارك للوصول الى تسوية يرضى عنها الجميع (٢) .

ويبدو أن الاقتراح كان بايعاز الخديو والوزراء ، ولعل الوزراء هم الذين أوحوا به وحملوا الخديو عليه انقاذا للموقف ، واختاروا لعرضه على مبارك سفير الجمعية العمومية اليهم والى الخديو ، وموضع ثقة الطرفين . ويرى « بيوفيس » (٣) أن الأساس الذى

(١) الوقائع المصرية ٢٠ يولييه ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية - ٣١ يولييه ١٨٨٢ .

(٣) Biovas, Achile : Français et anglais en Egypte, 1903, p. 236.

رآه على مبارك لتسوية الموقف هو قبول مطالب الدولتين في مذكرة ٢٥ مايو ١٨٨٢ (١) وإخلاء معسكر كفر الدوار ، وان كنا نعتقد انه الأساس الذى يراه الخديو ويرضى به لاستعادة سلطته ، دون أن يلجأ لاستعادتها والتخلص من خصومه الى سند عسكري يأتيه من جانب فرنسا أو إنجلترا ، وهو يعلم أن الاستعانة بهما فيما لو نجحا في القضاء على العربيين سيقتص من سلطته واستقلاله فاذا نزل العربيون على ما جاء بالمذكرة لم يعد الخديو في حاجة

(١) نص مذكرة الدولتين الى محمود سامى البارودى رئيس مجلس النظار :
« ان قنصلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وكذا رغبته في تأييد سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتكم محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار ، اذ رأى أنها الوسيلة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر ، وهذه الشروط هي :

١ - إبعاد سعادة عربى باشا مؤقتا عن مصر مع بقاء رتبته ومرتبته .

٢ - ارسال كل من على باشا فهمى وعبد العال باشا الى داخل مصر مع بقاء

رتبهما ومرتبتهما .

٣ - استقالة الوزارة الحالية .

وقد رأيا أن هذه الشروط لما فيها من روح الاعتدال تمنع المصائب التى تستهدف لها مصر فهما باسم حكومتيهما وتفويض منهما ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولها . وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وليس لحكومتى فرنسا وإنجلترا غاية من التدخل فى شئون مصر سوى المحافظة على الوضع القائم . (statusquo) وبالتالى أن يعيد للخديو السلطة المختصة به ، اذ بدونها يخشى على هذا الوضع القائم .

وبما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفى فسيبدلان الجهد فى صدور عفو عمومى من الحضرة الخديوية وسيسهران على تنفيذ هذه العفوة .

(الرافعى : الثورة العربية ص ٢٧٩ - ١٨٠ ، مع تعديل اقتضته دقة الترجمة العبارة statusquo - وكذلك الوطن عدد ٢ يونيه ١٨٨٢ ، والكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١٣٩) .

الى الاستعانة بالانجليز ولم يعد للانجليز حجة للتدخل العسكرى بعد أن اتخذوا من حماية الخديو سببا للعدوان . واذا اخلوا كفر الدوار وكانوا قد انسحبوا اليها وتحصنوا بها بعد احتلال الانجليز للاسكندرية لم يعد هناك ما يستدعى زحف القوات البريطانية الى داخل البلاد ، ولعل الوزراء كانوا أشد خوفا من الخديو على استقلال البلاد وأكثر خشية من التدخل البريطانى ، فان ما يهم الخديو أولا وقبل أى شىء آخر هو حماية عرشه وبقائه على هذا العرش ، وليس هناك ما يخشاه على بقاءه من الانجليز وأشد ما يخشاه هو عربى وقد أصبح زعيما شعبيا يدافع عن قضية مقدسة هى استقلال مصر وحمايتها من العدوان الأجنبى . فاذا انسحب عربى من الميدان نزولا على ما جاء فى مذكرة ٢٥ مايو ١٨٨٢ ، ضمن الخديو البقاء على عرشه ، وغدا من المحتمل أن يكف الانجليز عن التدخل المسلح ، ويربح الخديو فى الحالين .

ولعل على مبارك هو صاحب هذا الراى ، ولعله اقنع به الوزراء والخديو فحملوه السعى به الى عربى ، فاقترح هذا الاجتماع وكأنه من جانب الخديو كما يفهم من جوابه الى عربى بكفر الدوار (١) فقد كان على مبارك كما عرفنا - لا يحب العنف ولا يميل اليه ، ويعتقد أن أسباب العمران ماضية فى سبيلها وان الزمن كفىل بتحقيق ما يعز تحقيقه من آمال المصريين ، ولعله حين قصد الاسكندرية ودرس الموقف عن كثب - وهو رجل عسكرى - قد تحقق من خسارة العربايين ، فتقدم بهذا الحل عليه ينقذ البلد - كما يظن - أو ينال ثقة الجانب الرابع .

وأدرك عربى أن على مبارك قد اتخذ جانب الخديو ، فرد عليه برفض الاقتراح وأنه لا يتجاوز حقه فيما « تأمر الامة » وكان هذا آخر عهده بالعربايين ، فقد أذاع عربى منشورا على الدواوين

(١) الرافى : الثورة العربية : ص ٤٠٢ .

والمديريات أعلن فيه انضمام الخديو الى الانجليز وخلع طاعته ختمه بقوله : « وها نحن بجيشنا المظفر المنصور في مراكز الحرب قد بعنا انفسنا في حياة بلادنا وحفظها من الأعداء لا يردنا عن ذلك الا الظفر والنصر أو ارتحال العدو عن ميناء اسكندرية بأساطيله ورجاله ، والا فاننا نقابل القوة بمثلها ولا نسلم البلاد لأحد وفيها ذو روح يتنفس ، والله يؤيد بنصره من يشاء » (١) .

ويبدو أن على مبارك لم يكن موضع ثقة عرابى منذ البداية إذ يأخذ على « البكباشى الفى أفندى يوسف أنه نكث بعهد الذى عاهدناه عليه من أول يوم فلم يعد الى بيته الا بعد ان ذهب الى خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ، وأخبره بما تقرر بيننا في اجتماعنا الأول » (٢) وذلك بصدد ما جرى من اتفاق الضباط على نجده عند اعتقاله بقصر النيل ، كما يأخذ عليه أنه « كذلك أخبر على باشا مبارك بكل ما تم الاتفاق عليه بيننا » مما يدل على أن على مبارك لم يكن في صف العرابيين وأنه كان عينا عليهم عند الخديو كخيرى باشا رئيس الديوان على السواء . ويؤيد ذلك أن عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف في وزارة البارودى يتلمس من شهادته دليلا على براءته من التحيز العرابى فيقول في تبرئة نفسه من تهمة العصيان أنه لم يفه بكلمة في انعقاد الجمعية العمومية بديوان الداخلية « وفي ليلة حضر على باشا مبارك رافقته من منزله الى قصر النيل والاحت عليه بأن ينصح لعرابى ويعرض للجناب الخديو وجوب حل هذه المسألة بالسلم » فلولا أن عبد الله فكرى يعلم مكانة على مبارك عند الخديو توفيق لما تلمس عنده

(١) الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٠٢ والوقائع المصرية في ٢٥ ، ٣١ يولية

١٨٨٣ .

(٢) مذكرات عرابى ج ١ ص ٦٤ - ٦٥ .

هذه الشهادة ، وما كانت تلك المكانة لعلى مبارك عند توفيق
الا لثقتة فى ولائه له ، وايمانه بأنه ضد العربيين .

فاذا قيل ان اختيار على مبارك على رأس وفد الجمعية
العمومية الى توفيق ، دليل ثقة العربيين به ، فاننا نقول انه لم
يكن دليل ثقة العربيين به بقدر ما كان دليلا على ثقة الخديو به ،
فمن البدهة أن تختار الجمعية العمومية من يطمئن الخديو اليه
ويثق فى نواياه ، فانه بذلك يكون أقدر على اقتناعه بما انتهى اليه
قرار الجمعية . وان كنا نستبعد ما ذكره محمود باشا فهمى أحد
زعماء الثورة العربية فى مذكراته اذ نسب اليه أنه حرّض عرب
الشرقية على خيانة عرابى والامتناع عن القتال والتخلى عن معونته
بأذلا لهم الوعود « بانعامات الخديو وعطاياه » (١) وان كان من
المحتمل ان يقع فى مثل هذا الوزر فتحت ضغط الخديو وتلبية
لأمره اذ لم تكن له قدرة على عصيان الخديويين وكان به فرق دائم
منهم « يعترف به ويبدو واضحا فى سلوكه حيالهم وكتاباته عنهم ،
وان لم يجرده ذلك من حبه لبلاده واعتزازه بمصريته على خلاف
من لاذ من المصريين « بالذوات الأتراك » فتنكر لأهله وعشيرته ،
وان نسب اليه « عبد الله النديم » التنكر للأهل والتواء اللسان ،
فقد حمل فى صحيفته « التنكيت والتبكيت » (٢) بعنوان « عربى
تفرنج » على من تعلم فى أوربا ثم عاد الى وطنه وقد اتوى لسانه
وتنكر لأهله ، ويقص عن أحدهم أنه طرق باب أهله بعد غيبة
طويلة فى أوربا فلما سألوه من هو ، أجابهم بلغة أهل باريس ،
فلم يفهموا منه شيئا ، ويذكر الشرقاوى أن بعض المعمرين ممن
عرفوا على مبارك والنديم ، أن النديم كان يقصد على مبارك
بهذا التعريض « وان العارفين الذين قرأوا مقالة النديم يومذاك
لم يشك واحد منهم فى أنه يقصده » (٣) فاذا كنا لا نشك فيما

(١) الجمهورية فى ٢٨ مايو ١٩٥٦ . (٢) ٦ يونية ١٨٨١ العدد الاول .

(٣) على مبارك : حياته ودعوته وآثاره ص ٨٦ ، ٨٧ .

قاله النديم عن هؤلاء النفر الذين يتعلمون في أوروبا حين تلتوى
ألسنتهم ويتنكرون لعشيرتهم ، فالشك يراودنا في أنه كان يقصد
على مبارك بقصته هذه ، وان كان من الشبه بين ما قصه النديم
وما قصه على مبارك بعد ذلك بسنوات عن زيارته لأهله بعد غيبته
الطويلة عنهم ، ما يحمل البعض على الظن بأن النديم يقصده ،
فأن ما ذكره على مبارك عن حياته لا يحملنا على الظن أبدا بأنه
تنكر لأهله أو لنسبته لهم ، فلو كان حقيقة قد تنكر لأهله لاستنكف
أن يذكر من يؤسهم وشقائهم ونسبته اليهم ما ذكر ، فاذا كان
النديم يقصد حقيقة على مبارك فلعله من قبيل التجريح الصحفي
للخصم أو لعلها شائعة قيلت على لسان بعض الحاقدين عليه ،
فاتخذها النديم ذريعة لتجريحه ، وان كان من الانصاف الا نحمل
النديم هذا الاتهام ولم يشر الى على مبارك صراحة بمايقول . فالمعروف
أن على مبارك لم يتنكر قط لعشيرته ولم ينس مصريته في يوم من الأيام،
وكان على الدوام أحرص « الذوات المصريين - كما كان يعرف من
يتعدى حدود طبقته من المصريين الى الطبقة الحاكمة كالذوات
الأتراك - على الانتماء لأهله وعشيرته وبلده الصغير . » برنبال «
كما كان أحرصهم على خدمة مصر واستغلال كل الطاقات التي تمنحها
الدولة له كموظف عام لنفع مصر والعمل على تقدمها ولا ينقص من
شأنه أن رأى في الثورة العربية رأيا لم يرض عنه العربيون ولعله
كان أبعد منهم نظرا ، وأصدق تقديرا للظروف .

ومن المؤكد أن على مبارك كان من المؤيدين لاتجاهات شريف
باشا الدستورية بالرغم من أنه لم يكن وزيرا في وزارته ، فقد اتفق
هو والبارودي - وكانا وزيرين في وزارة رياض باشا عام ١٨٧٩ -
على أن يحتفظا باستقلالها في كل ما يتصل بشئون وزارتيهما - كما
يقول بلنت - بل انه ليؤكد « انهما كانا يدسان لرياض في

ربيع سنة ١٨٨١ بقصد اعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة » (١) .

وما كان اختياره لهما الا لأنهما من أصدقاء العرابيين ويهنه أن يكسب مودة العرابيين .

وعلى أية حال فقد لقيت الحركة العرابية من تأييد النابهين والأعيان في البداية ما لعله جذب على مبارك - ان لم يكن الى تأييدهما فعلى الأقل الى العطف عليها - ولعله كان يرجو ألا تشتط فتؤلب القوى الكبرى عليها ، وهو ما لا تطيقه مصر كما يرى ، فلما رأى النهاية المرتقبة وتأكد منها بعد مقابلته للخديو في الاسكندرية ، رأى أن يقف الى جانبه فأثار العرابيين عليه ، وان لم نر فيما كتبه عرابي بعد ذلك مطعنا عليه كما كتب عن سلطان باشا فوصمه بالخيانة وكانت خيانتة سافرة كما نعرف .

الا اننا نستطيع أن نقول أن على مبارك قد أسهم في حركة الاستنارة التي سبقت الحركة العرابية ومهدت لها ، وهي الحركة التي حمل شعلتها الافغانى وشاركت فيها الصحافة الشعبية وكانت ثمرة من ثمار انتشار التعليم .

وسنوات عجاف

وقضى

عهد وبدأ عهد جديد لم يكن أكثر شرا مما كان قبله ولم يكن أكثر خيرا منه ، وبقيت مصر كما كانت من قبل تجتر الامة ، فلم تنج من استبداد الخديو الا لتقع في استبداد المعتمد البريطانى ، ولم تخلص

من سيطرة الجركس الا وتمتد اليها سيطرة رجال الاحتلال الانجليزى ، ولم يكن سلطان الجركس قد زالها تماما ، فقد بقى توفيق يحيى مراسم الحكم التركى ويتشيع للطبقة التركية ، ولم يشأ الانجليز ان يقضوا على ما كان لها من كيان اجتماعى وان اقتصوا كثيرا من نفوذها فى دوائر الحكومة ، فبقيت لها (أبهتها) . وبقي لها جاهها تستعلى به على المصريين وتستنكر أن يكونوا معها على قدم المساواة ، ولكنهم خلقوا الى جوارها طبقة مصرية صميمة تنازعها الجاه ، وتقلدها فى (الأبهة) . وتدل عليها بانتمائها الى قصر الدوبارة . كانتمائها بدورها الى سراى عابدين (١) . وغدت طبقة الملاك المصريين أو الأعيان وهى تنازع طبقة الدوات التركية ، والانجليز بين الاثنين يقربون ويبعدون كما تشاء مصالحهم وكما تستهويهم الرغبة فى السيطرة والنفوذ على مصر والمصريين .

وكانت سنوات عجافا ، اقتصت فيها الديون والتعويضات مالية مصر ، وانتكست النهضة التعليمية ، وقضى على الصناعات القليلة القائمة ، وتحولت البلاد الى مزرعة للقطن ، وسوق للتجارة

(١) كان يطلق على مقر المعتمد البريطانى قصر الدوبارة ، أما سراى عابدين

فهى مقر الخديو .

البريطانية والاستثمارات الأجنبية التي سيطرت على الاقتصاد القومي . وقبض الانجليز على الجيش والشرطة وعلى كل مرفق من مرافق البلاد ، وأصبح المستشار الانجليزى رأيا مطاعا وسلطة تلو سلطة الوزير .

وخيم على البلاد سكون مرير تسوده الكآبة ، وانطوى الناس على أنفسهم يلحقون جراحهم في يأس صامت ، ووصم الأثمون الثورة بأنها « هوجة » فقيل « هوجة عرابى » حتى يجردوها من كل معنى كريم ، وراحوا يتقربون من الانجليز وينشدون رضاء الخديو ، وسبق محمد سلطان الخديو الى القاهرة نائبا عنه ومفوضا منه بسلطاته فأمر باعتقال كل من كانت له صلة بالثورة فأمر « بسجن جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والأعيان الا من كان من الجواسيس والمنافقين حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو » - كما يروى عرابى في مذكراته - وكان محمد سلطان من دعاة الثورة وموقدى نارها ، فلما رأى كفتها خاسرة انقلب عليها ، وجرى جريه اكثر كبار الملاك من المصريين ممن كانوا يعرفون بالأعيان ، فأخذوا يتقربون الى الانجليز بالحفاوة والهدايا ، وكانوا قد شرعوا في تكوين لجان بالمديريات لجمع الاكتتابات لهدايا قواد الحملة « شكرا لهم على انقاذ البلاد من غوائل الفئة العاصية » (١) - على حد تعبيرهم - فلما لم يلقوا صدى لدعوتهم قدموها من أموالهم الخاصة ، وكان على رأسهم محمد سلطان باشا ، ومحمد الشواربى بك ، وعبد السلام المويلحى بك ، ومحمود سليمان بك وأحمد السيوفى بك ، وقد نالوا الباشوية في عهد الاحتلال .

وكان أعظم ما أصاب مصر من خسارة انتكاس حركتها القومية

(١) الوقائع عدد ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

ولم تكن النكسة في يأس المصريين من تحقيق تحررهم الداخلى والقضاء على الاستبداد التركى الفاشم وإنما كانت في تحول الحركة القومية من التحرر الداخلى الى التحرر الخارجى ومن التخلص من الاستبداد التركى الى التخلص من الاحتلال البريطانى ونفوذ الانجليز الاستعماري ، واستغرق كفاحه سبعين عاما شغل المصريين عن كل شئ سواه ، فعاق حركة التقدم والنهضة في مصر ، كما عاق نمو الحركة القومية في افريقية والشرق .

وقبل أن يدخل الخديو توفيق القاهرة في ركاب الاحتلال ، استدعى شريف وكلفه بتشكيل وزارة جديدة ، وكتب اليه شريف في هذا الصدد يقول : « ان المبادئ التى عرضتها على سموكم منذ سنة لا تزال موضع اهتمامى . . كما أنه لا يلزم أن تتجاوز حدود لوائح ديسمبر » مشيرا بذلك الى الاتجاهات الدستورية ومشروع الدستور الذى وضعه في ديسمبر ١٨٨١ ، ولكن توفيق يبقى على رايه - رغم المحنة - مستنكرا الحكم الدستوري فيجيبه بأنه يرى « انه لا بد في زمن الاضطراب من انتشار سلطتنا على الشعب وادارة الأعمال انتشارا أكثر قوة ووضوحا ، ولذلك فاننا نستدعى عند الاقتضاء التثام مجلس النظار برئاسة للبحث في المسائل المهمة خارجية كانت أم داخلية » (١) .

وألّف شريف وزارته الرابعة في ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ ، وكان على مبارك فيها وزيرا للأشغال وفي ٢٥ سبتمبر استقل توفيق القطار من الاسكندرية في طريقه الى القاهرة وفي معيته الوزراء . وفي ٣٠ سبتمبر استعرض الخديو والوزراء جيش الاحتلال من كشك أقيم لهم بميدان عابدين حف به من الجانبين الجنرال ولسلى ودوق كنوت على جواديهما وفي تجاهه وقف ضباط الياوران الانجليز وكبار ضباطهم .

(١) الرافعى : الثورة العربية ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

وبدأت السنوات العجاف فلم تنقض وتسترجع مصر أنفاسها ،
وتبدأ كفاحها لاجلاء المحتل على يد مصطفى كامل حتى كان على
مبارك قد فارق هذه الدنيا في أوائل العقد الأخير من القرن
التاسع عشر ، بعد حياة حافلة بدأها ومصر تجنى حصاد الخطأ الذي
قادها اليه محمد على وختمها ، وقد تردت في أخطاء حفيده اسماعيل
وخianات توفيق وكأنها على طول المطاف لم تجن غير قبض الريح .

وبقيت وزارة شريف في الحكم حتى يناير ١٨٨٤ اذ قدم
استقالته احتجاجا على تدخل الانجليز في الحكم وطلبهم اخلاء
السودان ، وضمنها اعتراضه على « ان هذه المقترحات مخالفة
لفحوى النظمات الشورية الصادرة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨
التي نص فيها على أن الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع
النظار ، فبناء على ذلك نضطر هنا الى أن نطلب من مقامكم العالي
أن تقبلوا استعفائنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على
أصول شورية » (١) .

والغريب أن «شريف» اذ استقال احتجاجا على اخلاء السودان ،
فان رياض وكان فيها وزيرا للداخلية استقال منها في ديسمبر ١٨٨٢
احتجاجا على تخفيف الحكم على زعماء الثورة العربية . وكان شريف
تركيا من ربيبي محمد على ومبعوثيه « الذوات » في بعثة الأنجال
الى فرنسا ، بينما كان رياض مصريا صميما بدأ حياته كاتباً بديوان
المالية عام ١٨٤٨ ، ونال حظوة لدى عباس الأول فألحقه بمعيته
ورقاه الى رتبة الأميرالاي ونصبه مهردارا له (٢) .

وبقى على مبارك في وزارة شريف ناظرا للأشغال حتى استقالت ،
فأب الى بلده (برنبال) يقوم بزراعة أرض له « كان قد مضى على

(١) الرافي : مصر والسودان ص ١١١ .

(٢) أي حامل أختام عباس .

نحو ثلاثين سنة لم أتوجه اليها بسبب كثرة أشغالي بمصالح الحكومة ومن طول المدة كانت قد آلت الى التلف وصار أغلبها سباخا .

وفي ١١ يونية ١٨٨٨ استدعى رياض لتأليف الوزارة بعد اقالة وزارة نوبار فاختر على مبارك ناظرا للمعارف فقام بها « على حسب المصالح بقدر الامكان » فكان آخر ما تولاه من مناصب الحكومة وبه ختم كتابة سيرته بقوله : « وأخذت في تأدية ما فرض على قيامه بحق وطني أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما فيه نفع العباد وأن يختم لنا وللمسلمين بالخير انه سميع قريب مجيب الدعوات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وكان الاحتلال قد اخذ يقبض يده عن التعليم ، فألغيت المجانية ، واغلقت اكثر المدارس العالية ، حتى لم يبق منها غير الحقوق والطب والمهندسخانة والعلمين ، وانحطت برامج التعليم ، وأصبح قاصرا على اعداد موظفي الحكومة ، واوقفت البعثات العلمية الى الخارج ، وجار أعضاء مجلس شورى القوانين بالشكوى من انكماش التعليم فتضمن تقرير لجنة الميزانية لعام ١٨٩٤ : « ان نشر التعليم قد تفهقر كليا عما كان عليه قبل ذلك . ويحسن بنا أن نقول : ان القابضين على زمام نظارة المعارف العمومية وادارتها قد سعوا بكل اجتهاد الى طرق تقليل التعليم ، وسد أبوابه بكل حيلة في وجوه الأمة ولولا النزر القليل القادر على أداء المصروفات لما وجد في المدارس من التلامذة بقدر عدد المعلمين والموظفين ، كما هو الآن في مدرسة المهندسخانة وغسيريها من المدارس التي انحطت كمدرسة الطب ، ويا ليت النظارة كانت تقبل كل من يأتيها متعهدا بدفع المصاريف ، بل انها سدت هذا الباب أيضا في كثير من الأحوال والجهات » (١) .

(١) مضبطة مجلس شورى القوانين : جلسة ٢٤ ديسمبر ١٨٩٤ ص ٥٠ .

واستمرت وزارة رياض حتى ١٢ مايو ١٨٩١ ، وعلى مبارك يقوم بشئون المعارف ، « على حسب المصالح بقدر الامكان » وتقرر خلال نظارته هذه تدريس المواد باللغة الانجليزية ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية ، وحل المدرسون الانجليز محل المصريين ، كما عين « دوجلاس دنلوب » مدرس اللغة الانجليزية بالمدرسة الخديوية مفتشا لعموم المدارس . وقد أصبح في مارس ١٨٩٧ « سكرتيرا عموميا للمعارف » ثم مستشارا لها في مارس ١٩٠٦ ، فارتبطت بشخصه سياسة التعليم في عهد الاحتلال .

وكان على مبارك من المؤيدين لتدريس المواد باللغة الانجليزية مما حمل عليه معاصروه فنسبوا اليه الميل للانجليز ، وان كنا نعتقد انه لم يكن ميلا بقدر ما كان اعجابا بأمة أصبحت لها تلك المكانة التي صارت اليها بين الأمم في القرن التاسع عشر ، ولعله كان يتمنى لو كانت مصر في تلك المكانة فاختر لصحبة علم الدين رجلا انجليزيا وقصد ان يكون من تلك الصحبة لقاء على وفاق بين الشرق والغرب ، وان لم يفصح عن هذا الاعجاب وان لم يشر الى هذا القصد من لقاء الشرق والغرب وان كنا على يقين من انه أراد ان يضع ماضى الشرق وأمجاده الى جانب حاضر الغرب وتقدمه ، وان يقيم من صحبة الرجلين لقاء بين الحضارتين .

أما تأييده لتدريس المواد باللغة الانجليزية أو الفرنسية فقد حمله وجهة نظره في قصور الترجمة العربية عن نقل البحوث والمصطلحات العلمية الحديثة ، فان لم تكن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب العلم الحديث ، فان القصور قائم في المترجمين القادرين على نقلها الى العربية ، ثم ان في اعادة الطلاب المصريين للغات الأجنبية ما يتيح لهم القدرة على متابعة دراساتهم العلمية والاتصال بأخر أبحاثها في ميادين تخصصهم ، وقد كان لطفى السيد يرى ان حركة الترجمة تسبق حركة التأليف ، وان النهضة العلمية يجب ان تقوم على الترجمة قبل التأليف كما حدث في النهضة الأوروبية

« فقد عمد رجال هذه النهضة - كما يقول - الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة » (١) .

وفى تلك الفترة الأخيرة من حياته ، وفى السنة الأولى من نظارته للمعارف صدرت موسوعته الضخمة « الخطط التوفيقية » ويقال انه وضع فى تلك الفترة كتابا سماه « آثار الاسلام فى المدينة والعمران » ما زال مطويا فى خزانة مؤلفه (٢) .

وآب الرجل الى بلده بعد أن استقالت وزارة رياض عام ١٨٩١ ، ثم أصيب بداء المثانة فعاد الى القاهرة حتى وافته المنية فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ (٥ جمادى الأولى ١٣١١) . فخرجت مصر لتشييعه حكومة وشعبا الى جوار الخالدين .

وانطفأ سراج أضواء سماء مصر حقبة من الزمن .

(١) المؤلف : أحمد لطفى السيد ص ٨٤ .

(٢) محمد درى الحكيم : ص ٦١ .

ثبت المصادر

المصادر العربية :

١ - أحمد أمين

- زعماء الإصلاح في العصر الحديث القاهرة ١٩٤٨

٢ - إبراهيم عبده - الدكتور

- تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٥١) القاهرة ١٩٥١

- اعلام الصحافة العربية القاهرة ١٩٤٨

٣ - أحمد عرابي (الزعيم)

- كشف الستار عن سر الاسرار في النهضة المصرية

المشهورة بالثورة العرابية نشر في سلسلة كتب

الهلل بعنوان : مذكرات عرابي العددان ٢٣ ، ٢٤

٤ - أحمد عزت عبد الكريم : الدكتور

- تاريخ التعليم في مصر (من نهاية حكم محمد علي

الى اوائل حكم توفيق) وزارة المعارف العمومية ١٩٤٥

٥ - أمين سامي (باشا)

- تقويم النيل : الجزء الثالث (ثلاثة مجلدات) دار الكتب المصرية ١٩٣٦

- التعليم في مصر القاهرة ١٩١٧

٦ - جمال الدين الشيال : الدكتور

- التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٥٨

٧ - حسين فوزى النجار : الدكتور

- السياسة والاستراتيجية في الشرق الاوسط القاهرة ١٩٥٢

- ثورة في التعليم القاهرة ١٩٥٨

- أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) أعلام العرب عدد ٣٩

- رفاعة الطهطاوى أعلام العرب عدد ٥٣

٨ - رفاعة رافع الطهطاوى (بك)

- مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب المصرية القاهرة ١٢٣٠ هـ (١٩١٢)

٩ - سعيد زايد

- على مبارك وأعماله الألف كتاب ١٩٥٨

١٠ - عباس محمود العقاد

- محمد عبده أعلام العرب العدد الاول

١١ - عبد الرحمن الراعى

- عصر اسماعيل : جزءان القاهرة ١٩٣٢

- الثورة العربية والاحتلال الانجليزى القاهرة ١٩٣٧

- مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال القاهرة ١٩٤٨

١٢ - عمر طوسون (الأمير)

- البعثات العلمية في عهد محمد على ثم في عهد

- عباس الاول وسعيد الاسكندرية ١٩٣٤

١٣ - محمد أحمد خلف الله : الدكتور

- على مبارك وآثاره القاهرة ١٩٥٧

١٤ - محمد حسين هيكل : الدكتور

- تراجم مصرية وغربية القاهرة ١٩٢٩

١٥ - محمد درى الحكيم (باشا)

- تاريخ حياة المغفور له على مبارك باشا القاهرة ١٨٩٤

١٦ - محمود الشرقاوى وعبد الله المشد

- على مبارك : حياته ودعوته وأثاره القاهرة ١٩٦٢

١٧ - يعقوب أرتين (باشا)

- القول التام فى التعليم العام بولاق ١٨٩٤

مؤلفات على مبارك :

- الخطط التوفيقية بولاق ١٣٠٦ هـ

- علم الدين الاسكندرية ١٨٨٢

- نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر القاهرة ١٢٩٧ هـ

- تنوير الافهام فى تغذى الاجسام القاهرة ١٢٨٩ هـ

- تقريب الهندسة القاهرة ١٢٨٠ هـ

- تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين القاهرة ١٢٩٠ هـ

- الميزان فى الاقيسة والاوزان بولاق ١٣٠٩ هـ

- طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة

العربية : جزآن القاهرة ١٢٩٧ هـ

- حقائق الاخبار فى اوصاف البحار القاهرة ١٢٨٧ هـ

- خواص الاعداد القاهرة ١٢٨٩ هـ

- خلاصة تاريخ العرب : معرب القاهرة ١٣٠٩ هـ

- الكشف والبيان فى اجتماع مادتى الانسان :

- مخطوطة نشرها سعيد زايد فى كتابه على مبارك

مقالات وبحوث نشرت بالصحف والمجلات :

- محمد الصادق حسين بك : مقال نشر في جريدة السياسة الاسبوعية
بعنوان

(رجال التاريخ الحديث في مصر - على مبارك) عدد ٥٧ في ١٩ أبريل ١٩٢٧

- احمد نجيب هاشم : الوزير : خطاب عن على مبارك نشرته مجلة « مرآة العلوم
الاجتماعية » عدد ٨ أبريل ١٩٦٠

- يعقوب صروف : الدكتور : اعلام المقتطف .

- مجلة المقتطف : المجلد الثامن عشر . العددان الثالث والرابع .

- مجلة الهلال : المجلد الثاني . العددان السادس والعاشر - ١٨٩٣ - ١٨٩٤ .

- صحيفة دار العلوم : السنة الاولى . العدد الثالث - يناير ١٩٣٥ .

- صحيفة الجمهورية : من مذكرات محمود فهمى المهندس في ٢٨ مايو ١٩٥٦ .

- عبد الله النديم : مقال نشر في صحيفة « التنكيت والتبكيث » بعنوان
« عربى تفرنج » ٦ يونية ١٨٨١ .

- هيلين آن ريفلين : مقال نشر بمجلة « الشرق الاوسط » مجلد ١٥ عدد ٤

سنة ١٩٦١ بعنوان : الخط الحديدي وازمة ١٨٥٠ - ١٨٥٢ بين مصر والدولة
العثمانية .

وثائق وتقارير :

- مجموعة الديكريات والتقارير وما يتبعها بولاق ١٢٩٨ هـ .

- التقرير الخامس المرفوع من نظارة المعارف العمومية للأعتاب السنية عن حالة
التعليم العمومى بالديار المصرية في سنة ١٨٨٩ (متحف التعليم) .

- قرار وزارى صادر من نظارة المعارف العمومية رقم ١١١ في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٨
المطبعة الأميرية ١٨٨٨ (متحف التعليم) .

- الصحف المعاصرة وقد أشرنا اليها في الهوامش .

المصادر الاجنبية بترتيب ورودها :

1. Helen Anne B. Rivlin:
— The Railway Question in the Ottoman-Egyptian crisis of 1850-1852.
The Middle East Journal: Vol 15. Autumn 1961.
Number 4.
2. Dodwell, Henry:
— The Founder of Modern Egypt: A Study of Mohamed Ali. Cambridge 1931.
3. Blunt W.S.:
— Secret History of the English Occupation of Egypt being a Personal Narrative of Events.
2 Vols. London 1907.

وقد صدرت له ترجمتان ، الاولى من جريدة البلاغ والثانية في سلسلة « اخترنا لك » صادرة عن الدار القومية للطباعة والنشر .

4. Cromer, Eorl:
— Modern Egypt. 2 Vols. London 1908.
5. Ninet, John:
— Arabi Pacha. Paris, 1884.
6. Artin, Yacoub Pacha:
— Considérations sur L'instruction publique en Egypte. Paris 1894.
— L'Instruction publique en Egypte. Paris 1890.
7. Dor, N. uard:
— L'Instruction publique en Egypte. Paris 1892.

8. Bioves, Achille:

— Français et anglais en Egypte :

9. Revue des deux Mondes: Gabriel Charmes:

— Un Essai de Gouvernement Européen en Egypte.

• عدد ۱۵ اغسطس وأول سبتمبر ومنتصف سبتمبر ۱۸۷۹

— L'Insurrection Militaire en Egypte.

• عدد ۱۵ اغسطس و ۱۵ سبتمبر ۱۸۸۳

الفهرس

[illegible]

صدر من سلسلة أعلام العرب

المؤلف	اسم الكتاب
عباس المقاد	١ - محمد عبده
على أدهم	٢ - العتمد بن مباد
د . زكى نجيب محمود	٣ - جابر بن حيان
د . على عبد الواحد وافي	٤ - عبد الرحمن بن خلدون
د . محمد يوسف موسى	٥ - ابن تيمية
ابراهيم الابيارى	٦ - معاوية
د . محمد احمد الحفنى	٧ - سيد درويش
د . احمد بدوى	٨ - عبد القاهر الجرجاني
د . على الحديدى	٩ - عبد الله النديم
د . ضياء الدين الرئيس	١٠ - عبد الملك بن مروان
امين الخولى	١١ - مالك
د . عبد اللطيف حمزه	١٢ - القلقشندى
د . أحمد محمد الحوفى	١٣ - الطبرى
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	١٤ - الظاهر بيمرس
د . محمد مصطفى حلمى	١٥ - ابن الفارض
د . على حسنى الخربوطلى	١٦ - المختار الثقفى
د . سيدة اسماعيل الكاشف	١٧ - الوليد بن عبد الملك
د . أحمد كمال زكى	١٨ - الأصمى
صبرى أبو المجد	١٩ - زكريا أحمد
د . ماهر حسن فهمى	٢٠ - قاسم أمين
أحمد الشرباصى	٢١ - شكيب أرسلان
د . عبد الحميد سند الجندى	٢٢ - ابن قتيبة
محمد عجاج الخطيب	٢٢ - أبو هريرة

المؤلف	اسم الكتاب
د . جمال الدين الرمادى	٢٤ - عبد العزيز البشرى
محمد جابر الحينى	٢٥ - الخنساء
د . أحمد فؤاد الاهوانى	٢٦ - الكندى
د . بدوى طبانه	٢٧ - صاحب بن عباد
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ - الناصر بن قلاوون
أنور الجندى	٢٩ - أحمد زكى
د . سيد حنفى حنين	٣٠ - حسان بن ثابت
عقيد : محمد فرج	٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى
عبد القادر أحمد	٣٢ - مظفر الدين كوكبورى
د . ابراهيم أحمد العدوى	٣٣ - رشيد رضا
د . محمود أحمد الحنفى	٣٤ - اسحاق الموصلى
د . زكريا ابراهيم	٣٥ - أبو حيان التوحيدى
د . أحمد كمال زكى	٣٦ - ابن المعتز العباسى
د . ماهر حسن فهمى	٣٧ - الزهاوى
د . عائشة عبد الرحمن	٣٨ - أبو العلاء المعرى
د . حسين فوزى النجار	٣٩ - أحمد لطفى السيد
د . فوقية حسين	٤٠ - الجوينى امام الحرمين
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٤١ - صلاح الدين الايوبى
محمد عبد الفنى حسن	٤٢ - عبد الله فكرى
د . على حسنى الخربوطلى	٤٣ - عبد الله بن الزبير
أنور الجندى	٤٤ - عبد العزيز جاويز
عبد الرؤوف مخلوف	٤٥ - ابن رشيد القيروانى
محمود خالد الهجرسى	٤٦ - محمد عبد الملك الزيات
محمود غنيم	٤٧ - حنفى ناصف
د . سيدة اسماعيل الكاشف	٤٨ - أحمد بن طولون
أحمد سعيد الدمرداش	٤٩ - محمود حمدي الفلكى
محمد عبد الفنى حسن	٥٠ - أحمد فارس الشدياقى
د . على حسنى الخربوطلم	٥١ - المهدي العباسى

المؤلف	اسم الكتاب
د . محمود رزق سليم	٥٢ - الأشرف قانصوه الغورى
د . حسيه فوزى النجار	٥٣ - رفاعة الطهطاوى
د . محمود أحمد الحفنى	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا ابراهيم	٥٦ - ابن حزم الاندلسى
د . بول غليونجى	٥٧ - ابن النفيس
د . سميد عبد الفتاح عاشور	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هداره	٥٩ - المأمون
محمد عبد الغنى حسن	٦٠ - المقبرى
عبد الرحمن الرافعى	٦١ - جمال الدين الافغانى
د . أحمد كمال زكى	٦٢ - الجاحظ
د . أنور عبد العليم	٦٣ - ابن ماجه
د . ماهر حسن فهمى	٦٤ - محمد توفيق البكرى
د . على محمد الحديدى	٦٥ - محمود سامى البارودى
على عبد العظيم	٦٦ - ابن زيدون
د . عبد العزيز محمد الشناوى	٦٧ - عمر مكرم
د . ابراهيم أحمد العدوى	٦٨ - موسى بن نصير
د . عبد الحلیم محمود	٦٩ - أبو الحسن الشاذلى
د . سيدة اسماعيل كاشف	٧٠ - عبد العزيز بن مروان
د . حسين فوزى النجار	٧١ - على مبارك

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر